دراساتٌ

فى العقيدةِ الإسلامية

دكتور

عبد الحميد عبد المنعم مدكور

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الناشر

دار الثقافة العربية

٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

للعقيدة أهمية بالغة فى حياة الفرد والمجتمع ، وهذا أمر تشهد له الفطرة ، ويثبته التاريخ ، وتدل عليه أدلة العقل ، وتؤيده البحوث النفسية والاجتماعية فى مجالاتها المختلفة ، ولهذا كان الإنسان بحاجة متجددة إلى الدين ، الذى هو من أعظم نعم الله عليه ، مهما بلغ من تقدم علمى ومادى ، وإن رأى بعض الناس رأيا آخر فى ذلك .

وقد جاءت هذه الدراسة فى قسمين متكاملين ، تناول أولهما بعض المسائل والقضايا المنهجية المتصلة بالعقيدة ، من حيث تعريفها ، ومنهج دراستها ، وإبراز الحاجة إليها ، وبيان مكانتها فى بناء الإسلام . ولما كانت هذه الدراسة منصبة على العقيدة الإسلامية فقد اقتضى ذلك بيان المصادر التى تُستَمَدُّ منها هذه العقيدة ، والخصائص التى تتفرد بها عن سواها من العقائد الأخرى .

أما القسم الثانى فقد عنى بدراسة أصول هذه العقيدة ، وهى الأصول الستة : الإيمان بالله ، واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والإيمان بالقدر خيره وشره . وقد اختص كل واحد من هذه الأصول بمبحث خاص يتناوله من جوانبه المختلفة : تقريرا ، واستدلالا ، ومناقشة للشبهات التى أثيرت حوله ، مع الرد على هذه الشبهات .

وقد راعينا أن تأتى هذه الأصول مقترنة - فى المقام الأول - بأدلتها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن هذا هو المسلك الذي ينبغى اتباعه فى بيان أصول العقيدة الإسلامية ، ولأن أدلة القرآن والسنة يتحقق لها من الوضوح وقوة البرهان والإقناع ما لا يتحقق لسواها . ثم إن فيها من الشمول والسعة ما يفى بالاستدلال لهذه الأصول ، على نحو ينبغى معه البدء بها قبل غيرها ، ويستوجب العناية بها ، وعدم إهمالها أو الاقتصار على غيرها من دونها .

ولم يكن ذلك مانعا - على كل حال - من الإفادة مما ظهر فى مجالات أخرى من جهود عقلية ، بُذلت للبرهنة على صحة هذه الأصول ما دامت مستوفية لشرائط البرهان ، ومتجهة فى غايتها إلى الغاية التى قصدت إليها الأدلة الشرعية . ولذلك لم تخْلُ الدراسة من بعض الإشارات إلى بعض الأدلة والآراء الكلامية ؛ بل والأدلة الفلسفية والمعارف العلمية التجريبية ، فى بعض الأحيان ، وإن جاء ترتيبها - غالبا - بعد الأدلة الشرعية ، التى هى أدلة عقلية أيضا ، كما سيتضح من الدراسة .

وقد اقتضت العناية بالأدلة الشرعية أن نبذل مزيدا من الجهد فى عَزْو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة التى تمت الاستعانة بها . ونرجو أن نكون قد أصبنا حظا من التوفيق فى هذا المجال ، الذى قد لا يهتم الدارسون فيه ، أحيانا ، بهذا النوع من التوثيق .

والله عز وجل نسأل أن يلهمنا الصواب والسداد ، وأن يتجاوز عما نقع فيه من قصور أو تقصير .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب

عبد الحميد عبد المنعم مدكور

القسم الأول

فى العقيدة الإسلامية

أولا : العقيدة :

ترجع كلمة « العقيدة » - من حيث الاشتقاق اللغوى - إلى مادة « عقد » . وهى مادة ذات معان ودلالات متعددة ، بعضها حسىٌّ خالص ، وهذا هو الأصل فى الدلالة - غالبا - ، وبعضها معنوى خالص ، وهو يمثل صورة من صور التطور اللغوى ، الذى تتسع له اللغة ، وبعضها مزيج منهما . ويمكن القول بأن هذه المعانى تدور - فى جملتها - على معانى الشدة والقوة والثبات والصلابة والوثوق . وفى ذلك يقول أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) : « العين والقاف والدال (عقد) أصْل واحد ، يدل على شدٍّ ، وشدة وثوق . وإليه ترجع فروع الباب كلها »(١) وقد تدل الكلمة على ضمّ شىء إلى شىء ، على سبيل الحقيقة ، أو المجاز والاستعارة .

ويتضح هذا بالإشارة إلى بعض ما أوردته المعاجم اللغوية عنها . ومن ذلك أنه يقال : عقد السائلُ عقدا : غلُظَ أو جمد ، ومنه قولهم : عقد العسل والرُّبُّ (بضم الراء ، وهو عصير التمر المطبوخ) ويقال : اعتقد الشىءُ : اشتد وصلُب . واعتقد الإخاء بينهما : صدق وثبت .

ويقال - كذلك - : عقد الحبلَ يعقده عقدا إذا شدَّه ، ومنه العقدة ، وهى موضع اجتماع أطراف الشىء أو أجزائه . والعقدةُ - دون ريب - أشد وأقوى من الحبل عندما يكون مرسلا غير معقود(٢) .

ثم استعيرت الكلمة للدلالة على المعانى ، فاستعملت - عندئذ - للدلالة على العقود ، كعقد البيع والشركة والنكاح والبيعة ونحوها(٣) . ويقتضى هذه العقود يتم

---

(١) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون . طبع الخانجى مصر . ط ١٩٨١/٣ جـ٤ / ٨٦ .

(٢) انظر : ابن فارس فى الموضع السابق ، ولسان العرب للفيروزبادى والمصباح المنير للفيومى ، والمعجم الوسيط الذى أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، مادة : عقد .

(٣) انظر : الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن . تحقيق وضبط : محمد سيد كيلانى ، دار المعرفة ، بيروت ، د . ت . ص٣٤١ .

الاتفاق والتراضى ، بين طرفين أو أطراف متعددة ، على تحقيق منفعة ، أو الدخول في التزام يتطلبه العقد . وهى عقود يجب الوفاء بها ، علي حسب الشروط المعتبرة فيها .
ولا تنفصل الكلمة - بهذا المعنى - عن أصلها اللغوى ، وإن روعيت فيها بعض الجوانب المعنوية ، فهى تدل - مثلها - على القوة والصلابة والاجتماع .

وإذا كان الحبل ينعقد فيكون عقدة ، فإن عَقْدا مثل عقد النكاح يقع له مثل ذلك ، إذا تم التوافق والتراضى بين الأطراف التى تقوم به . وجاء ذلك فى قوله تعالى : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسُّوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم ، إلا أن يعفون ، أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ... » (البقرة : ٢٣٧)[١] .

ويلاحظ أن للعقود آثارا ظاهرة تترتب عليها ، ولكن هذه الآثار الظاهرة ينبغى أن تكون مؤسسة ومبنية على جانب معنوى هو القبول والرضا ، كما يشترط فيها استحضار النية وتحقق الإرادة ؛ لكى تكون لها صفة العقود المعتبرة . وفي ذلك يقول الله تعالى عن « اليمين » الذى هو نوع من العقود « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيْمان ...» (المائدة : ٨٩) أى بما صمَّمتم عليه وقصدتموه من الأيْمان ، لا بما يجرى على ألسنتكم من غير نيَّة ولا قصد[٢] .

ثم تطورت الكلمة - مرة أخرى - من العقد إلى العقيدة ، ولم يكن هذا التطور أو الانتقال أمرا مستغربا ؛ لأن العقيدة نوع من القعود ، وقد لخص الراغب الأصفهانى مراحل التطور هذه بقوله : « العقد : الجمع بين أطراف الشىء . ويستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء . ثم يستعار ذلك للمعانى ، نحو عقد البيع والعهد وغيرهما ... ومنه قيل : لفلان عقيدة »[٣] .

---

(١) وقد فسِّر الذى بيده عقدة النكاح بأنه الزوج أو وليّ المرأة ، والأول هو الأقوى من حيث الدليل . انظر - مثلا - تفسير ابن كثير ، طبعة الشعب ٤٢٥/١ ، ٤٢٦ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، طبعة الشعب ١٠١٣/٢ - ١٠١٥ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٦٣/٣ ، وكذا ج٣٩١/١ - ٣٩٣ .

(٣) الراغب الأصفهانى : المفردات ٣٤١ .

وهكذا أصبحت الكلمة تستعمل كما يقول الجوهرى وغيره « فى التصميم والاعتقاد الجازم »[1] وقيل فى تعريف العقيدة : إنها « ما يدين الإنسان به »[2] ، ولا ينطبق ذلك إلا على ما استقر في القلب وانطبع فيه ، وانعقد عليه ، فلا يتحول عنه .

فإذا وجدنا شيئا من الأشياء : مبدأ أو فكرة ، أو مذهبا أو نحو ذلك ، ووجدنا أن ذلك الشىء يرتفع - عند صاحبه - إلى مستوى القبول المطلق ، والتسليم الكامل ، واليقين الراسخ ، الذى لا يقاربه شك ، ولا تخالطه شبهة فإنه يوصف - لديه - بأنه « عقيدة » . ومن شأن العقيدة أن يكون لها - عند المؤمن بها - من التعظيم والقداسة ما يدفعه إلى الإذعان لها ، والتأثر بها فى فكره وسلوكه ، والالتزام بمقتضياتها وأحكامها في حياته ومواقفه ، بحيث يقبل ما يتوافق معها ، ويرفض مالا ينسجم معها أو يخالفها[3] . وربما يصل تأثيرها فى نفسه إلى الدرجة التى تدفعه إلى التضحية - فى سبيلها - بكل شىء ، حتى بنفسه ذاتها .

---

(١) الجوهرى : تاج العروس ، مادة عقد .

(٢) الفيومى : المصباح المنير ، مادة عقد .

(٣) لعل من المناسب هنا أن نشير فى إيجاز إلى معني العقيدة فى سياق آخر . فكلمة العقيدة (dogme) ذات أصل يونانى . وهى تعبر عن حكم مقرر بواسطة سلطة لها من القوة والأهلية ما يُمكّنها من اتخاذ قرار . ولذلك كانت قرارات مجلس الشيوخ أثناء الامبراطورية الرومانية تسمى بالعقائد ، وكانت قرارات القيصر - كذلك - توصف بهذا الوصف نفسه . وعندما استعمل أتباع موسى عليه السلام هذه الكلمة كانوا يقصدون بها أحكام شريعة موسى التي لا يمكن مخالفتها . وقد استخدم أتباع السيد المسيح عليه السلام هذا المصطلح ليعبروا به عن شريعة المسيح . وقد أرادوا بها الأمر الصادر عن السلطة ، وقاعدة الإيمان الذى لا يناقش . وكانت السلطة تعنى - فى المقام الأول ، وقبل وجود الكنيسة - عقائد السيد المسيح وعقائد الحواريين . ويلاحظ - فضلا عن ذلك - أن كلمة العقيدة كانت تستخدم - فى نطاق الفلسفة القديمة - بمعنى يغلب عليه الطابع النظرى . وقد كان يراد بالعقيدة - عندئذ - الصيغ التى تكاد تكون معصومة ، والتى كانت تتضمن المعارف الأساسية لكل نظام فلسفى . ولذلك لم يكن غريبا أن يقال : عقائد فيثاغورس ، أو عقائد أفلاطون . ويدلنا ذلك على أن العقيدة - سواء أكانت فى مجال الدين أم فى مجال الفلسفة - كان لها طابع =

وليس هذا التأثير الذى ينبع من العقيدة ويترتب عليها منحصرا في العقائد الصحيحة كالعقائد التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ بل إن هذه الآثار الفكرية والنفسية تترتب على كل ما ينطبق عليه معنى العقيدة ، حتى ولو كان - في ذاته - باطلا . فهناك من العقائد ما يوصف - عند أهل الأديان - بأنه « عقائد باطلة » ؛ بسبب ما تتضمنه من الأفكار أو العناصر التى تتعارض مع الحق والخير ، أو تتنافى مع العقل الرشيد والمنطق السليم . ولكنها توصف - مع ذلك ، عند أصحابها - بأنها « عقائد » ؛ لأن هناك من الناس من يؤمن بها ، ويذعن لها ، ويتخذها « مصدرا » لأفكاره ، و « مرجعا » لأحكامه ، دون اعتبار لرأى الآخرين فيها . وبناء على ذلك توصف البوذية - مثلا - بأنها عقيدة ، مع أنها تخلو من عقيدة الإيمان بالألوهية ، وينطبق ذلك على العقائد التي ينزع أصحابها إلى تأليه الطبيعة أو بعض عناصرها كالأشخاص ، أو الأشياء كالنار أو بعض الحيوانات(١) .

وكذلك يوصف الكفر والباطل بأنهما من « المعتقدات » التى يؤمن أصحابها بها ، ويدافعون عنها . وقد وصف القرآن الكريم أمثال هؤلاء بأنهم يؤمنون بالباطل ، وحكم عليهم بالخسران « الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون »(العنكبوت ٥٢) كما وصف بعض الناس بأنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ، بدلا من الإيمان الصحيح بالله تعالى . وفي ذلك يقول القرآن « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجِبْت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا

= « السلطة الآمرة » التى تقتضى الاعتقاد والثقة والتسليم والعصمة والسمو على المناقشة . انظر لتفصيل ذلك : شارل جنيبير : تطور العقائد . ترجمة وتقديم وتعليق د / محمد محمد حسانين ، دار مايا للطباعة والنشر ١٩٩١ ص٣٧ - ٤٣ .

(١) انظر - مثلا - : ميرسيا إلياد : تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ، ترجمة عبد الهادي عباس ، دار دمشق للطباعة والنشر ط١ / ١٩٨٧ جـ٣/٥٧ وما بعدها .

سبيلا » (النساء: ٥١)(١) . ولم يكن غريبا - إذن - أن يوصف الكفر بأنه دين وإن كان باطلا . وفى ذلك يقول القرآن عن الكافرين : « لكم دينكم ولى دين » (الكافرون : ٦) وأن يوصف الإلحاد بأنه - عند أصحابه - عقيدة . وإن تكن عقيدة فاسدة . وفى هذا المعنى يقول أبو الحسن الماوردى (ت ٤٥٠ هـ) « الكفر تديُّن بباطل ، والإيمان تدين بحق . وكلاهما دين معتقد ، وإن صح أحدهما ، وبطل الآخر »(٢) . ويقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : « وأطيب الكلام والعقائد : كلمة التوحيد ، واعتقاد أن لا إله إلا الله . وأخبث الكلام والعقائد : كلمة الشرك ، وهو اتخاذ إله مع الله »(٣) .

وإذا كانت العقيدة - من حيث المعنى اللغوى - ذات معنى عام ، يتسع لما هو صالح من العقائد ، وما هو باطل منها فإنها قابلة للتخصيص والتحديد بحسب " المصدر " الذى تنتمى إليه ، أو بحسب " المجال " الذى تُدْرس فيه ، أو نحو ذلك من العوامل أو الخصائص التى تتميز بها العقائد بعضها من بعض . وسننتقل - إذن - من التعميم إلى التخصيص ، بحيث ينصبُّ الحديث على العقيدة المرتبطة بالإسلام . ومن الطبيعى أن نبدأ ببيان المقصود من هذا المصطلح قبل الحديث عما يرتبط به من مسائل أخرى .

---

(١) وردت فى كتب التفسير أقوال كثيرة فى بيان معنى الجبت والطاغوت . ومن معانى الجبت : الشرك والأصنام ، والسحر والشيطان ونحو ذلك . ومن معانى الطاغوت أنه كل ما يعبد من دون الله . انظر مثلا : تفسير ابن كثير ١/٤٥٩ ، ٢/٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) أبو الحسن الماوردى : تسهيل النظر ، وتعجيل الظفر ، فى أخلاق الملك ، وسياسة الْمُلك . تحقيق هلال السرحان . مراجعة وتقديم د / حسن الساعاتى . دار النهضة العربية بيروت ط١/١٩٨١ ص١٨٤ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ، طبع الرياض ٤/٧٤ .

ثانياً : العقيدة الإسلامية وأصولها :

١ - يقصد بالعقيدة الإسلامية : ما يجب التصديق العقلي والقلبي به - تصديقًا يقينيًا جازما - من أصول الإسلام التي لا يصح الإسلام ولا يُقبَل إلا بها . وقد كانت هذه الأصول - قبل غيرها من شرائع الإسلام وأحكامه - موضع عناية القرآن الكريم وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم [١] وكان من أعظم مهام الرسول وواجباته أن يدعو الناس إلى معرفتها ، والبرهنة عليها ، والإيمان بها . وجاءت الإشارة إلى هذه الأصول في مثل قوله تعالى :

- « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير »(البقرة : ٢٨٥) .

- « يأيها الذين آمنوا آمِنُوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزَّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء : ١٣٦) إلى آيات كثيرة أخرى .

وجاء الحديث عن هذه الأصول في كثير من الأحاديث النبوية ، ومن أكثرها عناية بها : الحديث المشهور الذي روته كتب الصحاح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد جاء بحسب رواية مسلم ، الذى افتتح به كتابه ، بعد المقدمة - « ... بينما نحن جلوس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل ، شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتي جلس إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه علي فخذيه . قال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت . قال (عمر) : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه .

(١) سيأتي تفصيل ذلك والاستدلال له ، من بعد ، إن شاء الله تعالى .

قال (جبريل) : فأخبرني عن الإيمان . قال (صلى الله عليه وسلم) : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر : خيره وشره . قال (جبريل) : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال (صلى الله عليه وسلم) : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

وأصول الإيمان أو العقيدة – بحسب الايات والأحاديث – ستة ، وهى الإيمان بالله تعالى ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر : خيره وشره . وقد جُمعت كلها فى الحديث الذى سبق ذكره .

٢ – ووصْفُ هذه الأركان الستة للإيمان بأنها « أصول » يعنى أنها أساسٌ وقاعدة لكل ما يأتى بعدها من فرائض الإسلام وشرائعه وأحكامه وآدابه ، وسائر أوامره ونواهيه ، وأنها أول ما يُبدأ به من أمور الإسلام كله[2] . ولذلك لا يطالَبُ الإنسان – مثلا – بالصلاة أو غيرها إلا بعد الإيمان بالله تعالى ووحدانيته وكماله ، وما يقتضيه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، طبعة الشعب ، تحقيق الأستاذ عبد الله أبو زينة كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... ١٢٨/١ – ١٣٥ .

وأورد مسلم الحديث برواية أخرى عن أبى هريرة . والمشهور تقديم الإسلام على الإيمان ، ولكن جاء فى بعض روايات الحديث تقديم الإيمان على الإسلام ، ومنها رواية لدى مسلم ١٣٧/١ – ١٣٩ ، ولدى البخارى فى صحيحه ، طبع المكتبة الإسلامية باستانبول . باب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ... ١٨/١ وهى عن أبى هريرة أيضا .

وقد أخرج الحديث : الترمذى فى صحيحه ، وأبو داود وابن ماجة والنسائى فى السنن ، وقد حذفنا ذلك اختصارا . وراجع روايات الحديث التى جمعها ابن الأثير الجزرى فى جامع الأصول ، تحقيق الأستاذ / عبد القادر الأرناءوط ، نشر مكتبة الحلوانى وغيره . ١٩٦٩ جـ١ / ٢٠٨ – ٢١٦ .

(٢) ويتفق هذا مع المعنى اللغوي لكلمة أصل . فالأصل هو : ما يبنى عليه غيره ، وهو أساس الشيء الذى يقوم عليه ، ومنشؤه الذى ينبت منه . المعجم الوسيط ، مادة : أصل .

ذلك من الرضا بأمره وحكمه ، والقيام بطاعته وشكره ، والاتباع لشريعته . وإذا كان هذا ينطبق على الصلاة - التي هي عماد الدين - فإنه ينطبق على ما سواها بطريق الأولى[1] .

ومما يدل على ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ بن جبل - رضى الله عنه - حين أرسله إلى اليمن « إنك تَقْدَمُ على قوم من أهل الكتاب . فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى . فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ... »[2] .

٣ - وما دامت هذه « الأصول الستة » أساسا لما بعدها فإن ذلك يقتضى أن يكون الإيمان بها إيمانا يقينيا جازما ، لا شك فيه . فالشك قد يكون منهجا من مناهج المعرفة ، أو طريقة من طرق تمحيص الأفكار ونقدها ، ومعرفة عناصر القوة والضعف فيها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وفصل ما هو برهانى عما ليس برهانيا[3] ولكن

---

(١) ويتفق هذا مع رأى بعض الأصوليين من الفقهاء الذين ذهبوا إلى أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة ، بل هم مخاطبون - أولا - بأصولها ، ثم يأتى التكليف بالفروع من بعد . انظر مثلا : البرهان فى أصول الفقه لإمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك الجوينى ، تحقيق د / عبد العظيم الديب . الدوحة ط ١ / ١٣٩٩هـ جـ١ / ١٠٧ - ١١٠ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب التوحيد ، باب ما جاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى . ٨ / ١٦٤ وقد أخرجه مسلم بروايات متعددة في كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١٦٦/١ - ١٦٩ ، ومسند أحمد ، طبع المكتب الإسلامى ط١٩٨٣/٤ جـ١/٢٣٣ .

(٣) وهذا هو الشك المنهجي الذى تحدث عنه كثير من المفكرين والفلاسفة ، ومنهم الغزالى وديكارت . وهو يختلف عن الشك المطلق أو المذهبى الذى يبدأ بالشك وينتهى به ، وهو يؤدى إلى التوقف عن الحكم . انظر : المعجم الفلسفى ، طبع مجمع اللغة العربية القاهرة ط١٩٧٩/١ ، مادة : شك ص١٠٣ . والشك هو ما استوى طرفاه بلا ترجيح لأحدهما . فإذا ترجح أحدهما ولم يُطرَح الآخر فهو ظن . فإذا طرح الآخر فهو غالب الظن . وهو قريب من اليقين . أما اليقين فهو العلم الذى لا شك فيه . انظر : التعريفات للشريف الجرجانى ، طبعة الحلبى ، مادة . شك ويقين ١١٣ ، ٢٣١ .

هذا الشك يجب أن يكون بمعزل عن عقل المعتقد وقلبه ، وأن يكون بعيدا عن العقيدة وأصولها ؛ لأن الشك يتعارض مع ما يجب أن تتصف به العقيدة من ثبات ورسوخ ويقين . ومن ثم لا يُقْبل - مثلا - أن يكون الإيمان بالله تعالى موضع شك عند المؤمن ؛ لأن في ذلك هدما للإيمان من أساسه . فإذا انهدم الأساس انهدم بعده كل شيء ، ولذلك قالت الرسل - عليهم السلام - لأقوامهم الذين كفروا برسالتهم ورفعوا راية الشك فى وجوههم : « ... أفى الله شك فاطر السموات والأرض » (إبراهيم : ١٠) .

وكذلك لا يقبل الظن فى هذه العقيدة أو ما يأتى بعدها من أصول العقائد ؛ لأن الظن لا يتلاءم ولا يتفق مع اليقين الواجب لها . ولذلك جعل القرآن الكريم الظن فى مقابلة الهدى الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم . وقال عن الكافرين : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى »(النجم : ٢٣) ووصف آراءهم ومعتقداتهم القائمة على الظنون بقوله تعالى : « ومالهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظنَّ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » (النجم : ٢٨)(١) .

ويتضح من هذا أن العقيدة يجب أن تتصف باليقين الذى لا يخالطه شك ولا ظن ولا شبهة . ومما يؤيد هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه : « ... اللهم أعطنى إيمانا ، ويقينا ليس بعده كفر ... » وقد بيَّن للمؤمنين أنَّ أفضل نعَم الله - تعالى - على عباده هي نعمة اليقين ، التى تؤدى إلى سكينة النفس ، وطمأنينة القلب . وكان مما رواه عنه - فى هذا المعنى - أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه «سلوا الله المعافاة أو العافية ، فلم يُؤْت أحدٌ - قط - بعد اليقين ، أفضل من العافية » . وعلى هـــذا المنهج كان ابن مسعود - رضى الله عنه - يقــول : « اليقين : الإيمان كله »(٢) . وقد وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين بقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا

---

(١) راجع كذلك الآيات : ١١٦ ، ١٤٨ من سورة يونس ، إلى آيات أخرى .

(٢) انظر لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : سنن الترمذى ، أبواب الدعوات ، باب منه ١٤٧/٥ . وانظر لحديث أبى بكر : مسند أحمد٣/١، ٥ ومواطن أخرى . وانظر لقول ابن مسعود : صحيح البخارى ، كتاب الإيمان ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : بنى الإسلام على خمس٨/١ وقال الحافظ العراقى عنه : أخرجه البيهقى فى الزهد ، والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن . انظر تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين ، وهو بهامشه ١٠١/١ طبع مؤسسة الحلبى وشركاه ١٩٦٧ .

بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » (الحجرات : ١٥) .

وإذا كانت العقيدة على هذا النحو من اليقين والجزم ، فإنها تختلف - من هذه الجهة - عن بعض أحكام الشريعة التي يَكْتفى الشرع فيها بالظن الراجح ؛ رفقا بالمكلفين ، وتيسيرا عليهم ؛ ورفعا للحرج عنهم ؛ لأن الشرع لو ألزمهم أن يطلبوا اليقين - فى مثل هذه المسائل والتكاليف - لكان فى هذا الإلزام من العسر والمشقة عليهم مالا طاقة لهم به ، أو مالا يستطيعون تحقيقه إلا مع كثير من الحرج ، الذى جاءت الشريعة لرفعه عنهم ، كما قال تعالى : « ... يريد الله بكم اليُسْر ، ولا يريد بكم العُسْر ... » (البقرة : ١٨٥) وكما قال : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج ... » (الحج : ٧٨) .

ومن الأمثلة التى توضح منهج الشرع فى مثل هذه المسائل : ما طالب الله تعالى به المكلفين من الاجتهاد فى تحرِّى جهة الكعبة عند الصلاة . فقد أمر الله رسوله والمسلمين بضرورة الاتجاه إلى جهة القبلة عند الصلاة ، وذلك فى قوله : « ... فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ..» (البقرة : ١٤٤) .

وليس التكليف هنا بالتوجه إلى عين الكعبة ، بل إنه تكليف بالتوجه إليها ، على قدر الطاقة . ولذلك يمكن أن تختلف اجتهاداتهم فى تحديد القبلة ، وليس اجتهاد أحد المجتهدين بأولى من اجتهاد الآخرين ، إذا اختلفوا . ولذلك فلا حرج عليهم أن يصلى كل منهم إلى الاتجاه الذى غلب على ظنه أن تكون القبلة فيه . بل إن المصلى - الذى لا يملك من الوسائل ما يعينه على تحديد القبلة - قد يختلف اجتهاده ، فيصلى إلى أكثر من جهة ، بحسب الظن الذى يغلب عليه . وقد يقع له ذلك فى أكثر من صلاة ، بل قد يقع له ذلك فى صلاة واحدة ، ولا حَرَجَ عليه ما دام قد بذل أقصى جهده ووُسْعه فى التحرى لها . ومعنى ذلك أن الشرع رضى من المكلفين ما غلب على ظن كل واحد منهم ، ولم يلزمهم الوصول إلى درجة اليقين . ثم إنه رفع عنهم الحرج والإثم ، بل

ضمن لكل منهم أجر الاجتهاد ، وإن أخطأ عين الحق(١) .

وليس هذا هو الشأن فيما يتعلق بأصول العقيدة التى لابُدَّ فيها من اليقين .

٤ - وإذا كانت العقيدة علي هذه الدرجة من الأهمية فإن تحديد " أصولها " يجب أن يصان عن كل ما يؤدى إلى الاضطراب ، أو الميل مع الأهواء ، أو التصرف فيها بالزيادة أو النقصان . وإنما يتحقق ذلك بأن يكون المرجع فى " تحديد " هذه الأصول إلى النصوص الشرعية الصحيحة ؛ لأنها هى صاحبة " الاختصاص " الأصيل فى هذا التحديد . ويمكن القول بأن التصرف فى هذه الأصول : زيادة أو نقصا ، دون برهان أو مستند شرعي - يُعَد من المحظورات التى ينبغى اجتنابها .

وإذا كانت فروع الشريعة التى تدخل فى نطاق علم الفقه(٢) - لا يمكن الحكم أو الإفتاء فيها إلا بنص من الكتاب والسنة ، أو قياس على نص منهما ، أو إجماع راجع إليهما ، أو نحو ذلك من الأدلة المعتبرة شرعا - إذا كانت الفروع على هذا النحو فإن الأصول أولى أن تكون كذلك ، بحيث لا يكون الحديث عنها إلا على هَدْى من النصوص الشرعية .

ويزداد الأمر ضرورة وإلحاحا إذا ما لاحظنا أن الاختلاف حول الحكم فى فروع الشريعة دائر بين الصواب والخطأ ، على حسب قوة الدليل أو ضعفه . فهو صواب يحتمل الخطأ ، أو خطأ يحتمل الصواب(٣) . والخطأ - هنا - لا خطر فيه ، ما دام الفقيه قد بذل غاية جهده فى الوصول إليه . أما الأصول الاعتقادية فإن الاختلاف

---

(١) انظر : الرسالة للإمام الشافعى (محمد بن ادريس ٢٠٤هـ) تحقيق الشيخ أحمد شاكر . دار التراث ط٢/١٩٧٩ ص٤٨٧ وما بعدها إلى ص٥٠٣ .

(٢) بالمعنى الذى صار إليه من الاختصاص بفروع الأحكام ، بعد أن كان فى أول أمره بمعنى عام جامع يشمل الفقه فى الدين ، وعلم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال إلى غير ذلك من المجالات . انظر : الغزالى : إحياء علوم الدين ، بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم ١/٤٨ ، ٤٩ .

(٣) كما قال الإمام الشافعى رضى الله عنه .

فيها قد يتعدى نطاق الصواب والخطأ إلى الحكم بالإيمان والكفر على ما يصدر فيها من الآراء ، على نحو ما يوجد فى كتب الفرق الكلامية(١) ، التى لم يكن أصحابها يتحرجون – فى أحيان كثيرة – عن إطلاق الأحكام بالكفر على من يخالفهم فى النظر إلى بعض الأصول الاعتقادية ، ومن ثم كان الرجوع إلى النصوص الشرعية في تحديد هذه الأصول ضرورة لازمة ؛ لأنها صاحبة الاختصاص الأصلى كما سبق القول ، واتباعًا للأمر الإلهى بالرجوع إلى الله ورسوله فى كل أمر شرعى ، ولا سيما إذا وقع خلاف أو تنازع « ... فإن تنازعتم فى شىء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »(النساء : ٥٩) . وكذلك يقول الله تعالى : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى اللــه ، ذلكم اللــه ربى عليه توكلت وإليه أنيب » (الشورى : ١٠) .

(أ) التوسع فى معنى العقيدة عند بعض علماء الكلام :

وإذا تقرر أن « المرجع المعتبر » فى تحديد أصول العقيدة هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وكانت هذه الأصول مجموعة فى الأصول الستة التى سبقت الإشارة إليها ، فإنه ينبغى توجيه النظر إلى أن بعض علماء الكلام – الذين نشأ علمهم – فى الأصل – لإثبات العقيدة ، والدفاع عنها ضد خصومها بالأدلة العقلية – قد توسعوا في تحديد هذه الأصول توسعا ظاهرا ، حتى إنهم أدخلوا فى نطاق العقيدة ما يمكن أن يكون دليلا عليها ، أو مقدمة تمهيدية لها ؛ أخذاً بالمبدأ المشهور ، القائل بأنه مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

---

(١) ولذلك كان بعض الأئمة من الفقهاء والمحدِّثين يكرهون الاشتغال بعلم الكلام . ومن هؤلاء : الشافعى الذى سئل عن مسألة من مسائل الكلام فقال : سلنى عن شىء إذا أخطأت فيه قيل : أخطأت . ولا تسألنى عن شىء إذا أخطأت فيه قيل : كفرت . انظر : صون المنطق والكلام عن فنّى المنطق والكلام لجلال الدين السيوطى تحقيق د / على النشار ، وسعاد عبد الرازق ، طبع مجمع البحوث الإسلامية ط ١٩٧٠ ج ١ / ١٠٥ . وانظر أقوالا مماثلة لغيره من الأئمة ١ / ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما نجده لدى عالم الكلام الأشعرى عبد القاهر بن طاهر البغدادى(١) (ت ٤٢٩هـ) فى حديثه عن الأصول التى اجتمع عليها أهل السنة والجماعة .

وقد ذكر أن جمهور أهل السنة والجماعة قد اتفقوا على أصول من أركان الدين ، كلُّ ركن منها يجب على كل عاقل بالغ معرفة حقيقته . وكان الركن الأول من هذه الأركان هو إثبات الحقائق والعلوم على الخصوص والعموم . وقد كانت الغاية من تقرير هـذا الأصل هى إثبات وجود حقائق للأشياء ، وإثبات أن العقل قادر على التوصل إليها ، وإقامة الدليل عليها . وهذا الموقف مناقض لرأى السوفسطائية الذين ينفون العلم بالأشياء ، كما ينفون حقائق الأشياء كلها ، أو يشكُّون فى وجودها ، أو يجعلون وجود الحقائق تابعا لمجرد اعتقاد الإنسان فى وجودها ، ومن ثم يمكن له أن يثبتها إن شاء ، أو ينفيها إذا أراد ، دون أن يكون لها - فى ذاتها - وجود مستقل يفرض نفسه على العقل الإنسانى .

وهذه الأقوال التى ذهب إليها هؤلاء السوفسطائيون تمثل آراءهم فى المعرفة ، ومنهجهم فى النظر ، وتفسيرهم لعلاقة العقل بالوجود . ولعله لم يخطر على بالهم - وهم يتحدثون عن هذه الآراء - قضية الإيمان والكفر ؛ لأن اهتمامهم بهذه المسائل كان داخلا فى نطاق نظريتهم فى المعرفة .

---

(١) وصفه كتاب التراجم بأنه إمام عظيم القدر، كثير العلم ، أجاد علوم كثيرة ، من أشهرها : الفقه والأصول والحساب وعلم الكلام . وكان يقوم بالتدريس فى سبعة عشر علما . وقد أنفق من ماله على أهل العلم والحديث حتى افتقر . وقد اعترف الناس بإمامته فى العلم ، فأجلسوه مجلس أستاذه أبى اسحاق الإسفرايني أحد أئمة الأشاعرة بعد وفاته ، وقرأ عليه وتعلم على يديه عدد كبير من الأئمة . له مؤلفات كثيرة منها : أصول الدين ، والفرق بين الفرق ، وكتاب التفسير ، وفضائح المعتزلة (!) وفضائح الكرامية ، وله كتب فى الحساب والتصوف وغيرهما . توفى ٤٢٩ بمدينة إسفراين . انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان . تحقيق د/ إحسان عباس دار صادر ٢٠٣/٣ وطبقات الشافعية لتاج الدين عبد الوهاب السبكى . تصوير دار المعرفة بلبنان ٢٣٨/٣ - ٢٤٠ . وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ، تقديم الشيخ محمد زاهد الكوثرى . طبعة القدسى ١٩٧٩ ص٢٥٣ ، ٢٥٤ .

ولكن البغدادى رأى إن إنكار الحقائق جملة سوف يكون له آثار تؤدى إلى إنكار الحقائق التى يأتى بها الأنبياء ، أو الحقائق التى تتوصل إليها العقول الصحيحة . ومن ثم وجد من الضرورى أن يتصدى لهؤلاء ، وأن يبطل أفكارهم وآراءهم ، وليس عليه من حرج إذا تصدى لهم ، مستخدما كل ما يمكن حشده من الأدلة والبراهين الدالة على بطلان آرائهم . ولكن كان ينبغى أن تظل المسألة فى نطاق مبحث المعرفة ، الذى هو مبحث من مباحث الفلسفة ، دون أن ينقلها إلى نطاق العقيدة . ولكنه جعل إثبات هذه الحقائق أصلا من أصول الدين ، وحكم بالكفر على هذه الفرق السوفسطائية عندما قال : « وهذه الفرق ... كلها كَفَرَةٌ معاندة لموجبات العقول الضرورية » ثم ألزم كل عاقل بالغ بضرورة معرفة حقيقة هذا الأصل الذى جعله من جملة أصول الدين [1] وهو أمر فيه من التعسير على الناس ما فيه ؛ ولذلك لم يرد الإلزام به فى شىء من النصوص الشرعية .

وينطبق ذلك على حديثه عن الركن الثانى من أركان أصول الدين ، وهو القول بحدوث العالم وخلقه بعد أن لم يكن . وقد تطرق فى حديثه عن هذا الأصل إلى بعض المعلومات والمعارف التى كانت سائدة فى علوم الطبيعة والفلك لدى اليونان ومن جاءوا بعدهم إلى عصره .

ومن هذه المعارف أن العلم ينقسم إلى جواهر وأعراض . ويقول : إن أهل السنة والجماعة قد أجمعوا على أن كل جوهر جزءٌ لا يتجزأ . « وأكفروا النظّام والفلاسفة الذين قالوا بانقسام كل جزء إلى أجزاء بلا نهاية ... »[2] وليس هذا التقسيم إلى جواهر وأعراض مما جاء فى النصوص الشرعية ، ولكنه يرجع إلى نظرية يونانية ، قال بها بعض الفلاسفة اليونانيين مثل ديمقريطس ، وتؤدى نظريته إلى قدم العالم ، على

---

(١) انظر : البغدادى : الفرق بين الفرق ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد . طبعة صبيح ، دون تاريخ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥٤ .

(٢) الفرق بين الفرق ٣٢٨ .

عكس ما يريد البغدادى وغيره من القائلين بهذه النظرية(١) . وسواء أكانت الجواهر التى تتكون منها الأجسام تصل فى التقسيم إلى حدٍّ لا تتجزأ بعده أم كانت الجواهر تنقسم إلى غير نهاية ، فإن الأمر فى تقويم هذه الفكرة كان ينبغى أن يكون محصورا فى دائرة الصواب والخطأ ، وأن يكون المدار فى قبولها أو رفضها متوقفا على قوة الأدلة أو ضعفها . أما أن تُنقل القضية كلها من نطاق " المعرفة " إلى نطاق العقيدة ، وأن يترتب على ذلك إطلاق الأحكام بالكفر والإيمان فهذا أمر ما كان ينبغى الوقوع فيه . وهو - على كل حال - مثال واضح للتوسع فى تحديد معنى العقيدة ، وتعيين أصولها .

ومما يزيد هذه الملاحظة وضوحا أن البغدادى يجعل من المسائل المتعلقة بهذا الأصل من أصول الدين ، كما يقول ، مسألة لا علاقة لها بالعقيدة أصلا . ويتضح ذلك فى قوله : « وأجمعوا على وقوف الأرض وسكونها »(٢) وقد كان هذا رأى كثير من العلماء حتي عصره ، وظل هذا رأى بعضهم إلى وقت قريب . وهو يرتبط بالمعارف الطبيعية والفلكية التي يتوصل إليها العلماء عن طريق تجاربهم وفروضهم العلمية . وينبغى أن تبقى المسألة فى هذا النطاق ، لا تتعداه ، ولكن البغدادى نقل المسألة إلى ميدان العقيدة دون دليل شرعى . وقد فاته أن ينتبه إلى أن من جملة ما يتميز به القرآن الكريم - فيما يتعلق بالظواهر الكونية والطبيعية - أنه لا يقيد العقل البشرى بمقولات قد يتعذر على العقل ، فى بعض الأوقات ، إثباتها ، أو قد تدل المشاهدة فى بعض الأحيان على أمر مضاد لها . بل إنه يكتفى - فى أكثر الأحيان - بالدلالة العامة التى توجه العقل إلى ملاحظة ما فى الوجود من دلائل القدرة والحكمة والإتقان ، وترك للعقل البحث عن التفصيلات ، وما تخضع له من قوانين يتوصل

---

(١) انظر : مقدمة د/ محمود قاسم لتحقيق كتاب مناهج الأدلة لابن رشد . مكتبة الانجلو المصرية ط٣/١٩٦٩ ص١٢ ، ١٣ .

(٢) الفرق بين الفرق ٣٣٠ وانظر : التعليق الجيد الذى كتبه الشيخ محيى الدين بهامش هذه الصفحة .

إليها حينا بعد حين ، وجيلا بعد جيل . وقد انتبه البيرونى إلى ذلك فى أثناء حديثه عن علوم الفلك والنجوم عند أهل الهند ، حيث بين أنّ علومهم فى هذه المجالات قد جرت « على خلاف الحال بين قومنا . وذلك أن القرآن لم ينطق فى هذا الباب - وفي كل شيء ضرورى - بما يحوج إلى تعسف فى تأويل ... ولم يشتمل - أيضا - على شيء مما اختُلف فيه ، وأيِسَ من الوصول إليه مما يشبه التواريخ »[1] .

وليس الأمر مقصورا على البغدادى وحده ، بل يشاركه فى ذلك آخرون ممن كتبوا فى علم الكلام[2] . ولقد كان من مقاصدهم أن يعملوا على نصرة العقيدة بتحرير الأدلة ، وإحكام مقدماتها ، وتأصيل بعض الأصول للبناء عليها . وهى غاية نبيلة ، دون شك . ولكنه كان عليهم أن يحفظوا الحدود الفاصلة بين ما هو من مباحث المعرفة ، وبين ما هو من مجال العقيدة وأحكامها ، حتى لا يؤدى ذلك إلى الاضطراب واللبس ، أو يؤدى إلى التوسع والتساهل - أحيانا - فى وصف المخالفين بالتكفير .

(ب) التوسع فى معنى العقيدة عند بعض علماء الفقه من أهل السنة :

سلك بعض الفقهاء والأئمة من أهل السنة - عند سردهم لأصول العقيدة - مسلكا ، يوهم من لا دراية له بعلوم الشريعة ، وأصول العقيدة أن بعض " فروع " الأحكام يُعَامَل معاملة أصول العقيدة ، ويوضع موضعها من العناية والأهمية . وينشأ هذا الوهم من ذكر هذه الفروع فى ثنايا الحديث عن الأصول .

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى الوصية المنسوبة إلى الإمام أبى حنيفة النعمان - رحمه الله - (ت ١٥٠هـ) . وقد اشتملت هذه الوصية على كثير من أصول الدين أو ما يندرج تحت اسم **الفقه الاكبر** الذى جعله أبو حنيفة اسما لعلم أصول الدين أو علم الكلام ، تمييزا له عن علم الفقه (الأصغر) الذي يختص بعلم الأحكام الشرعية .

---

(١) أبو الريحان البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة ، طبع دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر أباد الدكن بالهند ١٩٥٨ ص٢١٩ ، وانظر : فى الفكر الفلسفى الإسلامى : مقدمات وقضايا ، لصاحب هذا البحث . دار الثاقفة العربية ط١/١٩٩٣ ص٤١ وما بعدها .

(٢) لا يتسع المقام لكثير من التفصيل . ولكنا قدمنا مثالا يمكن القياس عليه ، والبحث عن نظائره فى كتب علم الكلام والفرق .

وجاء فى هذه الوصية أن مذهب أهل السنة والجماعة يقوم على اثنتى عشرة خصلة ، إذا تحققت فى شخص من الأشخاص كان مؤمنا بعيدا عن البدعة والأهواء . ومن هذه الخصال : أن الإيمان إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وأنه لا يزيد ولا ينقص[1] وأن المؤمن مؤمن حقا ، وأن الكافر كافر حقا ، وأن العصاة من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - مؤمنون حقا(!) وليسوا بكافرين . وأن الرحمن على العرش استوى ، وأنه حافظ للعرش وغيره ، من غير احتياج إليه ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنه وحيه وتنزيله .

ثم تمضى الوصية فى بيان هذه الخصال التى يتميز بها أهل السنة والجماعة . وهى خصال يظهر للمتأمل فيها أنها عُنيت - فيما سبق - ببيان الأصول الاعتقادية التى يجب الإيمان بها . لكن الوصية ما تلبث أن تتحدث عن بعض " فروع " الأحكام ، كأن يقال : والخصلة التاسعة : « نقر بأن المسح على الخفين واجب (!) للمقيم يوما وليلة ، وللمسافر ثلاثة أيام ... والقصْر (للصلاة) والإفطار (للصائم) فى السفر رخصة ، بنص الكتاب (القرآن) . ثم تعود الوصية مرة أخرى إلى الحديث عن بعض الأصول الاعتقادية كالإيمان بالجنة والنار وسؤال القبر ، وبعث الأرواح بعد الموت للحساب ، والإيمان بالصراط الذى تمشى عليه الخلائق فى الآخرة ، إلى غير ذلك من الأصول[2] .

---

(١) المعروف من رأى أهل السنة والجماعة أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح ، وأنه يزيد وينقص . وقد كان للإمام أبى حنيفة رأى واجتهاد خاص به لا يخرج به - عند التحقيق - عن رأى أهل السنة ، وأن الخلاف بينه وبينهم فى هذه المسألة كان خلافا لفظيا . انظر : مثلا الإيمان لابن تيمية . طبع المكتب الإسلامى ط٣/١٣٩٩هـ ص١٨٣ ، ٢٨٠ - ٢٨٢ ، ٢٩٢ ومواضع أخرى . وكتاب : أبو حنيفة للشيخ الإمام محمد أبى زهرة ، دار الفكر العربى ط/١٩٧٧ ص١٦٩ - ١٧٧ .

(٢) عن تقى الدين بن عبد القادر التميمى . الطبقات السنية ، فى تراجم الحنفية . تحقيق د/ عبد الفتاح الحلو . دار الرفاعى ، الرياض ط١/١٩٨٣ جـ١/١٥٦ - ١٦٠ والنص من ص١٥٩ . وما بين الأقواس مزيد للإيضاح .

ويتفق مع هذا ما جاء عن أبى حنيفة - فى مناسبة أخرى - عندما سئل : مَنْ أهل الجماعة ؟ فقال : « الذى لا ينظر فى الله عز وجل (أى الذى لا يفكر فى ذات الله تعالى) ولا يكفر أحدا بذنب ... ويمسح على الخفين »(١) .

ويشبه هذا ما قاله الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله (ت ٢٤١هـ) فى رسالة له فى السنة ، فى حديثه عن صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة . وقد ذكر بعض الأصول الاعتقادية ثم قال : « ... وصلاة العيدين والجمعة والجماعات مع كل أمير : برٌ وفاجر . والمسح على الخفين فى السفر والحضر ، والقصر فى السفر ... والتكبير على الجنائز أربعا » « ... ولا نكاح إلا بولىٍّ وشاهدى عدل . والمتعةُ حرام إلى يوم القيامة »(٢) .

وليس المسح على الخفين وقصر الصلاة فى السفر ، والتكبير على الجنائز أربعا إلخ مما ينطبق عليه وصف " الأصول " بل إنها من مسائل " الفروع " التى يختلف الفقهاء فى أحكامها بحسب الأدلة التى تثبت لدى كل منهم ، ثم بحسب مناهجهم فى الاستدلال والاستنباط والترجيح ، تبعا للأصول الفقهية المعتمدة لديهم ، دون أن يؤدى الخلاف بينهم إلى طعن فى العقيدة أو إصدار حكم بالخروج بسببها من دائرة الإيمان .

ولعله يمكن تفسير مسلك هؤلاء الأئمة بأنهم كانوا يتحدثون حديثا عاما عن صفات المؤمنين من أهل السنة والجماعة دون أن يأخذوا فى اعتبارهم مسألة التقسيم إلى أصول وفروع ؛ لأن مثل هذا التقسيم إلى أصول وفروع ، ثم قصر الأصول على علم العقيدة أو علم الكلام ، وقصر الفروع على علم الفقه الذي يُعْنى بالأحكام العملية ، إنما هوشىء محدث بعد العصور الأولى للإسلام . وقد حدث التقسيم على أيدى مَنْ

---

(١) ابن عبد البر أبو عمر يوسف : الانتقاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء ، دار الكتب العلمية - بيروت ، د . ت ١٦٣ وانظر ١٦٤ أيضا .

(٢) محمد بن أبى يعلى الفراء . طبقات الحنابلة ، نشرة الشيخ محمد حامد الفقى ، مطبعة السنة المحمدية ٢٩٤/١ ، ٢٩٥ ثم انظر ٣٣٠/١ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ . وانظر مثالا آخر لعالم آخر من علماء الحنابلة ، المرجع نفسه ١٨/٢ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ .

جاء بعدهم من المتكلمين والفقهاء . وقد جرى حديث الإمامين : أبى حنيفة وابن حنبل على ما كان عليه الحال قبل التقسيم والتصنيف والتخصص الذى آلت إليه الأمور من بعدهم ، أو لدى غيرهم .

ويرى ابن تيمية أن الدين أقوال وأعمال ، وأن المتكلمين غلب عليهم الاهتمام بالأقوال وما تدل عليه من عقائد . وأن الفقهاء اهتموا بالأعمال ؛ لأنهم كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عمل . لكن ذلك لا يعنى أن الأقوال أو العقائد كلها من باب الأصول ، أو أن الأعمال كلها من باب الفروع ، بل إن كلا من الأقوال والأعمال فيها مسائل أصول ، ومسائل فروع[1] .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن هذين الإمامين ومن جرى على طريقتهما فى الجمع بين الأصول والفروع قد قصدوا إلى بيان الخصائص التى يتميز بها أهل السنة والجماعة عن غيرهم من الجماعات والفرق التى ظهرت فى المجتمع الإسلامى كالشيعة والخوارج وغيرهم . ومما يؤيد هذا التفسير ويقويه ما جاء لدى أبى حنيفة وابن حنبل من ذكر المسح على الخفين ، وما جاء لدى الإمام أحمد بن حنبل من تحريم المتعة إلى يوم القيامة . وتعد هاتان المسألتان من المسائل الخلافية بين أهل السنة وغيرهم كالشيعة ومن ثم كان التنبيه عليهما والعناية بذكرهما من الأمور المقصودة ؛ لبيان افتراق أهل السنة عن غيرهم من الفرق فى هذه المسائل الهامة ، وإن تكن من مسائل الفقه ، لا من مسائل الاعتقاد .

غير أنه يتبقى - بعد هذا - أن الجمع بين الأصول والفروع فى مقام واحد قد يوهم من لا دراية له بعلم العقيدة وموضوعاتها أن مثل هذه الفروع التى سبقت الإشارة إليها ترتقى إلى مقام الأصول ، مع أن الأمر ليس كذلك عند هؤلاء الأئمة . ولكن ذلك يوضح - على كل حال - أنه لابد من تحرى الدقة والحذر فى تحديد الأصول ؛ لما يترتب على ذلك من نتائج بالغة الأهمية والخطر ، وقد تؤدى - في بعض الأحيان - إلى إصدار رأى أو حكم بالخروج من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر .

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٦/٦ وما بعدها .

(جـ) التوسع فى معنى العقيدة عند الخوارج :

ولعل مما تتضح به هذه الفكرة الهامة أن نشير - فى إجمال - إلى رأى فرقة الخوارج ، الذين خرجوا على الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه (ت ٤٠هـ) فى تحديدهم لمفهوم الإيمان وعناصره .

وقد ذهب هؤلاء الخوارج إلى أن الإيمان مكون من عناصر ثلاثة هى : نطق اللسان واعتقاد القلب ، وعمل الجوارح . ولا يكون الإيمان معتبرا فى الدنيا ، ولا منجيا من عذاب الله فى الآخرة إلا باجتماع هذه العناصر الثلاثة جميعا . وهم يضعونها - جميعا - على درجة واحدة من الأهمية ، بحيث يكون التقصير فى واحد منها سببا فى زوال الإيمان كله ، وحلول صفة الكفر محله . وترتب على ذلك أن تقصير الإنسان فى العنصر الخاص بعمل الجوارح يؤدى إلى وَصْفِه بالكفر عند جمهور فرق الخوارج(١) بل

---

(١) الإيمان عند أهل السنة والجماعة ، أهل الحديث وكذلك عند المعتزلة مكون من هذه العناصر الثلاثة كذلك . لكن أهل السنة يفترقون عن الخوارج والمعتزلة فى أن أهل السنة لا يكفرون بالذنب ، أو بعبارة أدق لا يكفرون بكل ذنب ، وأن الإنسان إذا ارتكب كبيرة من الكبائر : فعلا أو تركا ثم مات من غير توبة منها فهو تحت مشيئة الله تعالى : إن شاء الله عفا عنه وإن شاء عذبه ، لكنه لا يكون من المخلدين فى النار .

أما الخوارج فإنهم يقولون إن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار ، ويرى المعتزلة أنه فاسق مخلد فى النار . وينبغى - إذن - أن نلاحظ أن الاتفاق الظاهر فى الصيغة الدالة على الإيمان بين أهل السنة من جهة ، والمعتزلة والخوارج من جهة أخرى ، لا يعنى الاتفاق بينهم فى قيمة كل عنصر من عناصر الإيمان الثلاثة ، كما لا يعني الاتفاق على النتائج المترتبة على غياب العنصر الخاص بالأعمال . انظر المسألة : مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعرى ، تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ط٢/١٩٦٩ جـ١ / ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٤ ، ٣٢٩ - ٣٣٢ إلخ ، وشرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار بن أحمد ، وهو من تعليق الإمام الزيدى أحمد بن الحسين بن أبى هاشم . تحقيق د/ عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة ط٢/١٩٨٨ ص٦٦٦ وما بعدها ٦٩٧ وما بعدها وكتاب الإيمان لابن تيمية ١٣٧ ، ١٦١ ، ٢٨٧ ومواطن أخرى ، إلى مصادر أخرى كثيرة .

يذهب بعضهم إلى أن مرتكب صغائر الذنوب كالكذبة الصغيرة أو نحوها يكون مشركا ، إذا أصر عليها[1] بل يزداد بعضهم تشددا وتعنتا وتعسيرا فيرى أن مرتكب الصغيرة يكون خالدا مخلدا فى النار حتى ولو لم يصر عليها[2] .

ويعنى ذلك أن الخوارج عاملوا الأعمال معاملة العقائد والأصول . ومن ثم وَسَّعوا دائرة التكفير ، وضيقوا دائرة الإيمان .

وكان مما أدّاهم إلى ذلك أنهم لاحظوا بعض النصوص دون بعض ، ونظروا إليها نظرة جزئية لا نظرة تكاملية ، تجمع النصوص وتوفق بينها ، وتستخلص المعانى والأحكام التى تتضمنها في جملتها ، دون أن تغفل بعضها أو تضرب بعضها ببعض . ثم كان من أسباب ذلك أنهم وقعوا فى خطأ منهجى فى فهم الآيات القرآنية واستنباط دلالاتها . وقد عبر بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – عن هذا بأنهم « انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار ، فجعلوها على المؤمنين »[3] .

(د) التوسع فى معنى العقيدة عند الشيعة :

ذهب الشيعة فى بيانهم لأصول الدين التي يجب اعتقادها والإيمان بها إلى أن من بين هذه الأصول : الإيمان بالإمامة والاعتقاد فى الإمام .

ولم ينظر الشيعة إلى الإمامة على أنها قضية سياسية تتعلق بمسألة عملية مصلحية تندرج تحت مسائل الفروع الواردة فى الشريعة كولاية القضاء والحسبة ونحوها ؛ بل نظروا إليها على أنها قضية أصولية ، بل على أنها " ركن الدين " كما يقول الشهرستانى ، أو أنها " ركن الدين وقاعدة الإسلام " كما يقول ابن خلدون تعبيرا

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين ١/١٨٩ وهذا رأى فرقة « النجدات » منهم .

(٢) انظر : طبقات الحنابلة ١/٣٤ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم . باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم ٨/٥١ . والقائل هو عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما . وقد وصفهم بسبب صنيعهم هذا بأنهم شرار خلق الله .

عن رأيهم[1] ويترتب على ذلك - عندهم - أنه لا يصح أن يُتْرك أمرها إلى الأمة ، ولا يجوز للنبى - صلى الله عليه وسلم - أن يغفلها ؛ بل لابد أن يعيِّن للمسلمين من يتولى أمر الأمة من بعده ، وهو - فى رأيهم - أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ثم تنتقل الإمامة من إمام إلى آخر بنص كل إمام على الإمام الذي يأتى بعده . وقد وصفوا الأئمة بالعصمة من الذنوب كبيرها وصغيرها ، وجعلوا من خصائصهم المعرفة بباطن النصوص الشرعية التى جاء النبى بظاهرها .

وقد جعلوا الإيمان بالإمامة أو الولاية مقدَّما على الصلاة والزكاة وغيرهما من الأركان ؛ لأن الشرع لم يهتم بشيء مثلما اهتم بالولاية . وإذا قورنت الولاية بغيرها من الأركان " فالولاية أفضل ؛ لأنها مفتاحهن " . وقد قال بعض أئمتهم « ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن : الطاعة للإمام بعد معرفته .. أمَا لو أن رجلا قام ليله ، وصام نهاره ، وتصدق بجميع ماله ، وحج جميع دهره ، ولم يعرف ولاية ولى الله فيواليه .. ما كان له على الله - عز وجل - حق فى ثوابه ، ولا كان من أهل الإيمان »[2] وقال : « لا يعذر الناس بجهالتنا : من عرفنا كان مؤمنا ومن أنكرنا كان كافرا . ومن لم يعرفنا ولم ينكرنا كان ضالا حتي يرجع إلى الهدى ... »[3] والإمامة هى : « زمام الدين ، ونظام المسلمين » وهى « أسُّ الإسلام النامى وفرعه السامى » وهى « نظام الدين وعز المسلمين »[4] .

---

(١) انظر : الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم الشهرستانى (بهامش الفصل لابن حزم) ومقدمة ابن خلدون مطبعة الشعب ١٧٥ ، ١٧٦ المطبعة الأدبية ١٣١٧هـ ١/١٩٥ .

(٢) الأصول من الكافى ، لأبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى ، تصحيح ومقابلة نجم الدين الآملى ، طبع المكتبة الإسلامية : طهران ١٣٨٨هـ جـ٢/١٥ ، ١٦ ، ١٧ - ١٩ ومواطن أخرى كثيرة .

(٣) السابق ١/١٤٤ وانظر ١/١٥٤ - ١٦٩ .

(٤) انظر : السابق ١/١٥٥ ، ١٥٦ . وانظر كذلك : أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، بيروت ص٥٧ - ٥٩ وعقائد الإمامية للشيخ محمد المظفر - المطبعة العالمية ط٨/ص٧١ ، ٧٢ .

وقد انفرد الشيعة برأيهم هذا من دون بقية الفرق التى ظهرت بين المسلمين ، الذين لم يأخذوا برأى الشيعة في تحويل هذه القضية إلى قضية دينية أصولية . كما ردوا دعواهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نص على الخليفة من بعده ، نصا صريحا ، وبينوا أنه ترك الأمر شورى للمسلمين ، يختارون له من يرون أنه أصلح للقيام به من بينهم . ولو كان فى المسألة نصوص - كما يقول الشيعة - لما اختلف الصحابة فيما بينهم ، وتناقشوا فى سقيفة بنى ساعدة ، حتى شرح الله صدورهم لاختيار أبى بكر الصديق - رضي الله عنه - ثم إن الرسول لو كان أوصى لعلىٍّ لأعلن ذلك على الملأ ، لما عُرف عنه من جرأة وشجاعة وقوة ، ولكان واجبا على المسلمين - عندئذ - أن ينصاعوا لأمر الرسول ، بسبب ما اتصفوا به من المسارعة إلى طاعة الله ورسوله[1] .

ولذلك كله ، ولغيره من الأسباب . لم يكن من السهل التسليم بما ذهب إليه الشيعة من أن الإمامة هى أساس الإسلام ، أو أنها أصل من أصول الدين ، مع الاعتراف بما للإمامة من أهمية بالغة ، بوصفها وسيلة من وسائل الحفاظ على الشريعة وتطبيق أحكامها ، ولما تقوم به - بحسب تعبير ابن خلدون - من « حراسة الدين وسياسة الدنيا به »[2] . ومع ذلك تظل عند أهل السنة من باب الفروع ، لا تتعداها إلى الأصول ، لا سيما أصول الدين . وفي ذلك يقول إمام الحرمين الجوينى (ت ٤٧٨ هـ) : « الكلام فى هذا الباب (الإمامة) ليس من أصول الاعتقاد »[3] . وكذلك يقول الغزالى (ت ٥٠٥هـ) : « النظر فى الإمامة - أيضا - ليس من المهمات ، وليس أيضا من فن المنقولات (المعقولات ؟) فيها ؛ بل من الفقهيات»[4] .

---

(١) يمكن الرجوع هنا إلى الفصل لابن حزم والملل والنحل للشهرستانى ، وأصول الدين للبغدادى وتثبيت دلائل النبوة للقاضى عبد الجبار والأربعين فى أصول الدين لفخر الدين الرازى وأمثالها من الكتب التى تناولت الرد على آراء الشيعة فيما يتعلق بالإمامة وغيرها .

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) الجوينى : كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد ، تحقيق د/ محمد يوسف موسى ، والشيخ علي عبد المنعم ، مكتبة الخانجى ١٩٥٠ ص ٤١٠ .

(٤) أبو حامد الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ، مطبعة صبيح ١٩٦٢ ص ١١٨ .

وهكذا حدث توسع فى معنى العقيدة وتحديد أصولها ، ووقع ذلك في مجالات وميادين كثيرة ، ولدى طوائف متعددة . فأضيف إلى العقيدة وأصولها ما ليس منها . وقد اختلفت الأسباب التى دعت إلى ذلك . وكان ينبغى الالتزام بأن يكون المرجع في تحديد هذه الأصول هو النصوص الشرعية المأخوذة من كتاب الله تعالى ، ومن السنة النبوية الصحيحة .

وينبغى لنا - قبل أن ننتقل إلى فكرة أخري - أن نشير إلى عدد من الملاحظات الهامة :

الملاحظة الأولى : أن كل أصل من الأصول التى سبقت الإشارة إليها يتضمن عددا من المسائل والعناصر التى تندرج تحته . فالإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوجوده ووحدانيته وأسمائه وصفاته من العلم والقدرة والإرادة ونحوها ، كما يتضمن الإيمان بأنه خالق للعالم وكل ما فيه ، وأنه حافظ له ومُدُّه بأسباب الوجود والبقاء ، إلى آخر ما يتضمنه هذا الأصل .

والإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يتضمن الإيمان بعموم رسالته ، وختم لنبوة به ، كما يتضمن التصديق بكل ما أيده الله تعالى به من الآيات والمعجزات الدالة على صدقه ونبوته .

وهكذا الإيمان بالرسل والكتب الإلهية والملائكة والإيمان بالقدر . فكل أصل من هذه الأصول يتضمن من العناصر ما يكتمل به هذا الأصل ، ويتقرر فى قلب المعتقد وعقله ، بصورة يقينية بعيدة عن الشكوك والظنون .

الملاحظة الثانية : أن تحديد الشرع لهذه الأصول يقتضى المعرفة بما جاء فى الشرع من دلائل إثباتها ؛ فالشرع لم يذكر هذه الأصول مجردة عن الأدلة والبراهين ، بل إنه ساق من هذه الأدلة ما يكفى لتقرير كل واحد منها . وليست أدلة الشرع معزولة عن الطابع البرهانى ، كما قد يظن من لا علم له بها ؛ بل إنها أدلة شرعية عقلية فى

الوقت نفسه[1] ولذلك يجب تقديمها على ما سواها من الأدلة التى قدمها الكلاميون والفلاسفة وغيرهم لأن أدلة هؤلاء لا تتقدم عليها ولا تغنى عنها . ومن المعلوم أن التكليف بالعلم بهذه الأدلة يكون لكل مكلف بحسب استطاعته ، اتباعا للقاعدة القرآنية « ... لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ... » (البقرة : ٢٨٦) وإن كان ما تتميز به هذه الأدلة الشرعية من الوضوح ، وموافقة العقل والفطرة ، يجعلها أكثر يسرا فى العلم والاقتناع بها من سواها من الأدلة .

الملاحظة الثالثة : أن الاعتماد على الأدلة الشرعية لا يعنى حرمان العقل من الاجتهاد فى تأييد هذه الأصول وتقريرها بما يهتدى إليه من براهين . بل إن العقل مدعوٌ إلى بذل الجهد فى هذا المجال ؛ نظرا لتجدد الشبهات التى يثيرها المنكرون للدين والوحى بصفة عامة ، وللإسلام ومصادره وعقائده بصفة خاصة . وذلك يقتضى المعرفة بهذه الشبهات ، من جهة أهل الاختصاص ، تمهيداً للرد عليها . ولن يتأتى ذلك إلا بعد الدراسة العميقة لها ، واستكشاف مواطن الضعف فيها ، ثم الاجتهاد فى تقديم الردود عليها ، مع الاستعانة والاستهداء بما تضمنته النصوص الشرعية من أجناس الأدلة والرد على المخالفين . وهكذا تتضافر الأدلة العقلية المستنبطة ، مع الأدلة الشرعية فى تقرير العقيدة والبرهنة عليها .

وغنىٌ عن البيان القول بأن ما يساق من براهين أو اجتهادات فى هذا المجال ينبغى أن يكون ملتزما بضوابط الاجتهاد التى عنى العلماء بتحديدها منذ زمن بعيد[2] ؛ حماية للاجتهاد من الفوضى ، وصيانة له عن الأهواء ، ووقاية للنصوص من التحريف والتأويل المستكره الذى لا تحتمله هذه النصوص .

---

(١) سيأتى تفصيل ذلك والاستدلال له ، فيما بعد ، إن شاء الله . وانظر على سبيل المثال : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق د / محمد رشاد سالم طبع الرياض ٣٦/٨ ، ٣٧ ومجموع الفتاوى ١١٤/٤ ، ١١٥ ، ١٩ / ٢٢٨ - ٢٣٤ .

(٢) انظر - مثلا - للإمام الشافعى : الأم ، طبعة الشعب ٢٧٤/٧ .

الملاحظة الرابعة : أن الاختلاف فى فهم هذه الأصول ومسائلها وأدلتها من الأمور المتوقعة ، بل هو من الأمور الواقعة . ويكفى الإشارة إلى ما وقع بين علماء الكلام من خلافات كثيرة فى دراستهم لمسائل العقيدة فى الإلهيات والسمعيات والقضاء والقدر وغيرها . ولا يقتصر الخلاف على خلاف الفرق الكلامية بعضها مع بعض ، بل إنه ليمتد إلى الخلاف بين المنتسبين إلى الفرقة ذاتها . فالمعتزلة والخوارج والشيعة وغيرهم ينقسمون إلى فرق كثيرة ، يقع الخلاف بينها ، على الرغم من اتفاقهم على بعض الأصول التى يتميزون بها عن غيرهم .

ويمكن القول بأن مساحة الاختلاف تضيق وتقل ، أو تتسع وتكثر ، على حسب القرب أو البعد من النصوص الشرعية الصحيحة(١) . ولذلك كان الخلاف بين الفلاسفة أكثر منه عند الخوارج والمعتزلة ، مثلا . وكان الخلاف بين المعتزلة أكثر منه عند الأشاعرة والماتريدية . وكان الخلاف بين هؤلاء أكثر - نسبيا - منه عند من هم أكثر منهم قربا من الكتاب والسنة ؛ لأن المنتسبين للسنة كانوا أكثر اعتصاما بالنصوص المحفوظة ، وهى نصوص معصومة ، يهتدى من يعتصم بها إلى الرشد ، ويستزيد بها من الخير الذي جاء به النبى صلى الله عليه وسلم مما لا تدركه العقول . ويجمع بها هؤلاء بين نور الشرع ونور العقل ، يتحقق لهم بذلك من اليقين - المطلوب فى العقائد - مالا يتحقق لغيرهم . ولذلك كان هؤلاء يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة . ويقولون : السنة سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق(٢) .

الملاحظة الخامسة : أنه لا ينبغى أن يكون الخلاف فى الفهم سبيلا ولا سببا للتساهل فى إطلاق الأحكام بالتكفير من كل ذى رأى على من يخالفه ؛ لأن التكفير من الأمور الخطيرة التى لا يصح التهاون إزاءها . وقد نهت النصوص الشرعية عن وصف الناس به ، إلا إذا قامت على ذلك أدلة صريحة بينة لا تحتمل تأويلا ، ووضعت

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٥٠ - ٥٢ .

(٢) السابق ٤/٥٦ ، ٥٧ ، وصاحب القول الأول هو الزهري وقائل الثانى هو الإمام مالك بن أنس .

لذلك شروطا وضوابط لابد من تحققها قبل إطلاق هذا الوصف على من عُرِف بالإسلام ، لا سيما إذا كان مُعَيَّنا . وكان الخوارج هم أول من فتح باب التكفير بين المسلمين . وقد توغلوا فيه حتي كفروا عددا من كبار الصحابة رضوان الله عليهم . وأصبح التكفير - بهذا - بابا عظمت فيه المحنة على الناس ، وانفتح به عليهم كثير من المفاسد والشرور . ولذلك نهض الكثيرون من المسلمين - منذ عصر الصحابة ومن سار على نهجهم - لبيان بطلان رأى الخوارج ، وإظهار مفاسده . وهذه مسألة شديدة الأهمية . وهى من أهم المسائل المرتبطة بالعقيدة ، وإن كانت تحتاج إلى تفصيلات كثيرة لا يتسع لها المقام[1] .

ثالثا : من أسباب ظهور مصطلح : العقيدة :

لم ترد كلمة العقيدة - بلفظها ، ولا بمعناها الاصطلاحى ، الذى يقصد به الدلالة على أصول الدين - فى القرآن الكريم ، ولا فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد كانت دلالتها علي هذا المعنى نوعا من التطور اللغوى والفكرى ، الذى أتاح لها أن توجد ، وأن تكون شائعة ضمن ما شاع من المصطلحات والعلوم ، التى وجدت طريقها إلى ساحة الفكر الإسلامى .

وربما كان ظهور مصطلح العقيدة واستعمال المفكرين والعلماء الإسلاميين له راجعا إلى ما يأتى :

١ - ما وقع بين المسلمين من خلاف حول الخلافة أو الإمامة العظمى فى العهود الأولى من تاريخ الدولة الإسلامية ، وهو خلاف بدأ سياسيا ، ثم انتقل على أيدى

---

(١) انظر مثلا : لأبى عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى طبع دار الأرقم بالكويت ١٩٨١ ، مع كتاب الإيمان لابن أبى شيبة ٨٤ - ٩٨ والاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى ١٢٤ - ١٢٩ ومجموع فتاوي ابن تيمية ٥٨/٦ - ٦١ وشرح العقيدة الطحاوية لعلي بن على بن محمد بن أبى العز الحنفى ، طبع المكتب الإسلامى بيروت ط ٦/ ١٤٠٠ هـ ص٣٥٥ - ٣٦٧ . إلى مصادر أخرى كثيرة .

الخوارج إلى أن يكون قضية أصولية دينية(١) ووقع ذلك عندما أصدروا أحكاما قاسية تتعلق بتكفير مرتكب الكبيرة إذا مات من غير توبة عنها . وقد دفعهم إلى إصدار هذه الأحكام تصور معين للإيمان وطبيعته وأركانه ، وكان مما ذهبوا إليه فى هذه المسألة أنهم عاملوا أعمال الجوارح معاملة الاعتقاد القلبى ، فجعلوا التقصير فى الأعمال كالجحود والإنكار .

وجاءت الفرق الأخرى لتناقش هذا التصور للإيمان ، وتبدى رأيها فيه . وكانت آراؤهم مخالفة للرأى الذى سبق الخوارج إليه ، كما كانت مختلفة بعضها مع بعض . وشارك المرجئة والمعتزلة والكرامية والشيعة وغيرهم فى الجدال حول هذه القضية ؛ لأهميتها البالغة ، وبسبب الآثار الدينية والعملية التى تترتب عليها . وأسهم الخلاف والجدال حولها إلى ملاحظة عنصر **الاعتقاد** من بين عناصر الإيمان ، وقد نال أقصى قدر من الاهتمام ، وأدى ذلك إلى تقديمه - فى الدرجة - على ما سواه من عناصر الإيمان وأركانه الأخرى ، كالنطق باللسان أو العمل بالأركان . وبلغ التقدير والتقديم لهذا العنصر أقصاه عند المرجئة الذين قالوا : إن الإيمان هو مجرد اعتقاد القلب وتصديقه ، وأن الأعمال لا دخل لها فيه ، وأنه « لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة »(٢) . وانتقل هذا المعنى - على نحو ما - إلى بعض الفرق الأخرى . وحاولت كل فرقة أن تنتصر لرأيها بما تقدمه من أدلة . وأثمر هذا كله شهرة ركن " **الاعتقاد** " وما يرتبط به من " عقيدة " ، خاصة وأنهما يشتركان فى أصل الاشتقاق اللغوى . ولم

---

(١) وكان للشيعة - كذلك - دور فى هذا التحول كما سبق القول ، وإن كان لكل منهما طريقته فى إحداث هذا التحول .

(٢) انظر هذا القول بصيغ متقاربة لدى الشهرستانى فى نهاية الأقدام ٤٧١ والاسفراينى فى التبصير فى الدين ٦٠ ، والقاضى عبد الجبار فى فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة تحقيق فؤاد سيد ، الدار التونسية للنشر ط٢/١٩٨٦ ص١٥٦ وأبى الحسين الملطى فى التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع تقديم الشيخ محمد زاهد الكوثرى ١٩٩١ ص١٤٦ .

يعد غريبا - فى ظل هـذا الارتباط بينهما أن يقال عن العقائد التى هى جمع عقيدة إنها « ما يقصد فيه نفس الاعتقاد ، دون العمل »(١) وذلك كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل(٢) وإن كان من الضرورى الانتباه إلى أن الاعتقاد الصحيح لا ينفصل عن العمل الصالح الذى يأتى استجابة للاعتقاد ، وبرهانا عليه . فالاعتقاد كالمقدمة ، والعمل كالنتيجة . وبهما - معا - يكتمل بناء الإيمان ومعناه(٣) .

٢ - إذا كان هناك ارتباط وثيق فى اللفظ والمعنى بين العقيدة والاعتقاد فإنه يوجد مثل هذا الارتباط بين العقيدة والعقد ، فالكلمتان مشتركتان فى أصل المادة اللغوية ، ثم هما متقاربتان فى المعنى ؛ لأن فيهما - معًا - معنى الالتزام القائم على استحضار النية والعزم والإرادة(٤) وتشبه العقيدة العقد فى أنها تمثل نوعا من التعاقد بين المؤمن وبين الله تعالى . وهو تعاقد فيه ما فى العقود من أركان وشروط ، وله - مثلها - نتائج مرتبطة بتحقق هذه الشروط والأركان أو تخلفها .

وتدلنا آيات القرآن الكريم على أن الله - تعالى - قد أخذ هذا العقد على البشرية كلها فى مناسبات عديدة ، كان بعضها فى وجود سابق على هذا الوجود الدنيوى المحسوس(٥) ثم كان منها ما أخذه على أبى البشرية : آدم عليه السلام ، ثم تكرر التذكير به على لسان الأنبياء من بعده . ومما ورد فى ذلك قوله تعالى بعد أن

---

(١) التعريفات للجرجانى ١٣٣ ، ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ، دار المعرفة لبنان ، مادة عقد ٥١٨/٦ .

(٢) المعجم الوسيط ، مادة عقد .

(٣) انظر كلاما جيدا لابن خلدون فى هذا المعنى فى المقدمة ٤٢٦ .

(٤) انظر : الكليات لأبى البقاء الكفوى ، ص ٦٤١ .

(٥) الإشارة هنا إلى ما تضمنته الآية المعروفة فى سورة الأعراف بآية الميثاق ، وهى قوله تعالى : وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم . ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ... » الآية ١٧٢ من سورة الأعراف ، وانظر الآية التى بعدها ، وارجع إلى تفسير الآيتين فى كتب التفسير .

تاب على آدم وحواء من المعصية التى وقعا فيها « قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ... » (طه : ١٢٣ ، ١٢٤) ثم قال الله تعالى لبنى آدم عامة « يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى : فمن اتقى وأصلح . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (الأعراف : ٣٥ ، ٣٦) إلى آيات كثيرة أخرى .

وربما جاء التعبير عن هذا العقد فى القرآن الكريم بلفظ الميثاق . وفى هذا ما يشير إلى قوته وتأكده ، وهيمنته على الإنسان ، مثلما يحيط الوثاق به . ومن الآيات التى تضمنت ذلك قول الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ... » (المائدة : ٧)(١) .

وربما جاء الحديث عنه بلفظ العهد ، وهو عقد لازم ، وميثاق مؤكد . ومن ذلك قوله تعالى : ... وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » (البقرة - ٤٠) وقوله : « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ... » (يس : ٦٠)(٢) .

وإذا كانت العقيدة ميثاقا وعهدا وعقدا فإن هذا العقد يتميز على غيره من العقود بأنه ليس عقدا عابرا ولا مؤقتا ، بل إنه يمثل عقدا دائما ، ورباطا شاملا ، يتعلق بالوجود كله : حاضرا ومستقبلا ، وحلا ومآلا ومصيرا ، وهو عقد له الهيمنة على وجود الإنسان كله ؛ لأن طرفه الأعلى هو الله تعالى . ثم إنه عقد لا يصح العدول عنه أو الرجوع فيه ، مثلما يحدث فى عقود أخرى كالبيع أو الشركة أو غيرهما ، بل إنه عقد يلتزم به صاحبه ، منذ قيامه به ، وإبرامه له ، ولذا كان العدول عنه ردة ،

---

(١) وارجع كذلك إلى الآيات ٨٣ ، ٨٤ من سورة البقرة ، ١٢ ، ١٣ من سورة المائدة ، ٢٠ من سورة الرعد ، ٨ من سورة الحديد وآيات أخرى .

(٢) ارجع كذلك إلى الآيات ١٥٢ من الأنعام ، ٢٠ من الرعد ، ٩١ من النحل ، ٣٤ من الإسراء ، ٨ من سورة : المؤمنون إلخ .

جعل الشرع العقوبة عليها مغلظة . وبذلك يكتسب عقد الإيمان قدسيته ، ويصان من التقلبات والأهواء .

وقد سبق الراغب الأصفهانى إلى إيضاح هذه العلاقة بين العقد والعقيدة كما أسلفنا (١) .

- علم العقيدة :

وكان لهذين العاملين - وما يمكن أن يضاف إليهما - أثر فى شهرة مصطلح العقيدة وذيوعه على الألسنة . وكان من نتائج ذلك أن وجدنا هذا المصطلح يتخذ له مكانًا ضمن التسميات التى ظهرت - فى نطاق الفكر الإسلامى - لعلم أصول الدين . ومن بينها علم الكلام وعلم التوحيد ، وعلم الأسماء والصفات ، وعلم الفقه الأكبر وغيرها .

وربما كان من العسير أن نحدد - على وجه الدقة - التاريخ الذي بدأ فيه استعمال هذه التسمية ، أو أن نحدد الشخص أو الفرقة التى بدأت باستخدامها ؛ لأن مثل هذا التحديد يحتاج إلى إحصاء دقيق ، ومراجعة شاملة لكل ما ظهر من كتب ورسائل فى عصور التأليف المبكرة فى عهد الدولة الإسلامية . وهو أمر ليس باليسير ، بسبب ضياع الكثير منها ، أو بقائه مخطوطا ، حتي الآن فى مكتبات العالم الإسلامى ، وفى بعض بلاد العالم الأخرى التى تمتلك - لأسباب كثيرة - ثروة ضخمة من المخطوطات الخاصة بالإسلام وثقافته وعلومه .

ويمكن القول - مع التسامح - بأن أقدم ما نعرفه من الكتب والرسائل التى جاءت تحت هذه التسمية يرجع إلى القرن الثالث الهجرى . ومن بينها ما ينسب إلى الإمام البخارى (٢٥٦ هـ) وابن أبى حاتم الرازى (٢٧٧ هـ)(٢) .

---

(١) انظر : المفردات ... ص ٣٤١ .

(٢) انظر : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ، ترجمة د / محمود فهمي حجازى طبع الرياض ط١/١٤٠٣هـ ١٩٨٣م . مجلد ١ جـ١/٢٥٩ ، ٢٩٨ ، مجلد ١جـ٤/٤٩٨ ، ٤٩٩ . وليس هناك ما يؤكد أن البخارى والرازى هما اللذان أطلقا هذه التسمية على رسائلهما . ولعل المتأخرين هم الذين قاموا بالتسمية . وتشير بعض المصادر الأخرى إلي وجود رسائل أسبق من عصر البخارى ومنها ما ينسب إلى عبد الله بن إباض (ت ٨٦ هـ) انظر : الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية المقيمين فى إفريقيا الشمالية لنلينو ، ضمن كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ، ترجمة =

ثم زاد استعمالها لدى بعض أعلام القرن الرابع الهجرى ، من أمثال محمد بن جرير الطبرى (٣١١ هـ) وأبى جعفر الطحاوى (٣٢١ هـ) صاحب العقيدة الطحاوية ، ذات الشهرة الواسعة ، وأبى منصور الماتريدى[١] (٣٣٣) وأبى أحمد الكرخى[٢] .

وتوالى ظهور الكلمة - باشتقاقاتها المتعددة - لدى بعض أعلام القرن الخامس ، وما تلاه . ومن هؤلاء : أبو بكر الباقلانى : (٤٠٣هـ) الذى كان من بين كتبه : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، وأبو نعيم الأصبهانى (٤٣٠هـ) ، وأبو محمد الجوينى (٤٣٨هـ) الذى ينسب إليه كتاب عقيدة أصحاب الإمام الشافعى[٣] . . وأبو بكر البيهقى (٤٥٨ هـ) الذى كتب كتاب : الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة . وقد أراد أن يجعله كتابا « يشتمل على بيان ما يجب على المكلف اعتقاده والاعتراف به ، مع الإشارة إلى أطراف أدلته على طريق الاختصار »[٤] . وإمام الحرمين أبو المعالى الجوينى (٤٨٧هـ) الذى كتب العقيدة النظامية فى الأركان الإسلامية ، والإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد ، ولمع الأدلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة . وسار أبو حامد الغزالى (٥٠٥) على هذه السنة نفسها فكتب الاقتصاد فى الاعتقاد ، وقواعد العقائد ضمن كتابه الكبير : إحياء علوم الدين وكتب أبو حفص عمر النسفى (٥٣٧) العقائد النسفية .

== د/ عبد الرحمن بدوى ، دار النهضة العربية ط/٣/١٩٦٥ ص٢٠٦ ويقول نلينو : إنها كتبت فى عهد عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) ولعلها أقدم ما يحمل اسم العقيدة من الكتب والرسائل ، إن صحت النسبة . وربما كان المتأخرون هم الذين أطلقوا التسمية ، كما سبق القول .

(١) انظر : سزكين ، المرجع السابق مجلد ١ جزء ١٦٨/٢ ، ٩٦/٣ ، ٤٢/٤ .

(٢) انظر : ابن تيمية درء تعارض العقل والنقل - الرياض ١٩٨١ جـ٦/٢٥٢

(٣) انظر : السابق ٢٥٢/٦ ، ٣٥٦/٣ ، ٣٨١ .

(٤) البيهقى : الاعتقاد ... ، مطبعة السلام العالمية - مصر - ١٩٨٤ ص ٤ .

ولم يقتصر استخدام المصطلح على علماء الكلام من الأشاعرة والماتريدية وبعض علماء السنة ، بل إن بعض الفلاسفة قد اتخذوه عنوانا لبعض كتبهم . ومن ذلك ما كتبه أبو الحسن العامرى (٣٨١هـ) - أحد رجال مدرسة الكندى الفلسفية - كتاب « الإرشاد لتصحيح الاعتقاد(١) وكتب أبو الوليد ابن رشد (٥٩٥) الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة . وقد أسهم ابن تيمية (٧٢٨ هـ) فى هذا المجال بما كتبه من كتب ورسائل كالعقيدة الواسطية ، والأصفهانية والتدمرية وغيرها(٢) .

وقد كان من مظاهر انتشار هذا المصطلح أن بعض المؤلفين المتأخرين قد استخدموه للتعبير به عن آراء بعض المتقدمين الذين لم يستخدموا هذه الكلمة . ومن ذلك ما نجده لدى أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (٥٩٧هـ) فى كتابه : مناقب الإمام أحمد (بن حنبل) ، حيث تحدث فى بعض فصوله عن « اعتقاده فى الأصول » كما تحدث عن « جُمَل من اعتقاده »(٣) .

بل حدث ما هو أكثر من ذلك ، حيث أضيفت الكلمة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى كلام ابن تيمية الذى قال : « ما جمعْتُ إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم ، ليس للإمام أحمد بن حنبل اختصاص بهذا ، إنما هو مبلِّغُ العلم الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم . ولو قال أحمد من تلقاء نفسه مالم يجىء به الرسول لم نقبله . وهذه عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم »(٤) .

---

(١) انظر : رسائل أبى الحسن العامرى ، دراسة وتحقيق د / سحبان خليفات عمان ١٩٨٨ ص٤٧١ - ٤٧٣ .

(٢) انظر : نماذج أخرى فى دراسات فى علم الكلام ، لصاحب هذا البحث بالاشتراك ، دار الثقافة العربية ط١/١٩٩٩ ص ٣٦ وقد كان من أسباب شرف علم الكلام وعلو مكانته على غيره من العلوم عند بعض المؤلفين فيه أنه هو العلم الذى يدرس العقائد الإسلامية . انظر : شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازانى ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٨ ص١٢ .

(٣) انظر : ابن الجوزى : مناقب الإمام أحمد ، تحقيق د/ عبد الله التركى ، نشر الخانجى ، مصر ط١ / ١٣٩٩ = ١٩٧٩ ص٢٠١ وما بعدها ، ٢١٤ وما بعدها .

(٤) مجموع الفتاوى ، ٣ / ١٦٩ .

هذا ، وقد لقيت الكلمة قبولا وذيوعا لدى طوائف كثيرة من أهل السنة ، ولعلهم أرادوا أن يبتعدوا - باختيارهم لها - عما وُجِّه من نقد إلى التسميات الأخرى ، ولا سيما علم الكلام الذى نال قسطا وافرا من النقد منذ عهد قديم . وتعددت أسباب هذا النقد ، وامتدت إلى منهجه وأدلته ومستوى اليقين الذى يثمره .

وقد شارك فيه فقهاء ومحدثون وفلاسفة وصوفية ومؤرخون ولغويون وغيرهم . لذلك لم يكن غريبا أن يبحث المهتمون به عن تسميات أخرى يمكن أن تكون مبرأة من الوقوع فى براثن هذا النقد الذى وجه إلى علم الكلام . وكان من هذه التسميات علم العقيدة[1] .

رابعا - العلاقة بين مصطلح العقيدة وبعض المصطلحات الأخرى :

لعل مما يلقى مزيدا من الوضوح على دلالة مصطلح : العقيدة أن نبين العلاقة والصلة بينه وبين بعض المصطلحات الأخرى التى تأتى مقترنة به أحيانا ، أو يمكن إجراء المقارنة والموازنة بينه وبينها فى بعض الأحيان . ومن هذه المصطلحات : الشريعة ، والإيمان ، والإسلام .

- العقيدة والشريعة[2] :

جاء لفظ الشرعة فى القرآن الكريم في قوله تعالى : « ... لكلٍّ جعلنا منكم

---

(١) خصصت له مناهج دراسية باسم العقيدة ؛ بل سميت به بعض الأقسام العلمية فى بعض الكليات التى تعنى بالعلوم الإسلامية . ويلاحظ - كذلك - أن بعض المعاصرين الذين كتبوا فى علم الكلام ، على طريقة علماء الكلام القدامى ، من حيث المنهج والموضوعات والقضايا والأدلة ، قد عنونوا كتبهم باسم العقيدة الإسلامية ؛ استثمارا منهم لما لقيه هذا الاسم من شهرة وقبول . والنماذج كثيرة لا يتسع لها المقام .

(٢) الشريعة فى اللغة : المواضع التى تنحدر الخلائق من البشر والدواب إلى الماء منها . وهى مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون ، ويشترط لهذه التسمية أن يكون الماء غزيرا لا ينقطع ، ظاهرا لا يحتاج إلى آلات للانتفاع به . والشرع : الطريق ، وما شرعه الله تعالى من الدين وأمر به ، كالصوم والصلاة وسائر أعمال البر انظر : لسان العرب ، والمعجم الوسيط ، مادة : شرع .

شرْعة ومنهاجا ....» (المائدة : ٤٨) كما جاء لفظ الشريعة فى قوله تعالى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » (الجاثية : ١٨) .

وقد فُسِّرت الشريعة بمعان ، منها : أن الشريعة هي جملة ما أمر الله تعالى به من العقائد والأحكام والأخلاق ونحوها ، مما نزل به الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم . وهى بهذا المعنى مرادفة لمعنى الدين ، ودالة عليه . وفى ذلك يقول القرطبى : « فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين . والجمع : الشرائع . والشرائع فى الدين : المذاهب التى شرعها الله لخلقه . فمعنى جعلناك على شريعة من الأمر ، أى على منهاج واضح من أمر الدين ، يشرع بك إلى الحق ... » « والتقدير : ثم جعلناك على طريقة من الدين ، وهى ملة الإسلام »[1] .

وإذا كانت الشريعة بهذا المعنى العام الجامع الشامل فإن العقيدة تعد جزءاً منها[2] ، وقسما من أقسامها ، وركنا من أركانها ، ولكنها - فى الوقت نفسه - أهم أجزائها ، وأعظم أركانها وأقسامها ؛ لأن العقيدة هى الأساس الذى تقوم الشريعة عليه ، والأصل الذى لا تقبل ولا تصح إلا بوجوده [3] .

ومن المعانى التى فُسرت الشريعة بها ، أن المقصود بها : الأمر والنهى والحدود والفرائض[4] أو بعبارة أخرى هى : « اسم للأحكام الجزئية التى يتهذب بها المكلف :

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، طبعة الشعب ٥٩٨٣ ، ٥٩٨٤ ، وانظر : لسان العرب ، مادة :شرع .

(٢) قد تأتى كلمة الشريعة لدى بعض العلماء والمؤلفين بمعنى العقيدة . وممن استخدم لفظ الشريعة بهذا المعنى : أبو بكر الآجُرّى (٣٦٠هـ) صاحب كتاب الشريعة ، وعبيد الله بن محمد بن بطة (٣٨٧هـ) صاحب كتاب الإبانة . وانظر مجموع الفتاوى بابن تيمية ٣٠٦/١٩ .

(٣) سيتضح هذا - فيما بعد - إن شاء الله تعالى .

(٤) انظر : القرطبى ، المرجع السابق ، الموضع نفسه .

معاشا ومعادا ، سواء كانت منصوصة من الشارع أو راجعة إليه »[1] . وهذه الأحكام الجزئية هى تلك الأحكام التى تصدر على أفعال المكلفين بالوجوب والاستحباب والكراهة والحرمة والإباحة . كالحكم بوجوب الصلاة ، وتحريم القتل ونحو ذلك من الأحكام التي يهتم بها علم الفقه .

وإذا كانت الشريعة - بهذا المعني - فالعلاقة بينها وبين العقيدة هى علاقة تقابل وتكامل معا .

فمن حيث التقابل تهتم العقيدة بأفعال القلوب الباطنة ، وهى التى ينعقد القلب عليها من أصول الدين ، كالإيمان بالله تعالى وبالأنبياء والبعث ونحو ذلك من العقائد على حين تهتم الشريعة بالأفعال الظاهرة التى تظهر على الجوارح ، وتصدر الأحكام عليها : أمرا ونهيا ، وتحليلا وتحريما بمستوياتهما المتعددة .

ومن الفروق بينهما : أن ما يتعلق بالعقائد يطلب فيه اليقين الذى لا مجال للشك فيه ولا للشبهات ، على حين يكتفى فى الأحكام العملية بالظن الراجح ، كما سبق القول .

وتتميز العقائد - كذلك - بأنها موضع اتفاق الرسالات الإلهية التى أرسل الله بها الأنبياء ، عليهم السلام . فقد جاءوا جميعا بأصول واحدة هى : الإيمان بالله تعالى توحيده والإيمان باليوم الآخر . وهم لا يختلفون في ذلك ، بعضهم عن بعض . وفي ذلك يقول الله تعالى : شرع لكم من الدين ما وَصَّى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... » (الشورى : ١٣) .

وقد تضمنت هذه الآية إشارة « إلى الأصول التى تتساوى فيها الملل . فلا يصح فيها النَّسْخ ، كمعرفة الله - تعالى - ونحو ذلك مما دل عليه قوله تعالى : « ... ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »[2] (النساء : ١٣٦) .

(١) الكليات لأبى البقاء الكفوى ص٥٢٤ .

(٢) المفردات للراغب الأصفهانى ٣٧٩ ، وانظر : الكليات ، فى الموضع السابق .

أما الأحكام الجزئية - بل والتشريعات التكليفية التى يكلف البشر بها - فإنها يمكن أن تكون موضعا للاختلاف ما بين شريعة وأخرى ، فقد يحرم الله تعالى فى شريعة ما يحله فى شريعة أخرى ، طبقا لأحوال المكلفين وأعمالهم . وفى مثل ذلك يقول الله تعالى : « ... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما اتاكم ..» (المائدة : ٤٨) ولذلك كانت هذه الأحكام قابلة للنسخ ، حتي فى داخل الشريعة الواحدة أحيانا ، علي عكس العقائد ، كما سبق القول .

أما التكامل فمن حيث إن الدين لا يقوم إلا بهما ، مع احتفاظ كل منهما بموقعه فى بناء الدين ، فالعقيدة أصل ، والشريعة - بهذا المعنى - أثر أو نتيجة . وإذن « فالإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة ، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى . على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة ، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة ... وعليه فمن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة (؟) أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة (؟) لا يكون مسلما عند الله ، ولا سالكا فى الإسلام سبيل النجاة »(١) .

٢ - العقيدة والإيمان :

جاء لفظ الإيمان فى القرآن والسنة بمعانٍ متعددة ، يهمنا منها - فى هذا المقام - معنيان(٢) :

---

(١) الشيخ محمود شلتوت : الإسلام : عقيدة وشريعة ، دار الشروق ط١١/١٩٨٣ ص١١ وهذا الفرض الذى ذكره هنا هو فرض نظرى لتقريب الفكرة ؛ لأنه ليس هناك إيمان كامل بالعقيدة دون أن تترتب عليه آثاره ، كما أنه ليس هناك التزام كامل ومطلق بالشريعة دون إيمان بالأصول الاعتقادية التى تقوم الشريعة عليها .

(٢) وردت كلمة الإيمان بمعنى الصلاة فى قوله تعالى : « ... وما كان الله ليضيع إيمانكم ..» (البقرة : ١٤٣) أى صلاتكم . راجع كتب التفسير فى تفسير الآية لمعرفة سبب نزولها ومعناها . كذلك جاء فى الأحاديث إضافة الفرائض كالصلاة والزكاة وأداء الخمس من المغنم إلى الإيمان . وكأن الإيمان هنا بمعني الإسلام . ومن ذلك ما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس ، ارجع مثلا إلى الترمذى ، أبواب الإيمان ، باب ما جاء فى إضافة الفرائض إلي الإيمان ١٢١/٣ ، ١٢٢ وجامع الأصول ٢٢٤/١ - ٢٢٦ .

أ - أن يكون الإيمان اسما جامعا لكل ما جاء عن الله تعالى على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - من القول والاعتقاد والعمل جميعا ، ومن الآيات التي تدل على هذا المعني قوله تعالى :

- « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تُليتْ عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ... » (الأنفال ٢ - ٤) .

- « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون ... » (المؤمنون : ١ - ١١)[1] .

ومما يدل على ذلك من حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - قوله :

- « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياءُ شعبة من الإيمان »[2] .

وعلى هذا النحو من الفهم الإيماني كان قول الخليفة العادل : عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) رحمه الله : « إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا ، فمن استكملها استكمل الإيمان . ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ... »[3] .

---

(١) وانظر الآيات : ١٧٧ من سورة البقرة ، ١٣٣ - ١٣٦ من سورة آل عمران ، ٥١ ، ٥٢ من سورة النور ، ١٠ من سورة الحجرات ، إلى آيات كثيرة أخرى .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان . ولفظه : بضع وستون شعبة . ٨/١ . ورواه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها ، وفضيلة الحياء ... صحيح مسلم بشرح النووى ٢٠٨/١ . ووردت فيه رواية بلفظ : بضع وسبعون أو بضع وستون ٢٠٩/١ ، ٢١٠ وقد ورد فى غيرهما من كتب الصحاح . وانظر مسند أحمد ٤٤٥/٢ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان ٨/١ .

وقد جرى الإمام البخارى - رحمه الله - فى صحيحه على هذا فى كتاب الإيمان ، حين أورد الأحاديث التي تتحدث عن علامات الإيمان وأموره ، ومنها ما ورد في آية البر[1] ومنها ما يتعلق بحب المؤمن لأخيه المؤمن ، وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم ، وحبه للأنصار . ومنها - كذلك - ما يتعلق بخلق الحياء ، والجهاد فى سبيل الله ، والحج ، والإنصاف ، وبذل السلام ، والإنفاق ، إلى غير ذلك من شعب الإيمان وعلاماته [2] .

أما المعنى الثانى - من المعنيين اللذين أردنا الحديث عنهما - فهو أن يكون الإيمان بمعنى خاص ، يقصد به : اعتقاد القلب ، دون غيره من العناصر الأخرى ، التى تضمنها الإيمان بالمعنى الأول .

ومما يدل على الإيمان بهذا المعني الخاص قوله تعالى :

- « يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزّل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء : ١٣٦) .

- « قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم .. » (الحجرات : ١٤) .

- « ... أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ...» (المجادلة : ٢٢) إلى آيات أخرى .

ومما يدل على ذلك من الحديث : قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل عندما سأله عن الإيمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »[3] وقوله :

---

(١) هى الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الإيمان ٧/١ وما بعدها .

(٣) سبق تخريجه ص ١٣ .

- « أربع لن يجدَ طعْم الإيمان حتى يؤمن بهن : لا إله إلا الله وحده ، وأنى رسول الله ، بعثنى بالحق ، وبأنه ميت ، ثم مبعوث من بعد الموت . ويؤمن بالقدر كله »(١) .

ومن هـذا الباب جـاءت تلك المقـالة المشهورة التى تنسب إلى الحسن البصرى (١١٠هـ) « إن الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمني ، إنما الإيمان مـا وقر فى القلب وصدقه العمل »(٢) .

ويتضح من النظر فى هـذه النصوص وأمثالها أن المراد من الإيمان هو اعتقاد القلب ، وما رسخ فيه من أصول الدين ، وأعمال القلوب .

وبناء على المقصود بالإيمان تتحدد العلاقة بينه وبين مصطلح العقيدة . فإذا كان الإيمان بالمعني العام ، وهو المعنى الأول - هنا - فالعقيدة جزء من الإيمان . وإذا كان الإيمان بالمعنى الخاص - وهو المعنى الثانى هنا - فالعقيدة تكون مرادفة له فى المعنى .

٣ - العقيـدة والإسـلام:

جاءت كلمة الإسلام بمعان كثيرة من بينها ما كان بمعنى عام يقصد به جملة الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم(٣) من العقائد والشرائع والأخلاق

---

(١) أخرجه الحافظ أبو بكر بن أبى شيبة فى كتابه الإيمان ، بتحقيق الألبانى . دار الأرقم الكويت ١٩٨١ ص٣ وهامش ١ بها وأخرجه الترمذى بنحوه فى كتاب أبواب القدر ، باب ما جاء أن الإيمان بالقدر خيره وشره ٣٠٦/٣ ، ٣٠٧ وجامع الأصول ٢٢٨/١ .

(٢) رواه الديلمى فى مسند الفردوس مرفوعا بإسناد ضعيف . انظر الجامع الصغير للسيوطى طبعة عبد الحميد د.ت ١٣٤/٢ ورواه ابن أبى شيبة موقوفا على الحسن . انظر : الإيمان ٣١ ، ٣٢ وقال الألبانى : إنه لا يصح عن الحسن ؛ لوجود أحد الرواة الكذابين فى إسناده . انظر تعليقه على كتاب الإيمان ص٣٢ هامش ٨٨ وتعليقه عليه فى سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة برقم ١٠٩٨ وانظر : الإيمان لابن تيمية ٩ - ١١ .

(٣) وهو - كذلك - الدين الذى جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام . وقد جاء وصف الإسلام ومشتقاته فى الحديث عن كثيرمن الأنبياء والرسل فى القرآن الكريم . انظر مثلا : ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة ، ٥٢ ، ٦٧ من سورة آل عمران ، ١١١ من سورة المائدة ، ٧٢ ، ٨٤ من سـورة يونس ، ١٠١ من سـورة يوسف ، ٣١ ، ٤٢ ، ٤٤ من سـورة النمل ، ٣٦ من الذاريات . ولذلك قال الله تعالى : إن الدين عند الله الإسلام . (١٩ من سورة آل عمران) .

ونحوها - وهو يقتضى - بحسب مدلول اللفظ - أن يكون الدخول فيه - بنطق اللسان - مقرونا بالتسليم والإذعان لله تعالى وشرعه . وفى ذلك يقول الراغب الأصفهانى :

إن الإسلام فى الشرع على ضربين :

أحدهما : دون الإيمان ، وهو الاعتراف باللسان . وبه يحقن الدم ... والثانى : فوق الإيمان ، وهو أن يكون - مع الاعتراف - اعتقاد بالقلب ، ووفاء بالفعل ، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر ، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله : « إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين » (البقرة : ١٣١)(١) وكما جاء في قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتي يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا سليما » (النساء : ٦٥) .

وقد ظل هذا الإسلام يتنزل على رسول الله صلي الله عليه وسلم منذ مبعثه إلى قرب انتهاء أجله ، فلما اكتمل نزوله عليه قال تعالى له : « ... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ... » (المائدة : ٣) وقال تعالى : ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (آل عمران : ٨٥) .

وقد يرد الإسلام بمعنى خاص ، يراد به الأعمال الظاهرة التى يتطلبها الدين ممن أسلم له ، ودخل فيه .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى :

- « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم .. » (الحجرات : ١٤) .

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام ، عندما سأله عن الإسلام : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. . »(٢)

---

(١) المفردات ، ٣٥١ .

(٢) سبق تخريجه . ويتفق معه الحديث المشهور بنى الإسلام علي خمس انظر له : جامع الأصول ٢٠٧/١ ، ٢٠٨ .

وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب . ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ... ثم يقول : التقوى ههنا التقوى ههنا »(١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى تجرى هذا المجرى .

ويتفق معها - كذلك - تلك الآيات والأحاديث التى تجمع - فى سياق واحد - بين الإسلام والإيمان ، أو تتحدث عن الإيمان وما يترتب عليه من أعمال الإسلام . ويقصد بالإسلام - عندئذ - تلك الأعمال الظاهرة كالصلاة والصيام والصدقة ، ونحوذلك من الأعمال . أما الإيمان فيقصد به اعتقاد القلب وعباداته المختصة به كالخوف من الله ، والرجاء له ، والتوكل عليه ، والثقة فيه ، والرضا بأمره ، والتسليم لحكمه ، والمحبة له ، ونحو ذلك من العبادات .

وبناء على ما سبق تتحدد العلاقة بين العقيدة والإسلام . فإذا كان الإسلام بالمعنى العام فإن العقيدة تكون جزءاً منه . وإذا كان بالمعنى الخاص فإن العلاقة بينهما تكون علاقة تقابل وتكامل ، كما سبق القول فى علاقتها بالشريعة .

خامسا : مكانة العقيدة فى الإسلام :

تمهيد : قبل أن نتحدث عن مكانة العقيدة ، وأهميتها في بناء الإسلام ينبغي الإشارة - ولو فى إيجاز - إلى أن من بين خصائص الإسلام أنه دين يتصف بالعموم والشمول . ومن مظاهر هذا العموم والشمول أنه يتضمن العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات ، ويحيط بأصول النظم التى تحتاج المجتمعات الإنسانية إليها . وقد جاء الإسلام - فى بعض هذه الأمور - بأحكام مفصّلة أحيانا ، كما هو الشأن فى أصول العقيدة ، وكثير من أحكام الشريعة . وجاء في بعضها الآخر بأصول وقواعد كلية ، يمكن الاجتهاد - على ضوئها - فيما لم يذكر الشرع حكمه تفصيلا . ومعنى ذلك أن الشريعة قد تضمنت كل شيء - كما يقول بعض العلماء : تفصيلا أو تأصيلا ، أو

(١) مسند أحمد ٣/١٣٤ ، ١٣٥ والإيمان لابن أبى شيبة ص ٥ .

بحسب تعبير بعضهم : نصا أو فحوى(١) ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى عن القرآن الكريم : « ... ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١) ويقول : « ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء هدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (النحل : ٨٩) .

ومعني ذلك أن العلم بالإسلام ، والالتزام بقواعده وأصوله الكلية ، والرجوع إلى ما جاء فيه من تفصيلات الأحكام يضع أمام المسلمين ثروة كبرى من التشريعات التى تنظم أمور الحياة والمجتمع . وإذا بدا لبعض الناس أن هناك نقصا أو قصورا فى التشريع فإن ذلك يرجع إلى قصور علم هؤلاء بالإسلام ، أو نقص فهمهم له ، أو عجزهم عن الاسترشاد بما فيه من الأصول الكلية ، وتقصيرهم عما يدعوهم إليه الإسلام من استنباط واجتهاد .

والأدلة - علي شمول الإسلام وعموم شريعته ورسالته - كثيرة . وسنكتفى منها - هنا - بإيراد آية واحدة ، هى آية « البرّ » التى يقول الله فيها :

- « ليس البرَّ أن تُولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال - على حبه - ذوى القربى واليتامي والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس . أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (البقرة : ١٧٧) (٢) .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٢٤١٧ ، وتفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ مجلد ٧/ ٣٣٠ .

(٢) وانظر - كذلك - : حديث شعب الإيمان الذى سبقت الإشارة إليه . وارجع إلى الكتب والمصنفات التى خصصها بعض العلماء لشرحه ، ومنها : المنهاج فى شعب الإيمان لأبى عبد الله الحسين بن الحسن الحليمى (٤٠٣ هـ) وشعب الإيمان لأبى بكر البيهقى (٤٥٨ هـ) .

ويتضح - بأدنى تأمل - أن البر يتضمن جوانب كثيرة ، يتصل بعضها بالعقيدة وأصولها ، ويتصل بعضها بفرائض الإسلام وأركانه كالصلاة والزكاة . ثم يقترن ذلك بما يقتضيه الإيمان من الأخلاق وما تؤدى إليه من تقوية الروابط الاجتماعية ، والإعلاء من قيم الرحمة والإيثار والإخوة الإنسانية . ومن هذه الأخلاق : إيتاء المال لذوى القربى ، وأصحاب الحاجات من اليتامى والمساكين وأمثالهم ، والتصدق به لتحرير الرقيق من العبودية . ومنها الوفاء بالعهد ، والصبر في البأساء والضراء ومواطن الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وإبلاغ دعوته ، ثم التحقق بالتقوى ، التي هى قمة الأخلاق الإسلامية وذروتها وتاجها . ومعنى ذلك أن آية واحدة من آيات القرآن الكريم قد تضمنت من أصول العقيدة ، وأركان الشريعة وخصال الأخلاق ، وسنن الاجتماع ما يدل - أبلغ دلالة - على صفة العموم والشمول . ويزداد الأمر وضوحا وظهورا بالنظر في عموم ما جاء فى القرآن والسنة ، وما جاء فى كتب الفقه من أحكام شرعية - مستنبطة منهما ومستندة إليهما - فى العبادات والمعاملات والعقوبات وأحكام الأسرة ، ومايندرج تحتها من خطبة وزواج ، وما يحتاج إليه الزواج - عند استمراره - من حقوق وواجبات . ثم ما يمكن أن يطرأ عليه من فرقة ، وما يرتبط به من نفقة وحضانة ووصية وميراث ، إلى غير ذلك من الأحكام الموجودة فى كتب الفقه .

ويكتمل هذا بما تضمنته الشريعة من نظم ، تؤدى - إذا أحسن الناس القيام بها - إلى تحقيق المصالح ، وحفظ الحقوق كنظام الولاية والقضاء والحسبة ، وما وضعته من قواعد وأحكام ووصايا تتعلق بالجهاد والحروب والمعاهدات والصلح ونحوها من مسائل العلاقات الدولية ، وهكذا [1] .

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - هم أول الناس إدراكا لهذا العموم والشمول . وكان ذلك موضع اعتزازهم وفخرهم . وها هو عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يقول للناس بالمدينة بعد عودته من أداء الحج : « أيها الناس ، قد سُنَّتْ لكم

(١) للشمول والعموم وجوه أخرى ، سنشير إلى بعضها ، فيما بعد ، إن شاء الله .

السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة »[1] وقال أبو ذر الغفارى : « ... ولقد تَركَنَا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما يقلّب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكّرنا منه علما » وقال سلمان الفارسى مثل ذلك[2] .

وإذا كان الإسلام وشريعته على هذا النحو من الشمول والعموم والكمال فإن العقيدة لها - بين العناصر التى يقوم عليها بناء الإسلام - المكانة الكبرى ، والأهمية العظمى التى لا يبلغها شيء سواها . ذلك أن العقيدة تشبه الأساس لهذا البناء[3] ، أو تشبه جذر الشجرة . ومعنى ذلك أنها تمثل الركن الأعظم والجوهرى فى بناء الإسلام كله[4] وأن تحقيق هذا الركن وبناءه على أسس سليمة متينة يعد شرطا أوليا ، وبداية ضرورية تسبق كل العناصر الأخرى من عبادة وأخلاق ومعاملات ونظم ونحوها .

---

(١) موطأ الإمام مالك ، تصحيح وتخريج الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة الشعب . كتاب الحدود ، باب ما جاء فى الرجم ص ٥١٥ .

(٢) سنن الترمذى ، أبواب الطهارة ، باب الاستنجاء بالحجارة ١٣/١ ومسند أحمد ١٢٦/٤ ، ١٥٣/٥- ، ١٦٢ وتفسير ابن كثير طبعة الشعب ٢٤٩/٣ وانظر : حديث العرباض بن سارية فى سنن ابن ماجة . المقدمة ١٦/١ .

(٣) انظر : د / محمد رشاد سالم . المدخل إلى الثقافة الإسلامية ، دار العلم الكويت ط١٩٧٧/٣ ص١٦٧ ، ١٨٤ .

(٤) وليس معنى ذلك أن ما سواها ليس مهما أو لا ضرورة له . وإنما المعني أن العقيدة أكثر أهمية ، وأن ما سواها يأتى بعدها فى الاعتبار والأهمية مع ضرورته . ويمكن تشبيه ذلك بالجسد وأعضائه ، فكل عضو له وظيفة وفائدة للإنسان ، بحيث يؤدى نقص شيء منها إلى تعطل المنافع المرتبطة به ، وإحساس الإنسان بالضرر والكدر والأذى . ولكن هذه الأعضاء - مع أهمية كل منها - ليست على درجة واحدة من الأهمية . فليست قيمة الأصبع كقيمة الرأس ، ولا قيمة القدم كقيمة المخ أو القلب . وهكذا الشأن فيما يتضمنه الإسلام . فكلها مهم . ولكن بعضها أكثر أهمية من بعض . والعقيدة أهمها جميعا .

وسبب ذلك أن العقيدة « معدودة من حيِّز العلم . والأصناف الأخَر هي معدودة من حيز العمل . وليس يُشكُّ أن نسبة العلم إلى العمل مضاهية لنسبة العلة إلى المعلول ، أو لنسبة البدء إلى التمام . والشيء متى فسدت علته ، واختل بدؤه لم يلحقه الصلاح أبداً »(١) والعلم السابق على العمل ، والبدء مقدم على التمام .

ويقول أحد المفكرين الإسلاميين المعاصرين : « إن العقيدة في نظام الإسلام – كما يتجلى ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية – تتصل بجميع أجزاء هذا النظام . فهي الأساس الذى تبنى عليه نظرته أو نظامه الأخلاقى . وهى التى تكوّن الأساس الفكرى لعقلية المسلم ، والأساس النفسى لسلوكه . ومنها – كذلك – تنبثق نظرته إلى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية . وعلى أساس فلسفته يُبْنَى نظامها . وخلاصة الأمر أن مضمون العقيدة الإسلامية له تأثير كبير فى الحياة الإسلامية ، سواء الفردية أم الاجتماعية »(٢) .

والعقيدة – إذن – هى نقطة البداية فى كل حديث عن الإسلام وشريعته ، والأخذ بأحكامه ونظمه فى مجالات الحياة المختلفة : سياسية أو اقتصادية ، أو إدارية ، أو تشريعية ، أو تربوية أو أخلاقية أو جمالية أو نحوها ؛ سواء فى ذلك ما يتعلق بالفرد أو المجتمع أو الأمة أو الدول ، لأن هذه الجوانب – جميعا – هي بمثابة فروع منبثقة أو ينبغى أن تنبثق عن أصل ، هو الذى يمدها بالأساس الفلسفى أو الايديولوجى ، إذا صح التعبير . وهو الذى يحدد لها زاوية الرؤية ونطاقها واتجاهها وحركتها . ومن ثم يكون ارتباطها بهذا الأصل ارتباطا وثيقا ، من حيث تحديد الغايات والمقاصد ، واختيار الوسائل الملائمة لتحقيقها ، ووضع الضوابط لها ، ثم من حيث تقويم مستوى الأداء ، وتحقيق النتائج والأهداف(٣) . ولذلك كان من الطبيعى أن يأتى الحديث عن

---

(١) أبو الحسن العامرى ، الإعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق أستاذنا د/ أحمد عبد الحميد غراب . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ط١/١٩٦٧ ص١٢٥ .

(٢) د/ محمد المبارك . نظام الإسلام : العقيدة والعبادة ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨١ ص٢٨.

(٣) انظر : د/ حسن الشافعى ، المدخل إلى دراسة علم الكلام ، طبع باكستان ط١/١٩٨٨

فلسفة العلم قبل الحديث عن العلم نفسه . فالحديث عن فلسفة القانون يسبق الحديث عن القانون وفروعه . والحديث عن فلسفة التربية يتقدم الحديث عن علوم التربية ، وهكذا .

وذلك لأن النظم السائدة فى مجال السياسة والاقتصاد والقانون والتربية والحياة الاجتماعية ومؤسساتها تتأثر بالعقيدة أو الأيديولوجية[1] . ومن المنطقى - إذن - أن تكتسب العقيدة أهميتها فى بناء الإسلام .

يدل على أهمية العقيدة أدلة كثيرة من بينها :

١ - أن الحديث عن العقيدة هو موضوع كثير من الآيات القرآنية . ويمكن القول بأنه لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من عناية بأمر العقيدة فى جانب من جوانبها : تعريفا بها ، أو عرضا للبراهين الشرعية العقلية الدالة على صدقها ، أو مناقشة للمخالفين لها أو المكذبين بها ، أو بيانا للجزاء الذى يترتب على التصديق أو التكذيب بها . ويأتى هذا الاهتمام بها فى السور المكية والمدنية ، الطويلة منها والقصيرة . ومن نتائج ذلك أن تقوم العقيدة فى نفس المؤمن وعقله على العلم البرهانى الذى يثمر اليقين .

وقد لاحظ بعض العلماء أن الآيات الواردة فى أصول الدين أكثر من الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية[1] وذكر بعضهم أن الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية ،

---

(١) فمثلا إذا كانت الايديولوجية السائدة فى مجتمع ما تقوم على ملاحظة جانب الفرد ، واعتباره غاية النظام وهدفه فإن جميع النظم الموضوعة فى هذا المجتمع تأتى متأثرة بهذه الايديولوجية ومنسجمة معها . ويحدث العكس إذا كانت الايديولوجية السائدة تلاحظ جانب الجماعة أو المجتمع . وإذا كان علماء السياسة ، وفقهاء القانون ، وخبراء الاجتماع والتربية ، يدركون ذلك بسهولة ، فإن عامة المثقفين يستطيعون إدراك ذلك عن طريق المقارنة بين مجتمع ومجتمع ، بل عن طريق المقارنة بين أحوال المجتمع الواحد ، فى ظروف متغيرة . ويظهر ذلك - جليا - فى فترات التحول من نظام إلى نظام ومن فلسفة اجتماعية أو سياسية إلى فلسفة اجتماعية أو سياسية أخرى .

(٢) انظر مثلا : المنهاج فى شعب الإيمان للحليمى ، نشرة الأستاذ حلمى فودة دار الفكر ، بيروت ط١/١٩٧٩ جـ١/١٢ ، وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ٣٥٩ وهو يذكر رأى القشيرى الصوفى الأشعرى .

التى هى موضوع علم الفقه ، هى أقل من ستمائة آية ، أما باقى آياته التي تزيد على ستة آلاف ومائتى آية (٦٢٣٦) فإنها تتعلق ببيان التوحيد والنبوة ، والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين(١) ويمكن القول بأن آيات الأحكام نفسها مؤسسة على العقيدة ؛ ولذلك كانت تأتى مسبوقة أو متبوعة بتذكير المكلفين بها ، كقول الله تعالى فى بعض أحكام النكاح « ... واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ... » (البقرة : ٢٣٥) وقوله تعالى فى رعاية اليتامى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا »(النساء : ٩) وقوله فى بعض أحكام الحج : « ... وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » (البقرة : ١٩٧) وقد بدئت كثير من آيات الأحكام بمناداة المؤمنين بوصف الإيمان ، تذكيرا بما يتطلبه الإيمان من الطاعة والتسليم لحكم الله ، والرضا بأمره ، والمسارعة إلى طاعته . وهذا كله من آثار الإيمان وثمرات العقيدة .

٢ - أن منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الدعوة إلى الله يؤكد هذه الأهمية أيضا . فقد ظل الرسول طوال السنوات الأولى من دعوته يُوَجه الجانب الأعظم من اهتمامه إلى توضيح أصول العقيدة وأصول الأخلاق . وجاء ذلك بطريقة مباشرة أو فى ثنايا القصص القرآنى عن الأنبياء السابقين وأممهم . وظل الحال على ذلك أكثر من عشر سنوات ، كان الاهتمام الأكبر فيها متجها إلى تقرير العقيدة وتثبيتها . فلما استقرت العقيدة ، وابتعد الناس - بما أنعم الله به عليهم من الإيمان بالتوحيد والنبوة - عن أحوال الجاهلية التى كانوا عليها ، وأصبحت القلوب والعقول مهيأة للعمل بأحكام

---

(١) انظر : فخر الدين الرازى ، مفاتيح الغيب ، وهو تفسيره الكبير ، طبعة بولاق ٣٠٧/١ ، ٣٠٨ . ويتخذ الرازى من ذلك - كما قال الحليمى والقشيرى من قبل - سبيلا إلى بيان أهمية علم الكلام الذي يدرس أصول الدين . وهو أمر ينازع فيه من لهم رأى مخالف فى قيمة علم الكلام ، وإن كان الجميع متفقين على أهمية العقيدة فى ذاتها .

الشريعة ، وتحمل تكاليفها - عندئذ بدأت الأحكام تتنزل عليهم . ففرضت الصلاة - وحدها - بمكة ، ليلة الإسراء والمعراج . وكانت القبلة فيها إلى بيت المقدس بفلسطين[1] وقد ظل بعض أحكامها وأنواعها ينتظر هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ، حيث شرعت الجمعة والجماعة وغيرهما من أنواع الصلوات ، ثم تحولت القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة . ثم فرضت الزكاة والصيام والجهاد والحج . وعرف الناس أحكام الحلال والحرام في المعاملات ، كما عرفوا الحدود والقصاص وأحكام الأسرة وغيرها من الأحكام . وقد جاء هذا كله بعد استقرار العقيدة وإحكام بنائها . وتوضح السيدة عائشة ، أم المؤمنين ، رضى الله عنها سرّ هذا الترتيب في قولها عن نزول القرآن « إنما نزل أولّ ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار . حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبدا . ولو نزل : لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبدا ... »[2] .

---

(١) تضمنت بعض الآيات المكية حديثا عن الزكاة ، وبعض التشريعات . ولكن بعضها جاء في سياق الحديث عن الأمم السابقة ، وجاء بعضها عاما مجملا ، وكأنه تمهيد لتفصيلها ، فيما بعد . أما التشريع المفصل ، المرتبط بالتنفيذ والتطبيق والمسئولية فلم يقع - في الجملة - إلا بالمدينة . راجع مثلا : مادة زكاة وربا ، ويتيم في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . وليس معنى ذلك أن على المسلمين في كل دعوة إلى الإسلام أن يمكثوا مثل هذه المدة الطويلة في الدعوة إلى العقيدة وحدها ، دون ما يترتب عليها من أحكام وتشريعات ، والدليل على خطأ مثل هذا الفهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم - لم ينتظر مثل هذه المدة بالمدينة ؛ بل دعا إلى الدين كله : عقيدة وأخلاقا وشريعة . وقد بدأ ببناء المسجد ، وتدريب المسلمين على قتال المشركين ، وأرسل السرايا ، وواجه المشركين في بدر . كما شرع الله الصيام وغيره من الأحكام ، بعد وقت قليل من دخوله إلى المدينة . وقد جاء ذلك كله دون انتظار ؛ لأن الظروف بالمدينة كانت غيرها في مكة .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن ٦/ ١٠٠ ، ١٠١ وانظر مثل هذا المعنى لدى أبي عبيد القاسم بن سلام في كتابه الإيمان ٥٤ ، ٥٥ ، والمفصل هو السبع الأخير من القرآن الكريم من أول سورة : ق إلى آخر المصحف . وسمى بذلك لقصر أعداد الآيات في سوره ، أو لكثرة الفصول بين سوره ، أو لكثرة الفواصل أي أواخر الآيات في هذه السور . انظر : مادة فصل في لسان العرب والمعجم الوسيط ، وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٧٠ ، ٣٧١ .

ويقـول ابن تيـمـيـة فى هذا المعنى : « والدين القـائم بالقلب من الإيمان : علمـا وحالا ، هو الأصل . والأعمال الظاهرة هى الفروع . فالدين ، أول ما يبني من أصوله ، ويكمل بفروعه . كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد ، والأمثال ، التي هى المقاييس العقليـة ، والقصص والوعـد والوعـيـد . ثم أنزل بالمدينة - لما صـار له قـوة - فـروعـه الظاهرة ، من الجمعة والجماعة ... إلخ »(١) .

وعندمـا هاجـر الرسـول - صلي الله عليـه وسلم - إلى المدينة ، ظل الاهتـمـام بالعقيـدة مصاحبا لبيـان الأحكام الشرعيـة . وكان الاهتمام بها يأتى - أحيانا - فى سياق التشريع ، تمهيدا لاستقباله بما ينبغى له من التعظيم والامتثال ؛ لأنه تشريع من عند الله ، الذى يعد الإيمان به وبوحدانيته وكماله أصل العقيدة وأساسها .

وقد كان من أسباب الاهتمـام بالعـقـيدة فى المدينة أن المسلمين قد التقـوا فيـها بطوائف من اليهود المقيمين بها ، ومن النصارى الذين جاءوا إليها كنصارى نجران . ثم كان منتظرا أن يلتقوا بأهل الكتاب وغيرهم فى حركة الفتوح التى كانوا يتـهيـأون لها فى أواخر عـهـد النبى صلى الله عليـه وسلم . وكـان ذلك مما اقـتـضى الرد عـلى أهل الكتـاب فـيـمـا بدّلوه من أصـول عـقـائدهم ، ومناقـشـتـهم فـيـمـا أثـاروه من شـبـهـات ومطاعن ، حول عقائد الإسلام(٢) .

ولقد كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يعلّم الدعاة الذين كان يبعث بهم إلى البـلاد التى تدخل فى الإسـلام أن يبدأوا بدعـوة الناس إلى أصـول الإيمان أولا ، وفى مقدمتها عقيدة التوحيد . فإذا قبلوها عرضوا عليهم أحكام الإسلام ، ومـن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين أرسله إلى اليمن « إنك تقْدم على قوم من أهل الكتـاب فليكن أول مـا تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعـالى . فإذا عرفـوا ذلك فـأخبرهم أن الله فـرض عليـهم خـمس صلوات فى يومـهم وليـلتـهم ... »(٣) وهكذا يكون البـدء بالأصل وهو الإيمان والاعتقاد ، ثم تأتى الفروع بعد ذلك ، كما سبق القول .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٣٥٥ .

(٢) ارجع مثلا إلى سورة البقرة وآل عمران وأواخر سورة النساء ، وسورة المائدة وغيرها من السور المدنية ، ففيها الشواهد الكثيرة على هذه المناقشات والردود .

(٣) سبق تخريجه ص ١٤ .

٣ - يرى علماء السلف ، أهل السنة ، وأئمة المحدثين والفقهاء أن الإيمان - بمعناه العام الجامع - نية وقول وعمل[1] . أو أنه تصديق واعتقاد بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان[2] والإيمان - بحسب هذين القولين وما يماثلهما فى المضمون - يتضمن ثلاثة عناصر متكاملة ، تمثل الإيمان التام الذى يطالب الله تعالى به عباده .

فالنطق بالشهادتين هو إعلان بالانتماء إلى الإسلام والدخول فى دائرته ، والانتساب لأهله ، وإظهار للنية فى الالتزام بأحكامه ، والعمل بشريعته . ويترتب على هذا النطق أحكام شرعية أو قانونية بالتعبير الحديث ، حيث يكون الإنسان - بعد النطق بالشهادتين - عضوا فى المجتمع المسلم ، له ما لأعضاء هذا المجتمع من الحقوق ، وعليه ما عليهم من الواجبات . ومن أول ما يكون له من الحقوق : عصمة دمه وماله ، والحفاظ على حقوقه ، وتحريم العدوان عليه ، بل تكون نصرته واجبة ، وهكذا . ومن ثم كان هذا النطق ركنا يجب إظهاره وإبرازه ، إلا لضرورة مانعة من ذلك ، كالخرس أو الإكراه الذى يضطر المسلم إلى كتمان إيمانه ، أو إلى التلفظ بما يخالفه[3] .

ومن الأدلة علي ضرورة هذا النطق والإعلان : قوله تعالى :

- « ومَن أحسنُ قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » (فصلت : ٣٣) .

---

(١) انظر : الإيمان لأبى عبيد القاسم بن سلام ، مرجع سابق ،ص٥٣ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ومواطن أخرى . وصحيح البخارى ، كتاب الإيمان ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم بنى الإسلام على خمس ١ / ٧ .

(٢) انظر : الشريعة لأبى بكر الأجرى ، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى ، مطبعة السنة المحمدية ط١/١٣٦٩هـ . ص١١٩ وما بعدها والإيمان لابن تيمية ١٣٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٣٧١ ، ٤١٧ ومواطن أخرى .

(٣) بشرط أن يكون قلبه مطمئنا بالإيمان ، كما وقع لبعض الصحابة فى أول الإسلام ، ارجع إلى كتب التفسير فى تفسير الآية ١٠٦ من سورة النحل .

وقد أمر الله من آمنوا بالإسلام أن يعلنوا عن هذا الإيمان الذى يتميزون به عن غيرهم من أصحاب العقائد الأخرى ، وذلك فى مثل قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (البقرة : ١٣٦)(١) وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول اله ... »(٢) وفى بعض رواياته : حتى يقولوا : لا إله إلا الله(٣) فهذا من نصيب اللسان من الإيمان .

والعمل بالجوارح أو الأركان يعد بمثابة التصديق لهذه الشهادة التى نطق بها اللسان ، وصدَّق بها القلب ، فالعمل واجب لابد منه وقد قرنه الله بالإيمان ، لتتحقق بهما النجاة (٤) ، وجاء ذلك فى مواضع كثيرة من القرآن . ويدل ذلك على أن الله - عز وجل - « لم يُثْن على المؤمنين بأنه قد رضى عنهم وأنهم قد رضوا عنه ، وأثابهم على الدخول إلى الجنة ، والنجاة من النار إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وقرن مع الإيمان العملَ الصالح .. »(٥) .

وعلى قدر الامتثال لأمر الله تعالى وأمر رسوله يكون حظ المؤمن من الإيمان ،

---

(١) وانظر الآية ٨٤ من سورة آل عمران .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الإيمان ، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة ١/ ١١ ، ١٢ وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، (وهو بشرح النووى) ١/ ١٧٤ - ١٧٩ .

(٣) انظر : جامع الأصول فيما ذكره من الروايات عن مسلم والترمذى وأبى داود والنسائى ١/ ٢٤٦ - ٢٤٩ .

(٤) ومما يدل على أهمية العمل وضرورته أن الله جعله شرطا للموالاة والنصرة ، التى تكون للمؤمنين ، ولذلك نفى الموالاة والنصرة عن الذين لم يهاجروا فى أول الإسلام إلى المدينة ، كما قال تعالى : « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولا يتهم من شىء حتى يهاجروا » الأنفال ٧٢ وقارن الآيتين ٧٤ ، ٧٥ من الأنفال .

(٥) الشريعة للآجرى ١٢٢ وما بعدها وانظر ١٢٠ أيضا .

وتكون منزلته فيه ، وهو أمر يتفاوت الناس فيه : زيادة ونقصا ، على قدر تمكن اليقين من قلوبهم ، ثم على قدر أعمالهم . ومما يدل على ذلك قوله تعالى :

- « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكُلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » (النساء : ٩٥) .

- « لا يستوى منكم مَن أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ... » (الحديد : ١٠) .

وقد قال مالك بن دينار (١٣٠هـ) : « الإيمان يبدأ فى القلب ضعيفا ضئيلا كالبقلة ، فإن تعاهده صاحبه فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ، وأماط عنه الدَّغَل وما يضعفه ويوهنه أوشك أن ينمو ويزداد ، ويصير له أصل وفروع ، وثمرة وظل ، إلى ما لا يتناهى ، حتى يصير أمثال الجبال . وإن أهمله صاحبه ولم يتعاهده جاء عنز فالتهمها ، أو صبى فذهب بها ، أو كثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها . كذلك الإيمان »[1] .

أما الركن الثالث فهو اعتقاد القلب وإقراره وتصديقه ، وهو أهم العناصر الثلاثة جميعا :

أ - وذلك لأنه أساس القبول والاعتبار لهما . فالنطق بالشهادتين - دون اعتقاد لمضمونهما - هو نوع من النفاق ، الذى يخرج صاحبه من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر ، ويجعله مستحقا العذاب أشد من العذاب الذى سينزله الله بالكافرين « إن المنافقين

---

(١) ابن تيمية : الإيمان ص٢١٣ (بتصرف يسير جدا) وقارن الحلية لأبى نعيم ٣٥٩/٢ ، ٣٦٠ ثم ٣٦٢ حيث يذكر قريبا من هذا القول فى الحديث عن الصدق والبر . وانظر معنى مقاربا منسوبا إلى الإمام على بإسناد منقطع ، الإيمان لابن أبى شيبة ص٥ ، ٦ ولأبى عبيد القاسم بن سلام ٦٤ ، ٦٥ . والدغل الفساد ، وهو - فى الأصل - الشجر الكثيف الملتف ، ومن معانيه : الموضع الذى يُخْشى فيه الاغتيال . انظر لسان العرب ، مادة : دغل .

في الدَّرْك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » (النساء : ١٤٥) وهو يستحق هذا العذاب المغلظ ؛ لأنه جمع - إلى الكفر بالله تعالى - الكذب والخداع ، والتظاهر بالإيمان دون تحقق به . ويترتب علي ذلك أن المسلمين يعاملونه كواحد منهم ، وقد يتوصل بهذا الإيمان الظاهري إلى ما هو - في حقيقة الأمر - محرّم عليه ، كولاية المناصب التي لم يكن ليتولاها ، لو كان مشركا ظاهر الشرك والكفر ، وكالزواج بالمسلمات ، والشهادة على المسلمين ، ونحو ذلك من الأحكام التي لا تكون إلا للمسلمين . ولذلك كان جديرا بهذه العقوبة المغلظة التي يعاقب الله بها المنافقين .

وأما الأعمال - التي تمثل الركن الثالث من أركان الإيمان - فإنها لا قيمة لها ، دون إيمان بالله تعالى ، حتي ولو كانت صالحة في ذاتها . ولذلك جعل الله أعمال الكافرين كالهباء المنثور (الفرقان : ٢٣) أو كالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا (النور : ٣٩) أو كالظلمات المدلهمة في بحر لجيٍّ ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض (النور : ٤٠) أو كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف (إبراهيم : ١٨) وهكذا[١] ومعني ذلك أن هذه الأعمال مهدَرة ؛ لأنها فقدت الإيمان والتصديق الذي هو سبب قبولها ، فإذا انتفى وجوده انتفى اعتبارها ، وزالت قيمتها . وللاعتقاد - إذن - هذه الأهمية البالغة ، التي تجعله محور الإيمان وجوهره ، ونقطة البدء فيه ، وأساس القبول لكل ما سواه من الأقوال والأعمال .

ب - ولعل مما يدل علي ذلك - أيضا - أن المؤمن بأصول الدين ، المصدق بها ، يستحق وصف الإيمان في الدنيا ، متى أعلن ذلك وشهد به . ثم يُرْجى له بمقتضى هذا الإيمان أن يكون - في عاقبة أمره - من أهل الجنة في الآخرة ، حتى وإن وقع منه شيء من التقصير فيما يطالَب به المؤمنون من أعمال . ومثل هذا قد يعذبه الله على ما وقع فيه من التقصير والمخالفة ، ولكنه لا يخرج بذلك من الإيمان إلى الكفر ؛ بل إنه

(١) ارجع إلى الآية ١١٧ من سورة آل عمران .

يكون تحت مشيئة الله تعالى ، فإن شاء عفا عنه ، بفضله وكرمه ، أو بشفاعة الشافعين الذين يشفعون بإذنه ، كالأنبياء ، والشهداء والعلماء وأهل القرآن ونحوهم . وإن شاء الله تعالى عذبه ، لكنه إذا عذبه لا يخلده في النار كالكافرين والمشركين ، بل إن مآله يكون إلى الجنة . وما ذلك إلا لأنه قد وقع له هذا الإيمان الذي يكون سببا في نجاته من الخلود في النار مع الكفار والمشركين .

وقد تضمن القرآن والسنة كثيرا من الأدلة علي ذلك ، بما يؤكد أهمية الإيمان والاعتقاد والتصديق . ومن هذه الأدلة ما يأتى :

- قول الله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ... » (النساء : ٤٨ ، ١١٦) وقوله :

- « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم » (الزمر : ٥٣) .

وقد دلت هاتان الآيتان وأمثالهما على أن الله - عز وجل - قد وصف أهل المعاصى والذنوب بالإيمان ، على الرغم من وقوعهم فيها ، ولو كانت المعاصى تسلب الإيمان وتنفيه عن العاصى ، لما وصف الله هؤلاء بالإيمان .

وقد خصص البخارى في صحيحه بابا ذكر فيه أن المعاصي من أمر الجاهلية ، وأنه لا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك الذى هو ضد الإيمان ، وكان من أدلته لتقرير هذه المسألة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر حين عيَّر رجلا بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية ، فلم يسمه الرسول مشركا بالذنب « ثم استدل البخارى - كذلك - بقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ...... » (الحجرات : ٩) فقد سماهم الله تعالى مؤمنين ، مع وقوعهم فى معصية مقاتلة بعضهم بعضا (١) بل وصفهم الله تعالى بالأخوة للمؤمنين الذين يسعون فى تحقيق الصلح بينهم ، وذلك فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ...» (الحجرات : ١٠) .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الإيمان ، باب المعاصى من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ١٥/١ .

وكذلك قال الله تعالى فى تشريع القصاص من القاتل : « ... فمن عُفِي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ... » (البقرة : ١٧٨) فوصف القاتل و القتيل بأنهما أخوان ، وجعل العفو بينهما ممكنا ، بل مرغّبا فيه .

وقد تحدث القرآن الكريم عن طوائف من الناس الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، وبيّن أن هؤلاء ليسوا بعيدين عن رحمة الله تعالى ، وذلك فى قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسي الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم » (التوبة : ١٠٢) .

وتوضح هذه الآيات وأمثالها أن رحمة الله تعالى عامة شاملة ، وأنها تتسع لأهل الإيمان على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم وحظوظهم من طاعة الله تعالى .

وإذا كان أهل التقوى يأتون فى المقام الأول من تكريم الله تعالى ونوال فضله ، تصديقا لقوله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم (الحجرات : ١٣) فإن القرآن الكريم يبين أن هؤلاء المتقين ليسوا معصومين عصمة تامة من الوقوع فى بعض المعاصى . ولكن هذه المعاصى لا تقف فى وجه تفضل الله عليهم ولا تحرمهم من عطاء الرحمة الإلهية . وفي ذلك يقول الله تعالى : « والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين . ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » الزمر : ٣٣ - ٣٥)(١) .

وقد وقعت فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بعض « الوقائع » التى تدل على أن وقوع المؤمن فى بعض المعاصى لاينال من أصل الإيمان ، ولذلك لا يخرج منه إلى الكفر .

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة ، قال : « أُتِي النبي صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب . قال : اضربوه . قال أبو هريرة : فمنا الضارب بيده ، والضارب بنعله ، والضارب بثوبه . فلما انصرف قال بعض القوم : أخزاك الله . قال (الرسول) :

---

(١) وارجع إلى الآية ٧ من سورة العنكبوت ، والآية ١٦ من سورة الأحقاف .

لا تقولوا هذا ، لا تعينوا عليه الشيطان » . وفى رواية أخرى أنه قال : « لا تلعنوه . فوالله - ما علمتُ - أنه يحب الله ورسوله »(١) .

ومنها ما رواه جابر أن رجلا من أسلم جاء إلى النبى فاعترف بالزنا . فأعرض عنه الرسول ، حتى شهد على نفسه أربع مرات ، فقال : له النبى : أبك جنون ؟ قال : لا . قال : أحصنت ؟ قال : نعم . فأمر به فرُجم . فلما أذلقته الحجارة فر . فأدركوه ورجموه ، حتى مات . « فقال له النبى صلى الله عليه وسلم خيرا وصلّى عليه »(٢) .

ومنها ما رواه الترمذى فى شأن امرأة من جهينة ، أمر الرسول برجمها ثم صلّى عليها ، فقال له عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، رجمتها ثم تصلى عليها ؟ فقال : لقد تابت توبة لو قسمت بين أهل المدينة لوسعتهم . وهل وجدتْ شيئا أفضل من أنْ جادتْ بنفسها لله »(٣) .

ومنها ما حدث من حاطب ابن أبى بلتعة قبيل فتح مكة حين أرسل إلى أهل مكة كتابا يخبرهم بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم إليها فاتحا بعد أن نقضوا العهد مع حلفائه . وقد أخبر الوحىُ الرسول بما فعله حاطب ، فسأله الرسول عن هذا الذى فعله من إفشاء سر المسلمين لعدوهم . فاعتذر إلى الرسول عُذْرا ، قبله الرسول منه ، عندما أحس بصدقه . ولكن عمر بن الخطاب قال للرسول : « دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال صلى الله عليه وسلم : إنه قد شهد بدرا . وما يدريك لعل الله اطلع إلي أهل بدر

---

(١) صحيح البخارى . كتاب الحدود ، باب الضرب بالجريد والنعال ، ثم باب ما يُكْرَه من لعن شارب الخمر ، وأنه ليس بخارج من الملة ٨ / ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب لا يرجم المجنون والمجنونة ٨ / ٢١ ، ٢٢ وأذلقته أى أجهدته وآلمته .. انظر : لسان العرب ، مادة ذلق .

(٣) سنن الترمذى ، أبواب الحدود ، باب ما جاء فى الرجم على الثيب ، باب منه ٢/٤٤٥ ، ٤٤٦ . وقال الترمذى : حديث صحيح . ويلاحظ أن إقامة الحدود ، كحد الشرب أو السرقة أو الزنا هى دليل على أن أصحابها ليسوا كفارا ؛ لأنهم لو كانوا كذلك لأقام عليهم الرسول حدَّ الرِّدَّة . ثم إن الرسول صلى على بعضهم ، بعد إقامة حد الرجم . .هذا من أعظم الأدلة على أنهم ليسوا كفارا .

فقال : اعملوا ما شئتم . فقد غفرت لكم »[١] .

وتدلنا الأحاديث الصحيحة على أن من أعظم الأسباب في نوال الشفاعة يوم القيامة ، وفي تخفيف العذاب ، أو النجاة منه ما وقر في قلب المؤمن من الإيمان والاعتقاد والتصديق ، الذي لم تهدم المعاصي بنيانه ، ولم تستأصله من جذوره ، وإن أصابته ببعض التشويه أو الظلمة التي تحجب بعض أنواره .

ومن هذه الأحاديث ما رواه عبد الله بن عمرو ، قال : « قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُصَاح برجل من أمتي يوم القيامة على رءوس الخلائق . فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجلٍ مَدُّ البصر . ثم يقول الله عز وجل : هل تنكر من هذا شيئا ؟ فيقول : لا يا رب . فيقول : أظَلَمَتْكَ كتبتي الحافظون ؟ . ثم يقول : ألك عن ذلك حسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول : لا . فيقول (الله تعالى) : بلى إن لك عندنا حسنات ، وإنه لا ظلم عليك اليوم . فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . قال : فيقول (الرجل) : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول (الله تعالى) : إنك لا تظلم . فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة . فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة »[٢] .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . ثم يقول الله تعالى : « أخرجوا من كان في قلبه حبة من خردل من إيمان ... »[٣] وفي رواية أخري : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن شعيرة من إيمان ... وفي قلبه وزن بُرَّة من إيمان ... وفي قلبه وزن ذرة من إيمان »[٤] .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٧٩/١ ، ٨٠ وارجع إلى صحيح البخاري ، كتاب المغازي باب فضل من شهد بدرا ٩/٥ ، ١٠ وانظر كذلك ٨٩/٥ وصحيح مسلم (بشرح النووي) ، وكتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل حاطب بن أبي بلتعة وأهل بدر ٣٦٣/٥ - ٣٦٥ وجاء في بعض الروايات عنده أن عبداً لحاطب قال للرسول : يا رسول الله ، ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبت ، لا يدخلها فإنه شهد بدرا والحديبية » ٣٦٥/٥ ، وانظر : تفسير ابن كثير ، طبعة الشعب ١٠٨/٨ - ١١١ .

(٢) سنن ابن ماجة ، نشره الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله ١٤٣٧/٢ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال ١٣/١ ورواه بنحوه مسلم في كتاب الإيمان ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ٤٤٣/١ ، ٤٤٤ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصه ١٧/١ ، وفي رواية أخرى : وزن ذرة من خير إلخ وانظره : بلفظ مقارب عند الترمذي . أبواب صفة جهنم ، باب ما جاء أن للنار نفسين ، وما ذكر مَنْ يخرج من النار من أهل التوحيد . قال الترمذي : وفي الباب عن جابر وعمران بن حصين . هذا حديث حسن صحيح ١١١/٤ ، ١١٢ وانظر به أحاديث أخرى عن أنس وأبي سعيد الخدري ١١٢/٤ ، ١١٣ .

ومنها ما رواه أبو ذر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » فذكر أبو ذر للرسول أنواعا من كبائر المعاصى ، فأوضح له الرسول أنه يصير من أهل الجنة ، مع فعله لها . فراجعه أبو ذر ثلاث مرات ، والرسول يبين له فى كل مرة أنه سيكون من أهل الجنة . ثم قال له فى الثالثة أو فى الرابعة « على رغم أنف أبى ذر »(١) ومنها ما رواه معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، صدقًا من قلبه ، إلا حرمه الله على النار »(٢) .

ومنها ما رواه عثمان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »(٣) .

إلى أحاديث أخرى كثيرة(٤) .

ويتضح من هذا كله أهمية عنصر الاعتقاد القلبى ، ومكانته بين عناصر بناء الإيمان . وينبغى أن يكون هذا دافعا إلى مزيد العناية به ؛ لأن مصير الإنسان مرهون به ومتوقف عليه . فإذا كان صالحا صلح به ومعه كل شيء . وإذا كان فاسدا فسد بعده كل شيء .

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلُهَا ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قرار »(إبراهيم : ٢٤ - ٢٦) .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ٢٨٦/١ ، ٢٨٧ ومسند أحمد ١٦٦/٥ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم ، كراهية ألا يفهموا ٤١/١ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ١٨٤/١ - ١٨٦ وانظر به أحاديث أخرى ١٨٧/١ - ١٩١ .

(٤) انظر مثلا : صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب المساجد فى البيوت ١١٠/١ ، ومسند أحمد ١٧٠/٢ ، ٣٠٧ ، ٣٧٣ إلخ .

وهناك عدد من الملاحظات التي ينبغى الإشارة إليها فى هذا السياق ومن أهمها ما يلى :

أ - أن النظر إلى الإيمان على أنه قول واعتقاد وعمل هو رأى أهل السنة والجماعة ، ومن سار على منهجهم من الفقهاء والمحدثين ، ومفكرى السلف . وقد يتفق معهم ، من حيث التحديد والصياغة ، بعض الفرق الأخرى ، ولكن التأمل الدقيق لآرائهم يكشف عن بعض الفروق الجوهرية ، ولا سيما فيما يتعلق بركن « العمل » أى عمل الجوارح (١) .

ويفترق رأى أهل السنة فى هذه المسألة وما يترتب عليها من آثار ، عن آراء كثيرة أخرى فى تعريف الإيمان وتحديد عناصره . ومن هذه الآراء أن الإيمان هو الإقرار باللسان ، والتصديق بالقلب ، ومنهم من يقول إن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط ، ثم ذهب بعضهم إلى أن الإيمان هو النطق باللسان فقط ، بل قد ذهب آخرون إلى أن الإيمان هو مجرد المعرفة بالقلب دون تصديق أو إقرار . وحاصل ما سبق « يرجع إلى أن الإيمان إما أن يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما ذهب إليه جمهور السلف ... أو بالقلب واللسان دون الجوارح ، كما ذكره الطحاوى عن أبى حنيفة وأصحابه ، رحمهم الله أو باللسان وحده ، كما تقدم ذكره عن الكرامية ، أو بالقلب وحده ، وهو إما المعرفة كما قاله (الجهم بن صفوان) أو التصديق ، كما قاله أبو منصور الماتريدى رحمه الله »(٢).

---

(١) كالخوارج والمعتزلة وغيرهم . وانظر الإيمان لابن تيمية حيث يقول : « وقول المعتزلة والخوارج أقرب إلى قول السلف من قول الجهمية . لكن المعتزلة والخوارج يقولون بتخليد العصاة . وهذا أبعد عن قول السلف من كل قول ، فهم أقرب فى الاسم ، وأبعد فى الحكم» ١٥١ وانظر ١٥٢ .

(٢) على بن على بن محمد بن أبى العز الحنفى : شرح العقيدة الطحاوية ، المكتب الإسلامى طبعة ٦/ ١٤٠٠هـ ص٣٧٣ ، ٣٧٤ وقد رد على رأى الجهمية والكرامية في هاتين الصفحتين وما بعدهما ، وبين أن الخلاف بين رأى أبى حنيفة ورأي السلف خلاف صورى ، أو هو لفظى كما قال ابن تيمية : الإيمان ٢٨١ . ويمكن القول بأن رأى الأشعرى مشابه لرأى الماتريدي ، وأنهما لا يريان إغفال عنصر العمل بالجوارح ، ولكنهما يريان أن العمل يمثل شرطا لا ركنا ، وأنه أشبه بالثمرة التى تترتب على الإيمان ، وتؤدى إلى كماله .

ب - وتتفق هذه الآراء جميعا(١) على أهمية عنصر الاعتقاد وإعطائه المكانة الأولى بين العناصر التى يتكون منها الإيمان . ولكنهم يختلفون فى الحكم على من تخلف لديه ركن العمل ، وهى المسألة المعروفة بالحكم على " مرتكب الكبيرة " وهى من أول المسائل التى وقع فيها الخلاف بين المسلمين . ويرى أهل السنة ومن وافقهم من الفرق الكلامية كالأشاعرة والماتريدية أن مرتكب الكبيرة لا يخرج بذلك من الإيمان ؛ لأن ركن الاعتقاد متحقق فيه ، وكذلك ما يصحبه من الطاعات والأعمال الصالحة . غير أن الخوارج والمعتزلة والمرجئة لا يرون ذلك . فالخوارج يقولون إن مرتكب الكبيرة يكون كافرا إذا لم يتب منها ، فإذا مات من غير توبة فإنه يكون كافرا مخلدا فى النار . وقد فتح الخوارج بذلك باب التكفير لمن شهدت النصوص الشرعية بإسلامه وإيمانه . وهذه « أول بدعة ظهرت فى الإسلام » كما يقول ابن تيمية :(٢) وقال المعتزلة : إن مرتكب الكبيرة ، لا هو مؤمن ؛ لأنه لم يستكمل عناصر الإيمان بسبب وقوعه فى الكبائر ، ولا هو كافر بسبب ما معه من الإيمان ، ولكنه فاسق ، وقد قالوا : إنه في منزلة بين المنزلتين ، وإذا مات من غير توبة فإنه يخلد في النار كالكافرين وإن كان يعذب فى النار عذابا أهون من عذاب الكافرين (٣) .

أما المرجئة فقد أهملوا عنصر العمل ، وقالوا : إنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة(٤) وهو ما يؤدى إلى التهاون فى أداء الفرائض ، والتجرؤ على ارتكاب المعاصى ، مما يجعل الإيمان شكلا مجردا من مضمونه ومقتضياته .

---

(١) ما عدا رأى القائلين بأن الإيمان هو مجرد نطق اللسان أو مجرد معرفة القلب .

(٢) مجموع الفتاوى ٣١/١٣ . وقد حكموا بالكفر على بعض كبار الصحابة ، مع أن الصحابة لم يكفروهم ، وإن كانوا قد ذموهم بما وقعوا فيه . انظر الإيمان ص٢٠٩ .

(٣) ويرى كثيرون منهم أنه يعذب بعذاب الكفار . انظر : الملل والنحل للشهرستانى ٦٠/١ ، ٦١ وشرح الأصول الخمسة ٦٩٧ وما بعدها ومقالات الإسلاميين ١٤٩/١ .

(٤) انظر ما سبق فى الحديث عن رأيهم هذا ص ٢٩ .

جـ - إذا كان التقصير في بعض أعمال الإيمان لا يخرج من الإيمان إلى الكفر ، كما دلت الآيات والأحاديث الكثيرة التي ذكرت من قبل فإنه ينبغي أن يكون مثل هذا التقصير - إذا وقع - بعيدا عن تلك العبادات التي وُصِفت بأنها مباني الإسلام أو أركان الإسلام ، وبخاصة الصلاة ؛ لأنها أوثق هذه الأركان صلة بالإيمان ، فالصلاة عماد الدين ، ومن أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين ، وقد كانت أول ما شرع من هذه الأركان .

وقد شرعها الله تعالى ليلة الإسراء والمعراج ، مما يدل على عظم مكانتها . ومن المعلوم أن الصلاة لا تصح النيابة فيها ، فلا يصلي أحد عن أحد ، على حين تجوز النيابة في غيرها ، ثم إنه قد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تحكم بالكفر على تارك الصلاة ، ومنها : إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة[1] . ومنها : العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة . فمن تركها فقد كفر[2] .

ولهذا كله كان تركها شديد الخطر ، حتي لقد أفتى بعض الفقهاء بكفر تاركها عمدا ، وإن لم يجحد فرضيتها ، ولم يستحل تركها ، ومن هؤلاء الفقهاء : الإمام

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ٢٢٦/١ - ٢٦٨ والترمذي ، كتاب أبواب الإيمان ، باب ما جاء في ترك الصلاة . وقد أورده بروايات مقاربة ١٢٥/٤ ، ١٢٦ ثم روى عن عبد الله بن شقيق العقيلي أنه قال : كان أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة ١٢٦/٤ .

(٢) رواه الترمذي في الباب نفسه وقال : وفي الباب عن أنس وابن عباس . هذا حديث حسن صحيح غريب ١٢٦/٤ ومسند أحمد ٢٤٦/٥ وسنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية الندى ، دار الكتاب العربي - بيروت كتاب الصلاة باب الحكم على تارك الصلاة ٢٣١/١ ، ٢٣٢ وانظر الجامع الصغير للسيوطي وقد نسبه كذلك إلى ابن حبان والحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح ٧٠/٢ . وانظر في تفسير المراد بالكفر في مثل هذه الحالة أو ما يشابهها : الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٨٤ وما بعدها ، وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٥٩ وما بعدها .

أحمد بن حنبل فى بعض ما نسب إليه من أقوال . وقد ذهب غيره من الأئمة كالإمام الشافعي والإمام أبى حنيفة إلى أنه لا يكفر إلا إذا تركها جحودا[1] . وقد ذهب بعض الفقهاء إلى إطلاق صفة الكفر على من ترك بعض الأركان الأخرى متعمدا كالزكاة والصوم والحج . وفى ذلك يقول ابن تيمية : « وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر . وأما الأعمال الأربعة فاختلفوا فى تكفير تاركها . ونحن إذا قلنا : أهلُ السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب فإنما نريد به المعاصى ، كالزنا والشرب ، وأما هذه المبانى ففى تكفير تاركها نزاع مشهور . وعن أحمد فى ذلك نزاع. وإحدى الروايات عنه : أنه يكفر من ترك واحدة منها[2] ... وعنه رواية ثانية : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة فقط ، ورواية ثالثة : لا يكفر إلا بترك الصلاة ، والزكاة إذا قاتل الإمام عليها . ورابعة : لا يكفر إلا بترك الصلاة . وخامسة : لا يكفر بترك شىء منهن . وهذه أقوال معروفة للسلف ... »[3] .

وهى أقوال متفاوتة الشدة ، وهى متفقة على إبراز أهمية هذه الأعمال التى هى من أركان الإسلام ، وعلى التحذير من التهاون فى أدائها ؛ لأن من تهاون فيها فهو فى غيرها أكثر تهاونا .

د - ويشترط للتجاوز عن التقصير ألا يعتقد الواقع فى المعاصى بقلبه خلاف ما أمر الله تعالى به بإنكار ما هو واجب ، مما هو معلوم من الدين بالضرورة ، أو بتحليل كا جعله الله تعالى محرما ؛ لأن مثل هذا الاعتقاد المعكوس : عمدا وقصدا ، يُخْرِج صاحبه من دائرة الإيمان ، وهو أبلغ فى الخطورة من الفعل ذاته . فالاعتقاد بحل الخمر أخطر من شرب الخمر مع اعتقاد حرمتها . والاعتقاد باستحلال دماء الناس أو أموالهم

---

(١) انظر هنا : الفرق بين الفرق للبغدادى ١٤٦ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ١/٢٦٦ - ٢٦٨ والإيمان لابن تيمية ٢٨٧ وطبقات الشافعية لابن السبكى ١/ ٢٢٠ .

(٢) وهو اختيار طائفة من أصحابه وأصحاب مالك كما يقول ابن تيمية : الإيمان ٢٨٧ .

(٣) الإيمان لابن تيمية ٢٨٧ وقد ذكر بعض أقوال الصحابة كابن مسعود وابن عمرو وبعض التابعين كسعيد بن جبير وغيرهم فى المسألة ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

أخطر من القتل والسرقة ، مع التسليم بحرمتهما شرعا . وهكذا . وهذا مظهر من مظاهر أهمية الاعتقاد على بقية العناصر الأخرى .

هـ - أشرنا من قبل إلى الآيات والأحاديث التى أوضحت أهمية الاعتقاد وما يترتب عليه من نجاة أهل المعاصى من الخلود في النار أو إثبات الشفاعة لهم فى الآخرة . وليس يعنى ذلك أن يتجرأ المؤمن علي ارتكاب الكبائر والمعاصى ، وهو مستشعر للأمان من العقوبة ، أو طامع فى الرحمة ، ومؤمل للمغفرة كما قد يفهم ذلك من قول المرجئة ؛ لأن هذه الآيات والأحاديث قد سيقت كي تغلق أبواب اليأس التى يمكن أن يقع فيها الناس بسبب وقوعهم في الذنوب والمعاصى ، ولكى تفتح لهم أبواب الأمل والرجاء في رحمة الله التى وسعت كل شىء . وقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن كل بنى آدم خطاء وأن خير الخطائين التوابون . وبين القرآن أن من صفات المتقين أنهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وأنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون . وأنهم يسارعون إلى الخيرات ، وفى الخيرات وهم لها سابقون . وإذا كان القرآن قد وصف الرحمة الإلهية بأنها وسعت كل شىء فقد ذكر أن الله سيكتبها للذين يتقون ، كما ذكر أن رحمته قريب من المحسنين . وإذا كان الله قد وصف نفسه بصفات الرحمة فإنه قد وصف نفسه بأنه شديد العقاب ، ووصف عذابه بأنه أليم مهين غليظ ، كما وصف أخذه للظالمين بأنه أليم شديد ، وأنه لا يعذِّب عذابَهُ أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد . والمؤمن - إذن - يجمع بين الخوف والرجاء . وقد كان أهل الصلاح يرون أن طاعاتهم كلها لا توزن بنعمة واحدة من نعم الله عليهم ، ثم هى واقعة منهم بتوفيق الله لهم ، وكانوا يقولون : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت(١) . أو : لا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . وبهذا

---

(١) ينسب هذا إلى بلال بن سعد ، انظر : الزهد للإمام أحمد بن حنبل ، مكتبة أنس بن مالك ١٤٠٠هـ ص٣٨٤ وبلال بن سعد قاصٌ واعظ مصرى ، تابعى ثقة توفى فى حد سنة ١٢٠ . انظر : الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة للذهبى تحقيق الأستاذين عزت على عطية ، وموسى محمد الموشى ، دار الكتب الحديثة ط١/١٩٧٢ جـ١/١٦٥ .

الاعتبار قال بعض العارفين : لا صغيرة ، بل كل مخالفة فهى كبيرة (١) ولذلك كانوا أكثر فرارا من المعاصى . وهذا هو شأن الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » (المؤمنون : ٥٧ - ٦١) .

سادسا - من خصائص العقيدة الإسلامية :

للإسلام خصائص كثيرة ، يتميز بها على ما سواه من الأديان . ومن هذه الخصائص ما يتعلق بشريعته عامة ، ومنها ما يتعلق بعقيدته خاصة ، ومن هذه الخصائص ما يلى :

أولا : إن هذا الدين يستند إلى مصادر محفوظة ، لم يتطرق إليها تحريف ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، ويرجع ذلك إلى ما تحقق لها من أسباب الحفظ الإلهية ، المباشرة وغير المباشرة ، وينطبق هذا الحفظ على القرآن الكريم وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - على حد سواء .

فالقرآن محفوظ بحفظ الله - تعالى - له ، وقد ضمن ذلك فى مثل قوله : « إنا نحن نزّلنا الذكرَ وإنا له لحافظون » (الحجْر ٩) ، وقوله : « وإنه لكتاب عزيزٌ ، لا يأتيه الباطلُ مِنْ بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد»(فصلت ٤١ ، ٤٢) .

وقد هيأ الله تعالى له أسباب الحفظ منذ نزوله على الرسول الذى كان يحرك به لسانه أثناء تنزله عليه ، خشية أن يتفلت منه شىء ، فطمأنه الله إلى أنه محفوظ : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه » (القيامة ١٦ ، ١٧) .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ، مؤسسة الحلبى ، ١٩٦٧ جـ٤/٤١ وقد دفعهم إلى هذا النظر هيبتهم لله تعالى ، وخشيتهم من عذابه . ولكن الشرع قسم الذنوب إلى كبائر وسيآت أو صغائر أو لمم ، كما جاء فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . انظر مثلا : الآية ٣١ من النساء ، ٣٢ من سورة النجم .

ثم كان من أسباب حفظه أن العرب كانوا أول الناس تلقيا للقرآن وقد كانوا ذوي ذاكرة واعية ، وحافظة قوية ، حتى إن منهم من كان يحفظ أنساب القبائل ، وأيام العرب ، بل كان منهم من يحفظ أنساب الخيل ، وكان منهم من يسمع القصيدة المؤلفة من عشرات الأبيات مرة واحدة ، فيحفظها(١) ويدلنا ذلك على أن ملكة الحفظ الفطرية كانت شديدة قوية ، وربما كان للأمية الشائعة دخل فى ذلك ، حيث يكون الاعتماد الأكبر على الذاكرة في حفظ المعلومات واختزانها ، ويؤدى هذا إلى حدّة الذاكرة وقوتها وحضورها .

- وقد أضيف إلى هذه القوة الفطرية قوة الوازع الدنى ، المبنى على الترغيب فى تلاوة القرآن وفهمه وتدبره ، والنظر إلى هذه الأعمال علي أنها عبادة من أعظم العبادات ، وقُرْبه من أجلّ القربات ، وقد جاءت فى ذلك آيات وأحاديث كثيرة ، تدفع المؤمن بها إلى توثيق الصلة بالقرآن ، وحسن الإقبال عليه ، وأقبل الصحابة - بسبب ذلك - على تلاوة القرآن حتى كان لهم دوىٌّ به ، وكانوا يستمعون إلى القرآن من الرسول ، صلى الله عليه وسلم - وممن يحفظه من أصحابه ، وكان القرآن يتكرر علي أسماعهم عند نزوله ، وعند الصلاة به ، وعند الحكم بمقتضاه ، وفى الخطب التى كان الرسول يخطب فيها ببعض السور أحيانا ، وكان بعضهم يشهد مع الرسول تهجده الذي كان يقرأ فيه أحيانا ببعض السور الطوال كالبقرة وآل عمران والنساء ونحوها . وكان هذا كله يتيح الفرصة للحفظ والضبط والترتيب والتوثيق .

وقد أضاف الصحابة إلى ما تيسر لهم من الحفظ أنهم كانوا يكتبون القرآن بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما تيسر لهم من أدوات الكتابة فى عصرهم ، فكتبوه على الجلود والعظام والحجارة وسعف النخيل وما أشبهها ، ومعنى ذلك أنهم جمعوا بين حفظ القرآن وكتابته .

---

(١) انظر : جامع بيان العلم وفضله لأبى عمر يوسف بن عبد البر ، إدارة الطباعة المنيرية ١٩٧٨ جـ١/٦٩ ، ٧٠ .

ثم كان مما ساعد على حفظ هذا القرآن أن الله تعالى هيأ له أمة تحميه ، ودولة تلتزم به وتنفذ أحكامه ، وهى دولة الإسلام التى أقامها الرسول فى المدينة ، ولم يكن القرآن - إذن - مطارداً محاربًا كما كان شأن الكتب الإلهية الأخرى ، بل كان أهل الإيمان به - وخاصة فى أواخر عهد النبى عليه الصلاة والسلام - أهل قوة ومنعة . وكانوا ذوى كثرة وعدد ، حتى لقد حج معه فى حجة الوداع نحو أربعين ألفا[1] ، وقد كان هؤلاء جميعا ذوى حرص على القرآن وإن تفاوتوا فى حظوظهم من حفظه وتلاوته .

ولما ولى أبو بكر الصديق أمْرَ المسلمين بعد الرسول ارتد بعض العرب ، ومنع بعضهم الزكاة ، فأرسل أبو بكر الجيوش إلى جهات شتى فى شبه الجزيرة العربية لمحاربة المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، واستشهد فى هذه الوقائع عدد كبير من حفاظ القرآن ، وعندئذ أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق بجمع القرآن الكريم فى كتاب ، وتردد أبو بكر أولا ، ثم ارتضى الفكرة ، وعمل على تحقيقها ، ووضع لذلك الضوابط المحكمة[2] ، وتم إنجاز هذا العمل الجليل ، على يد الجيل الذى شهد تنزيل القرآن ، وجاء هذا الإنجاز متصلا بعهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذى لم يكن قد مضى على وفاته إلا وقت يسير جدا ، لعله لا يصل إلى عامين ، كما أنه قد أنجز بمحضر من كبار الصحابة وحفاظهم ، وإجماع منهم ، ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبى بكر انطلقت جيوش الإسلام « ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضا ، وفتحت الشام كلها ، والجزيرة (والعراق) ومصر كلها ، ولم يبق بلد (من هذه) إلا وبنيت فيه المساجد ، وكتبت فيه المصاحف ، وقرأ الأئمة القرآن ، وتعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا . وبقى (عمر) كذلك عشرة أعوام وأشهرا ، والمؤمنون كلهم ، لا

---

(1) انظر مثلا : شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد ، تصوير دار المعرفة ، بيروت عن طبعة القاهرة ١٩٦٧ ص٥١١ .

(2) انظر مثلا : صحيح البخارى ، كتاب تفسير القرآن ، سورة التوبة باب قوله : لقد جاءكم رسول من أنفسكم ٥/ ٢١٠ ، ٢١١ وانظر كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ٦/ ٩٨ ، ٩٩ .

اختلاف بينهم فى شىء ، بل ملة واحدة ، ومقالة واحدة . وإن لم يكن عند المسلمين - إذ مات عمر - مائة ألف مصحف ، من مصر إلى العراق ، إلى الشام ، إلى اليمن ، فما بين ذلك ، فلم يكن أقل ، ثم ولى عثمان ، فزادت الفتوح ، واتسع الأمر ، فلو رام أحد إحصاء مصاحف أهل الإسلام ما قدر »[1] .

ويتضح من ذلك أن القرآن الكريم قد حفظ من التغيير والتبديل ، وأن من قصد إلى زيادة حرف فيه ، أو نقص شىء منه فإنه ينكشف أمره ، ويفتضح كيده[2] ، ويرد عليه الصغار والكبار ، فى سائر أقطار الإسلام ، لا سيما الأقطار التي تقع في قلب العالم الإسلامى بما فيها من مراكز العلم ، وكثرة الحفاظ . وحينما تقدمت الطباعة أسهمت فى طباعة المصحف ، وساعدت على نشره ، حتى إن بعض مراكز الطباعة تصدر منه عشرات الآلاف في كل يوم ، وساعد علي ذلك أيضا تطور أجهزة التسجيل الصوتية والمرئية ، والحاسبات الآلية ونحوها .

وهكذا يسر اللـه الوسائل كلها لصيانة القرآن الكريم ، وحفظه من التحريف والتبديل ، ويمكن القول - دون مبالغة - إن ذلك لم يتيسر لكتاب آخر من الكتب التى نزلت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فهى لا تتصل بهؤلاء الأنبياء بسند متصل ، وقد كُتب بعضها بعدهم بمئات السنين ، وربما قاربت الألف أو زادت عليه فى بعض الأحيان ، ولنا أن نتصور ما الذى يمكن أن يحدث لمثل هذا النص الذي يظل طوال هذه الفترة من غير تدوين ، ولا شك أن هذه الظروف تلقى ظلالا كثيفة من الشك عليه ، بحيث لا تكون نسبته إلى هؤلاء الأنبياء موضع يقين[3] .

---

(١) الفصل لابن حزم ٢/٨٠ .

(٢) كانت هذه الملاحظة سببا فى دخول بعض أهل الكتاب فى الإسلام . راجع تفسير القرطبى لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(الحجر : ٩) .

(٣) سيأتى تفصيل لذلك - فيما بعد - إن شاء الله . ويمكن الرجوع إلى كتاب الفصل لابن حزم وكتاب إظهار الحق لرحمة الله الهندى ، وكتاب القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم لموريس بوكاى كما يمكن الرجوع إلى كتاب : رسالة فى اللاهوت والسياسة للفيلسوف اليهودى سبينوزا ترجمة د . حسن حنفى ، إلى كتب كثيرة أخرى .

ولا يمكن أن تقارن التوراة مثلا بالقرآن في هذا الجانب المتعلق بالحفظ من التحريف والتبديل ، بل إنها لا تقارن بالسنة النبوية التي يسر الله لها - هي الأخرى - أسبابا لحفظها ، وكان من هذه الأسباب أن قسما منها قد كتبه الصحابة فى عهده صلي الله عليه وسلم بإذنه ، بل أمر الرسول نفسه بكتابة بعضها ، مما له صلة بالأحكام والمواثيق ، ثم قام علماء الصحابة وفقهاؤهم بوضع الضوابط لقبول الرواية وتوثيقها ، وسار على نهجهم علماء مصطلح الحديث ، الذين عنوا بالسنة عناية بالغة ، لأنها تمثل المصدر الثانى للإسلام بعد القرآن ، ثم إنها هى السبيل إلى فهمه وبيان أحكامه ، وتفسير مجمله ، وتوضيح مبهمه ، وقد أسهمت هذه الضوابط فى مقاومة ظاهرة " الوضع " فى الحديث ، عن طريق تتبع الأسانيد ، والمعرفة بأخلاق الرواة ، ووضع قواعد الجرح والتعديل ، وتحديد أصول الحديث ، وقواعد تمحيصه : رواية ودراية ، وكان هذا العلم مفخرة من مفاخر المسلمين ، وموضع ثناء علماء المناهج والمؤرخين(١) .

ومن حق المسلمين - إذن - أن يطمئنوا إلى أن مصادر دينهم محفوظة ، على نحو لم يتيسر مثله ولا قريب منه لدين آخر من الأديان ، ومن حق هذا الدين - كذلك - أن يكون مهيمنا على الدين كله وأن يكون كتابه مهيمنا على الكتاب كله « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ... » (المائدة : ٤٨) .

وكان من الآثار الهامة التي ترتبت على حفظ مصادر الإسلام أن أصبحت عقائده محفوظة من التغيير والتبديل ، واتسمت بطابع " الثبات " الذى لم يتحقق لغيرها ، ولذلك يمكن القول « بأن الثقافة الإسلامية ليس فيها شيء اسمه تاريخ العقيدة

(١) يمكن الرجوع هنا إلى بعض المصادر القديمة مثل الكفاية فى علم الرواية ، وتقييد العلم ، وكلاهما للخطيب البغدادى ، ومقدمة ابن الصلاح ، ومن المراجع الحديثة : دراسات في الحديث النبوى ، د/ محمد مصطفى الأعظمى ، وكتاب السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى . د / مصطفى السباعى ، والسنة قبل التدوين . د/ محمد عجاج الخطيب ، وعلوم الحديث ومصطلحه ، د/ محمد صبحى الصالح ، والمدخل إلى توثيق السنة ، د/ رفعت فوزى ، ومصطلح التاريخ د/ أسد رستم ، إلى مراجع كثيرة أخرى .

الإسلامية ، يتوقف عليه فهم هذه العقيدة أو عرضها اليوم على الناس ، لأنها واحدة كما أنزلها الله تعالى ... وأما التأويلات التى ذهبت إليها الفرق الإسلامية المختلفة ، أو بعبارة أدق : الفهوم الخاصة ببعض عصور التاريخ الإسلامى ، فليست ضرورية ، أو لازمة لفهم النصوص القرآنية التى تناولت هذه العقيدة ، فضلا عن أن تكون قاضية على هذه النصوص أو حاكمة عليها » ولهذا يمكن مناقشتها(١) بل ويمكن ردها على أصحابها ، مهما كانت مكانتهم أو شهرتهم ، إذا كان فيها ما يخالف النصوص الشرعية ، صراحة أو ضمنا ، أو إذا وقع فيها غلو فى التأويل ، أو اعوجاج فى الاستنباط والاستدلال .

ويختلف الإسلام - من هذه الزاوية - عن غيره من العقائد الأخرى التى تطورت عقائدها لأسباب متعددة . ففيما يتعلق بالدين الذى جاء به موسى عليه السلام أضيف إلى التوراة التى أنزلها الله على موسى : التلمود الذى اكتسب من المكانة والقداسة لدى أصحابه ما جعله مقدمًا على التوراة نفسها : وأدى ذلك إلى اختلاف فى بعض العقائد الهامة كعقيدة الإيمان باليوم الآخر ، والحديث عن الجنة والنار(٢) .

ويتحدث الدارسون للمسيحية عما أصاب عقائدها من تطور . فلم تكن طبيعة عقيدة التوحيد ، كما كانت فى عصر السيد المسيح عليه السلام وفى عصر حوارييه وطلائع المؤمنين به هى نفس الطبيعة التى تطورت إليها هذه العقيدة ، لا سيما بعد انعقاد مؤتمر نيقية (٣٢٥م) الذى تم فيه تقنين طبيعة جديدة للتوحيد بإضافة السيد المسيح عليه السلام . ثم أضيف بعد ذلك بأكثر من خمسين عاما أخرى (فى مؤتمر القسطنطينية ٣٨١م) روح القدس ، فأصبح الموصوف بوصف الألوهية ثلاثة : الآب والابن وروح القدس(٣) وجاء هذا التطور ثمرة لأسباب عديدة ، يرجع بعضها إلى عامة

---

(١) د/ عدنان زرزور : التاريخ بين ثقافتين ، بحث بحولية كلية الشريعة بجامعة قطر ، العدد ٨/ ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م ص٢٢٧ ، ٢٧٨ .

(٢) انظر : د/ على عبد الواحد وافى : الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة على الإسلام ، دار نهضة مصر بالقاهرة ، د . ت ص٣٤ ، ٣٥ .

(٣) د / وافى ، المرجع السابق ص١٠٦ - ١١٢ .

الناس ، الذين نقلوا إلى عقيدتهم المسيحية الجديدة ما كانوا يؤمنون به قبلها من العقائد والأسرار ، ويرجع بعضها الآخر إلى الفلاسفة الذين فكروا فى العقائد المسيحية على ضوء معارفهم الفلسفية ، المأخوذة من الفلسفة اليونانية . وهكذا تحولت المسيحية إلى دين له عقائده ومراسمه وتنظيماته . وجاء ذلك « بفضل نوع من التأليف ، تعاونت عبادات الشرق ، من يهودية وأديان ذات أسرار ، مع الفكر اليونانى فى تزويده بجميع عناصره . وإنها - أيضا - لعقائد ومراسم وتنظيمات سوف تتطور حسبما يفرضه عليها المستقبل بنفس الأسلوب التأليفى . وسوف تستقى وتتغذى يوما بعد يوم ، ودون انقطاع من كل ما يحويه العالم اليونانى والرومانى من اتجاهات دينية حية باقية »[1] .

ثم كان من أهم أسباب التطور : تحول الإمبراطورية الرومانية من الوثنية إلى المسيحية ، وجاء ذلك ليمثل مرحلة هامة من مراحل تطور المسيحية « ولكن المسيحيين كانوا قد دفعوا ثمن الانتصار غاليا ، بحيث نستطيع - فى شىء كثير من الجزم - أن نقول : إن مؤمنى عصر الحواريين لم يكونوا لينظروا إلى هذا الانتصار ، لو قُدِّر لهم ذلك ، إلا على أنه نكبة كبرى »[2] .

أما الإسلام فقد ظلت عقائده محفوظة في ذاتها ، وإن وقع فيه - على امتداد تاريخه ، ولأسباب متعددة - اختلاف في الفهم أو الاجتهاد لبعض العقائد ، فَفَهْمُ السلف لعقيدة التوحيد ، وما يتصل بها من فهم للصفات والأسماء الإلهية الحسنى يختلف عن فهم المعتزلة مثلا ، وفَهْمُ المعتزلة لعقيدة القضاء والقدر يختلف عن فهم الأشاعرة أو الماتريدية أو الجهمية الجبرية مثلا . ولكن ذلك اختلاف فى الأفهام ، قد يخطئ أو يصيب ، على حسب قربه أو بعده عن أصل العقيدة المقررة في القرآن

---

(١) شارل جنيبير : المسيحية : نشأتها وتطورها ، ترجمة د/ عبد الحليم محمود . دار المعارف ط٢/١٩٨٥ ص٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٢) السابق : ص٢٣٠ وانظر : ٢٤٠ .

والسنة . ويُدْرَس هذا كله فى نطاق علم العقيدة أو فى نطاق علم الكلام ، وتظل هذه الأفهام والاجتهادات محكومة لا حاكمة ، على حين تظل النصوص حاكمة لا محكومة ، ومتبوعة لا تابعة ، وقاضية لا مقضيا عليها ، بسبب حفظ الله لمصادرها ، وصيانتها من التحريف والتبديل الذى طرأ على غيرها .

ثانيا : أن النبوة فى الإسلام تتصف بالشمول والعموم(1) ، وينطبق هذا الشمول والعموم على أمرين :

أ - الشمول للزمان كله ، سواء فى ذلك ما يتعلق بالزمان الآتى بعده أو الزمان السابق عليه ، فأما الشمول للزمان الآتى بعده فيرجع إلى أن الله تعالى قد ختم النبوات كلها بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا نبوة بعده ولا رسالة ؛ لأنه الدين الذى ارتضاه الله لعباده إلى آخر الزمان ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ، ولكنْ رسولَ الله وخاتمَ النبيين ... » (الأحزاب : ٤٠) .

ويجعل الرسول ذلك من خصائصه ، ومظاهر تفضيل الله تعالى له ، فيقول : « فُضلتُ على الأنبياء بستٍّ : أعطيتُ جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم ، وجُعلت ليَ الأرضُ مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون »(2) .

وأما الشمول للزمان قبله فمعناه أن الإسلام وارث ومصدق للنبوات السابقة ، التي جاء بها الأنبياء والرسل عليهم السلام ، ولذلك تضمنت عقيدته فى النبوة التصديق بكل نبوة سابقة ، وبكل كتاب أنزله الله تعالى على رسله وأنبيائه . وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم :

- « آمن الرسول بما أُنزلَ إليه من ربه والمؤمنون : كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحدٍ من رسله .. » (البقرة : ٢٨٥) .

---

(1) راجع ما سبق من حديث عن عموم شريعة الإسلام ص ٤٨ .

(2) صحيح البخارى ، كتاب التيمم ، باب التيمم ٩١/١ ، ٩٢ وصحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١٥٤/٢ وانظر جامع الأصول ٥٢٨/٨ - ٥٣١ .

- « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء : ١٣٦) .

وقد جعل الله تعالى هذا الإيمان الشامل بكل نبوة وكتاب مظهرا من مظاهر وحدة الدين وإقامته كاملا موحدًا من غير فرقة ولا خلاف . ولا يقيم الدين من غير تفرق فيه إلا المسلمون ، وهم يفعلون ذلك تلبية لوصية الله تعالى إليهم فى مثل قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... » (الشورى : ١٣)(١) .

ب - الشمول والعموم للبشرية كلها ، حيث إن نبوته - صلى الله عليه وسلم - ليست محصورة فى جنس أو عنصر أو طائفة أو لون أو مكان .

وتفترق نبوة الإسلام - بذلك - عما سبقها من النبوات ، حيث كان الرسل والأنبياء يبعثون فيها إلى أقوامهم دون سواهم ، ويدل على ذلك أدلة من القرآن والسنة والواقع التاريخى .

ومن أدلة القرآن قوله تعالى :

- « وإلى عاد أخاهم هودا » (هود : ٥٠) - « وإلى ثمود أخاهم صالحا » (هود : ٦١) . - « وإلى مدين أخاهم شعيبا » (هود : ٨٤) .

- « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله » (إبراهيم : ٥) .

- ويقول القرآن عن عيسى عليه السلام : « ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم .. » (آل عمران : ٤٩) . إلى آيات أخرى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن اليهود لا ينازعون فى أن موسى عليه السلام - وهو أكبر أنبيائهم ، الذين لم يظهر فيهم نبى مثله كما جاء فى التوراة - قد أرسل إليهم دون سواهم ، ويتفق ذلك مع ما يعتقدونه من أنهم شعب الله المختار ، وكان من مظاهر هذا الاختيار - عندهم - أن الله قد خصهم بالوحى والنبوة ، وحرم منهما غيرهم من الأميين .

---

(١) وانظر الآية ٨١ من سورة آل عمران .

أما عيسى - عليه السلام - فقد كان حريصا على أن يثبت أنه مرسل إلى بنى إسرائيل وحدهم ، ويتضح ذلك فيما ذكرته الأناجيل من أن امرأة كنعانية شكت إليه أن ابنتها مجنونة ، ورجته أن يشفيها كما شفى غيرها من بنى إسرائيل . فقال لها : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »(١) وعندما أرسل حوارييه الاثنى عشر للتبشير بدعوته أوصاهم قائلا : « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا - بالحرىّ - إلى خراف بيت اسرائيل الضالة »(٢) .

ومما جاء في السنة النبوية ما ذكر في خصائصه صلى الله عليه وسلم ومنها : وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة ، وجاء في رواية مسلم ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود(٣) .

ولا يختلف الواقع التاريخى عن هذا الذى أثبته القرآن والسنة . فقد كان الأنبياء السابقون يُعَاصِر بعضهم بعضا ، ومعني ذلك أنه لم يكن لواحد من هؤلاء المتعاصرين نبوة عامة ، وإلا لكانت نبوته مغنية عن نبوة سواه ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما كان من نبوة إبراهيم ولوط واسماعيل وإسحاق عليهم السلام ، وما كان من نبوة إسحاق ويعقوب ، ونبوة يعقوب وبعض بنيه كيوسف عليه السلام ، وما كان من نبوة موسى وهارون ويوشع ، ونبوة يحيى وعيسى عليهما السلام . وتحدثنا كتب العهد القديم عن زمرة من الانبياء يتعاصرون(٤) بل تذكر كيف كانت النبوة تنزل عليهم

---

(١) انجيل متى : إصحاح ١٥ فقرات من ٢٢ - ٢٤ .

(٢) انجيل متى : اصحاح ١٠ فقرتا : ٥ ، ٦ وارجع إلى كتاب تطور العقائد ، مرجع سابق ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) صحيح البخارى : كتاب التيمم ، باب قول الله تعالى : « فلم تجدوا ماءً » ٨٦/١ . وفي المساجد ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : جعلت لى الأرض مسجدا . وصحيح مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة في فاتحته ١٥٤/٢ والنسائى فى الغسل باب التيمم بالصعيد ٢١٠/١ ، ٢١١ وانظر جامع الأصول ٥٢٨/١ - ٥٢٩ .

(٤) انظر : صموئيل الأول اصحاح ٥/١٠ ، ١٠ .

جماعات جماعات ، وقد ورد ذلك مثلا فى حديث بعض كتبها عن الصراع الذى جرى بين شاول ، وداود عليه السلام ، والذى حاول فيه شاول أن يقضى على داود ، فهرب منه فأرسل شاول رسلا لأخذ داود ، ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبأون كان روح الله على رسل شاول فتنبأوا أيضا ، وأخبروا شاول فأرسل رسلا آخرين فتنبأوا هم أيضا . ثم عاد شاول فأرسل رسلا ثالثة ، فتنبأوا هم أيضا ، فذهب بنفسه فتنبأ هو أيضا[1] .

وفى بعض نصوص العهد القديم أن ملك اسرائيل جمع الأنبياء نحو أربعمائة رجل ليستشيرهم[2] ، بل وصل عددهم أحيانا إلى ثمانمائة وخمسين من المتنبئين[3] وهكذا يثبت الواقع التاريخى وكتب أهل الكتاب التى يقدسونها أن نبوة الأنبياء السابقين كانت نبوة خاصة لا عامة[4] .

وأما الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد كانت نبوته عامة للخلق جميعا ، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى :

- « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا .. » (الأعراف : ١٥٨) .
- « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا .. » (سبأ : ٢٨) .
- « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧) .

---

(١) انظر صموئيل الأول ، اصحاح ١٩/٢٠ - ٢٥ .

(٢) الملوك الأول ، اصحاح ٦/٢٢ وما بعدها .

(٣) الملوك الأول اصحاح ١٩/١٨ وما بعدها . وانظر : عباس محمود العقاد ، عبقرية المسيح ، المكتبة العصرية - بيروت . د . ت ص٣٦ .

(٤) يتضح من التأمل فى كثرة هذه الأعداد ، وما يطلق على أصحابها من صفات عندهم أن أحوال النبوة تختلف عن تلك الصورة التى تسبق إلى الخواطر عند استحضار أحوال كبار الأنبياء ، وتصادم الاعتقاد بأن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر على هذا النحو الذى يجعل الأنبياء أشبه بالكهان أو العرافين أو المتنبئين . وسنعود إلى توضيح هذه الفكرة عند الحديث عن النبوة فيما بعد إن شاء الله . وانظر كتاب الأستاذ عباس العقاد عن المسيح : طبع بيروت ص٣٥ ، ٣٦ . وقصة الحضارة لول ديورانت ٣٤٩/٢ ، ٣٥٠ .

- « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »(الفرقان : ١) .

ومن الأمور التي ينبغى ملاحظتها أن هذا العموم في رسالته كان واضحا منذ فجر الدعوة ، وبداياتها الأولى ، وقد جاء الإعلان عنه فى آيات مكية عديدة ؛ لأنه ليس شيئا عارضا على الدعوة أو تطويرا مرحليا لها كما قد يتوهم البعض ، بل إنه ملمح هام من ملامح الدين ، ومن ثم لم يكن أمرا يحتمل التأجيل إلى ما بعد هجرة الرسول إلى المدينة ، وقد أعلن القرآن ذلك فى مكة ، على الرغم من الظروف القاسية التى كان يعيشها المسلمون الأولون فيها بسبب ضعفهم وقلة عددهم ، فلما كثر عددهم وزادت قوتهم - بعد الهجرة إلى المدينة - وضعوا هذا الأمر موضع التنفيذ عن طريق الجهاد فى سبيل الله ، الذى جاء تطبيقا وتأكيدا لعالمية هذا الدين ، على النحو الذى بدا واضحا منذ العهد المكى . وكان مما يتفق مع هذه العالمية - أيضا - أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قام بإرسال الكتب والرسل إلى ملوك وحكام عصره ، من أمثال قيصر وكسرى والنجاشى والمقوقس وغيرهم من حكام الإمارات والولايات والبلاد(١) يُعَرِّفهم بأنه رسول الله إليهم ، ويطالبهم بالدخول فى الإسلام . وهذا دليل على عموم دعوته ونبوته ، وعدم انحصارها فى جنس أو طائفة أو وطن ، مثلما كان شأن النبوات السابقة .

ثالثا : أن العقيدة التي جاء بها الإسلام هى أكثر العقائد مطابقة للعقل ، وموافقة له ، ولذلك لا يجد العقل فى فهم أصولها ، عسرا ولا مشقة ، ولا يجد فى تقبلها حرجا ولا عنتا .

ويتفق هذا مع الموقف العام للإسلام من العقل والفكر ، وهو موقف يتجلى فى أمور عدة ، فالمعجزة العظمى التى تدل علي نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم هى القرآن الكريم ، وهو معجزة عقلية علمية جعلها الله دليلا متجددا على نبوته ، وقد

(١) انظر مثلا : تاريخ الرسل والملوك للطبرى ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف ط٥/١٩٨٦ جـ٢/٦٤٤ - ٦٥٧ . والبداية والنهاية لابن كثير . تحقيق د/ أحمد أبو ملحم وآخرين . دار الكتب العلمية - بيروت ط٣/١٩٨٧ جـ٤/٢٦٢ - ٢٧٢ .

بدىء القرآن كما تدل آياته بالدعوة إلى القراءة والعناية بالعلم ، وتكررت فى ثناياه الدعوة إلى النظر والتفكر والاعتبار ،والتعقل والفهم والتدبر ونحو ذلك من أوجه نشاط العقل الإنسانى . وقد ذم القرآن التقليد بلا دليل ، ودعا إلى تحطيم حجب الوهم والخرافة ، والتحرر من إسار العادة ، وحذر من الركون إلى الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا ، وكان حقا لا مبالغة فيه أن يوصف التفكير بأنه فريضة إسلامية (١).

ولا غرابة - إذن - أن تكون أصول العقيدة موافقة للعقل ، لا تعارضه ولا تناقضه .

ومن الأمثلة التى توضح ذلك أن الإيمان بالله تعالى يمكن الاهتداء إليه بالنظر فى الكون وفى الإنسان ، وما فيهما من إبداع وإتقان ؛ لأن من عادات العقل فى التفكير أن يربط بين الأسباب والمسببات ، ومن ثم فإنه لا خلق بدون خالق ، ولا صنع بدون صانع ، والكون - إذن - محتاج إلى خالق أعلى ، موصوف بالعلم والحكمة « أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون » (الطور : ٣٥ ، ٣٦) .

والإيمان بالتوحيد يتفق مع وحدة النظام السارى فى الوجود ، فالكون يخضع لقوانين مطردة ، وسنن ثابتة ، لا تخضع للتقلب والهوى ، ولا يكون ذلك إلا بسبب وحدة الخالق جل جلاله « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (الأنبياء : ٢٢) .

والإيمان بالبعث واليوم الآخر ، وما يقع بعده من ثواب وعقاب ، يتفق مع العدل المطلق ، الذى يقتضى أن ينال كل إنسان جزاءً يتناسب تناسبا حقيقيا مع ما قدمه من عمل ، وهو عدل يتعذر وقوع مثله فى هذا العالم الدنيوى الذى نعيش فيه ؛ ولذلك يتطلع العقل إلى عالم آخر ، يتحقق فيه هذا العدل الكامل ، ويتميز به أهل الحق من أهل الباطل ، وأهل الخير والصلاح من أهل الشر والفساد :

- « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ »(ن ٣٥ ، ٣٦) .
- « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويلٌ

(١) كما قال الأستاذ العقاد فى كتابه عَنْوَنَهُ بهذا العنوان .

للذين كفروا من النـــار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟ » (ص : ٢٧ ، ٢٨) وهكذا* .

وليس فى عقيدة الإسلام - إذن - تعارض بين العقل والنقل أى الشرع ، وهذا أمر يعترف به فلاسفة الإسلام وحكماؤه أنفسهم ، وها هو الكندى - الفيلسوف الأول عند المسلمين - يقول : « ولعمرى إن قول الصادق محمد - صلوات الله عليه - وما أدى عن الله عز وجل لموجود جميعا بالمقاييس العقلية التى لا يدفعها إلا من حُرِمَ صورة العقل ، واتحد بصورة الجهل عند الناس »(١) .

ويقول ابن سينا فى سياق حديثه عن ضرورة دراسة الحكمة وهى الفلسفة : « إن المعرفة بكل شىء أفضـــل من الجهل به ، وإنه ليس شىء من العلوم حريا بالجهل ، وإن الناس أعداء ما جهلوا ... وإن مقتضى العقل الصريح لا ينافى موجب الشرع الصحيح »(٢) .

ويقـــول ابن رشد : « ... إنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له »(٣) .

وإذا كان هؤلاء الفلاسفة قد صرحوا بهذه الفكرة فإن علماء الإسلام يوافقونهم على ذلك ، وقد اجتهدوا فى إثبات أنه لا تعارض بين العقل والنقل ، وخاصة عندما نال بعض المتكلمين بإمكان التعارض بينهما . وكان ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) من أكثر المهتمين بالرد على دعوى هؤلاء المتكلمين ، وكتب فى ذلك كتبا كبرى ورسائل كثيرة ، كان الغرض منها بيـــان أن « ما علم بصريح العقل ، لا يتصور أن يعارضه الشرع ألبتة ، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط »(٤) .

---

* سيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله .

(١) رسائل الكندى ، تحقيق أستاذنا د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة . دار الفكر العربى طبعة ١٩٥٠ جـ١/٢٤٤ .

(٢) ابن سينا : تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ط١/١٢٩٨هـ ص٥٠ .

(٣) ابن رشد ، فصل المقال ، تحقيق د/ محمد عمارة . دار المعارف ، دون تاريخ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٤) درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق د/ محمد رشاد سالم ، طبعة الرياض ط١/١٣٩٩هـ=١٩٧٩ جـ١/١٤٧ وانظر ١/٨٠ ، ٩١ - ٩٣ ، ١٣٣ ، ١٣٨ .

وقد أكد ابن تيمية . في لغة جازمة تقوم على الاستقراء والاستقصاء - أن مايقال - أحيانا - من وجود تعارض بين العقل والنقل لا يمكن أن يقع في النصوص الشرعية ، القطعية الصحيحة ، ولا في المسائل العقلية البينة ، المعروفة بصريح العقل . وربما وقع التعارض في حديث مكذوب موضوع يعلم أهل العلم بالحديث أنه كذب موضوع ، أو في دلالة عقلية ضعيفة لا تخلو من غلط في الاستدلال بها على الشرع[1] . وقد حصر ابن تيمية احتمالات التعارض وأسبابها على النحو التالي :

أ - ألا يكون النص صحيحا ، كأن يكون حديثا موضوعا ، ومثل هذا القول المكذوب إذا جاء مخالفا للعقل فإنه لا يصح القول بوجود تعارض بين الشرع والعقل ؛ لأن هذا ليس دليلا شرعيا ، لعدم صحته[2] .

ب - أن يُفْهم النص الصحيح فهما غير صحيح ، ثم يحكم - بمقتضى هذا الفهم الخاطئ - بوجود تعارض بين الشرع والعقل ، وهذا حكم غير صحيح ؛ لأن الذى تعارض مع العقل ليس هو النص ، بل هو الفهم الخاطئ له . ومن الأمثلة على ذلك : الحديث القدسي الذى يقول الله تعالى فيه : « عبدى مرضت فلم تعدنى ، فيقول : رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن فلانا مرض ، فلو عدته لوجدتنى عنده ... »[3] .

ويعلق ابن تيمية على هذا الحديث بأنه : « لا يجوز لعاقل أن يقول : إن دلالة هذا الحديث مخالفة لعقل ولا سمع ، إلا من يظن أنه قد دل على جواز المرض والجوع

---

(1) انظر درء تعارض ... ، ١٤٧/١ وقد بين أن أمثال هذه الأقوال لا تصلح أن تكون دليلا في نفسها فكيف تعتبر أدلة ، ثم يقال إنها تخالف أدلة العقول ؟! .

(2) يمكن الرجوع هنا إلى الكتب التى عنيت ببيان الأحاديث الضعيفة والموضوعة لاستخلاص النماذج منها . وانظر كذلك درء تعارض ١٤٨/١ ، ١٤٩ .

(3) صحيح مسلم : كتاب البر والصلة . باب فضل عيادة المريض ٩٩٠/٤ ومسند أحمد ٤٠٤/٢ .

على الخالق ، سبحانه وتعالى ومن قال بهذا فقد كذب على الحديث ... »[1] والذى تدل عليه أدلة الشرع والعقل أن الخالق يجب تنزيهه عما يتنافى مع مقام الألوهية وخصائصها وكمالها ، كالجوع والمرض وأمثالهما ، فإذا ورد فى الحديث ما يدل عليهما فيجب فهمه على ضوء التنزيه الذى يليق بجلاله تعالى [2] .

جـ - أن يكون المبدأ الذى ارتضاه العقل غير صحيح ، وهذا أمر يقع فى بعض الأحيان ، بسبب تقليد الآخرين دون تمحيص ، أو بسبب استخدام مقدمات خاطئة ، وليس العقل - على كل حال - معصوما من الخطأ . فإذا اعتنق العقل أفكارا خاطئة فإن من الممكن أن يقع بينها وبين الشرع تعارض[3] .

---

(١) درء تعارض ١/ ١٥٠ . ومن أمثلة ذلك - أيضا - ما فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى : « ... وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ... » آل عمران ٢٧ من أن ذلك هو إخراج الحبة من الزرع ، والزرع من الحبة ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، ونحو ذلك . وقد كان ظنهم - بحسب معارف عصرهم - أن الحبة والنواة والبيضة أشياء ميتة ليس فيها حياة ، ثم كشف العلم - فيما بعد عصرهم - أن هذه لا تنتج إلا إذا كانت حية . ولهذا يمكن القول بأن فهمهم هو الذى خالفه العلم من بعدهم . أما الآية ذاتها فإنها صحيحة ، يمكن تفسيرها بوجوه صحيحة ، لا تعارض عقلا ولا علما . انظر تفسير الطبرى وابن عطية والرازى وابن كثير فى تفسير هذه الآية .

(٢) وهذا هو ما تدل عليه الايات القرآنية . ومن أهمها - فى هذا المقام - قوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » (الشورى : ١١) .

(٣) وقد يكون الخطأ البشرى عاما ، وقد يستمر قرونا ، إلى أن يتمكن العقل من اكتشاف خطئه . وحينئذ يمكن له أن يعدل عنه . وقد ظلت البشرية قرونا عديدة تعتقد أن الأرض هى مركز الكون ، وأن الكواكب تدور من حولها . ثم اكتشف علماء الفلك أن الأرض ليست إلا كوكبا ضمن المجموعة الشمسية . وكذلك ظن الناس أن الضوء بسيط غير مركب من عناصر . ثم تبين لهم أنه يمكن تحليله إلى ألوان الطيف عن طريق المنشور الثلاثى ، وينطبق ذلك على كثير من النتائج التى قام ويقوم العلم بتصحيحها . وإذا كان هذا يحدث بالنسبة للأشياء المحسوسة فإنه ليس بغريب أن يحدث مثله بالنسبة لله الذى لا تدركه الأبصار . ولذلك قد يتصور العقل بعض التصورات المتعلقة بالألوهية ، ثم يأتى الشرع بتصحيحها .

وينتهى ابن تيمية إلى أنه إذا كان النص صحيحا ، ثم كان الفهم المستنبط صحيحا ، وكان المبدأ العقلى صحيحا فإنه لا يقع تعارض بين الشرع والعقل .

ويمكن الإشارة - فى إيجاز - إلى الملاحظات التالية :

الأولى : أنه ليس غريبا أن يقع التوافق بين العقل والشرع ، بل إن هذا هو الطبيعى ، لأن العقل والفطرة من خلق الله عز وجل ، ولذلك لا يتعارضان مع الشرع الذى هو وحيه وأمره .

الثانية : أن يظل كل منهما محتفظا بطبيعته الأصلية ، وهذا يستلزم أن يكون النص صحيحا دون تحريف ولا تبديل ، وأن يكون العقل خاضعا في فكره للشروط التى تضمن له السلامة من الخطأ والهوى .

الثالثة : أن السبب في هذا التوافق الذى يعد من خصائص الإسلام أن مصادره ظلت محفوظة من التحريف والتبديل ، على النحو الذى شرحناه من قبل ، وهو أمر لم يتيسر للديانات السابقة كما تيسر للإسلام ، ومن ثم وجدنا بعض العقائد الأساسية فيها تتعرض للتحريف ، الذى جعلها عسيرة على الفهم ، بعيدة عن القبول والاقتناع ، وقد كانت هذه المسألة من بين المسائل التى لاحظها العلماء المسلمون في جدالهم مع علماء النصارى مثلا ، حتى إنهم كانوا يطالبونهم بأن يعرضوا دينهم وعقائدهم عرضا يمكن للعقل أن يتصوره فلا يستطيعون ذلك[1] .

وقد لاحظ هذا الأمر نفسه بعض مؤرخى الحضارات والديانات التى اختلط فيها الدين بالفلسفات الوثنية ، فتحولت بعض أصوله عن حقائقها ، وانقلبت إلى بدع مضادة للعقل والفطرة .

ومن هؤلاء " ولز " الذي يقول عن المسيحية : إنها منذ البداية تقريبا فارقت ما دعا إليه يسوع الناصرى ، واستترت وراء مبادىء وطقوس ترجع إلى عصر أقدم ،

---

(١) انظر : أحمد بن إدريس القرافى : الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة . دار الكتب العلمية ، بيروت د . ت ص ٨ ، ٩ . وانظر ٤٢ ، ١٠٤ .

وإلى طراز أدنى من حيث العقلية ، وقد وقعت المسيحية فريسة لتقاليد عتيقة خاصة بالتضحية الإنسانية والتطهر الدموى ، كما شغلت نفسها بتفصيلات تتعلق بالنواحى الدقيقة للطبيعة الإلهية ، وكذلك أيضا أوقعها العقل الإغريقى الإسكندرى فى مصيدته بما يتصف به من تعقيد ذهنى . وهكذا اجتمعت التقاليد البدائية العنيفة ، والكهانة القديمة ، والفلسفة اليونانية علي المسيحية فأثرت فيها تأثيرا بينا ، حتي إذا وقعت الكنيسة فى معمعة هذا التطاحن الذى لا مفر منه بين هذه المفارقات المتناقضة ، اضطرت أن تصبح اعتقادية حتمية تلزم أصحابها باتباعها دون مناقشة ، وعندما يئست من التوصل إلي حلول لخلافاتها الفكرية لجأت إلى الاستبداد التعسفى[1] ووجدنا من بين علمائهم من يقول عن بعض عقائدهم التي يصعب فهمها وتقبُّلها " فنحن نقبل ما قالت هذه الكتب بالإيمان ، ولو كانت عقولنا لا تجد سبيلا إلى تحقيق قولها ؛ لأن الإيمان هكذا حددناه ، أنه اليقين بما قد غاب عن المعرفة ، كما (لو أنه) تحيط به المعرفة (٢) وإذا كان الاستبداد التعسفى كما يقول " ولز " قد أفلح فى قهر الناس على التسليم بهذه العقائد التى تعجز عقولهم عن فهمها ، فإن ذلك لم يستمر إلي ما لا نهاية ؛ لأن تقدم العلم قد أدى إلى التمرد والخروج من ربقة هذه القيود ، التى تكبل العقل . ولم يقع مثل هذا للإسلام الذى حفظ الله تعالى مصادره ، وصانه من التحريف ، ومن ثم برئت ساحته من مثل هذا التعارض الذميم ، الذى أدى – فى أوروبا وغيرها – إلى رفض الدين ، والوقوع فى براثن الإلحاد والمادية .والعلمانية .

---

(١) انظر : هـ . ج . ولز : معالم تاريخ الإنسانية ترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ط١٩٧٢/٣ جـ٣/٩٠٢ وانظر : غوستاف لوبون . حضارة العرب ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠ ص١٢٥ وتطور العقائد لجنيبير ص٥٨ ، ٦٠ حيث يذكر أن العقيدة تعني عند بعض المسحيين : إذلال العقل .

(٢) تيودور أبو قرة : ميمر فى وجود الخالق والدين القويم ، تحقيق د/اغناطيوس ديك . المكتبة البولسية ، لبنان ١٩٨٢ ص٩١ ، وما بين القوسين مزيد لتوضيح المعنى .

أما الإسلام فقد كان لوضوح عقائده ، وما تتسم به من طابع عقلى أبلغ الأثر فى نشره فى أقطار الأرض جميعا[1] .

رابعا : إن من عقائد هذا الدين : عقيدة ختم النبوة ، وهى ثمرة طبيعية للخصائص السابقة كلها ، وقد كانت بشارة الأنبياء بعضهم ببعض من الظواهر الشائعة فى الرسالات السابقة . وفي العد القديم والجديد نماذج لهذه البشارات التي كانت تهيئ الأذهان لنبوة جديدة[2] فلما جاء الإسلام أودع الله فيه من الكمال والهدى مالم يودع فى غيره ، ويسر له من الحفظ ما جعله جديرا بأن يكون هو الدين الخاتم ، الذى لا نبوة بعده ولا رسالة، وفي ذلك يقول الله تعالى : « ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ... » (الأحزاب : ٤٠) .

ويصور الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا المعنى تصويرا جميلا يقول فيه : « مَثَلى ومثلُ الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، قال (صلى الله عليه وسلم) : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[3] .

ولقد كان من تقدير الله تعالى لهذا الدين الخاتم أن تكون سيرة نبيه معروفة بدقائقها وتفصيلاتها ، ويمكن لمن يرجع إلى سنته وسيرته ، وإلى أخبار صحابته أن يستخلص له صورة جامعة يتعرف منها على أخلاقه وعاداته ، وحروبه ومعاهداته ،

---

(١) انظر مثلا : سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د / حسن إبراهيم حسن وآخرين . النهضة المصرية ط٣/ ١٩٧٠ ص٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ومريم جميلة : رحلتى من الكفر إلى الإيمان ، ترجمة د / محمد يحيى ، طبع المختار الإسلامى ١٩٨٥ ص١٤٠ ، ١٤١ ، ١٧٧ وما بعدها ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ وما بعدها .

(٢) راجع مثلا : العهد القديم فى مواطن كثيرة منها : المزامير ، مزمور ١٨ ، وأشعياء : اصحاح ٩ ، ١١ ، ٢١ ، ٤٢ ، ٥٢ . وملاخى : اصحاح ٤ ، وإنجيل متى اصحاح : ٣ إلخ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ١٤٨/٥ - ١٥٠ وصحيح البخارى . كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين ٤ / ١٦٢ ومسند أحمد ٤١١/٢ ، ٤١٢ .

ويعرف منهجه فى مواجهة الصعاب ، وطريقته فى بناء الأمة ، وتربية الرجال ، وقيادة الجيوش ، وحكمته فى القضاء والافتاء ، بل إنه ليستطيع أن يستحضر مشاهد حياته الأسرية ، التى كان لأمهات المؤمنين فضل تعريف الناس بها فى أمانة ودقة واستقصاء ، ولقد حَدَّثْن الناس عن أحزانه وأفراحه ، وعرَّفْوهم ما يتعلق بصحته ومرضه ، ورضاه وسخطه ، كما حدثوهم عن طعامه وشرابه ونومه وتطهره وتطيبه وأولاده وخَدَمه ومتاعه ، ووصفوا لهم معيشته الزاهدة القانتة ، وكشفوا عما كان يحدث بينهن - أحيانا - من غيرة طبيعية ، أو تنافس على نيل مودته والقرب منه . ويكتمل هذا كله مع ما جاء فى القرآن عن عتابا له ، أو ثناء عليه ، أو هداية وتعليما له ، ولهذا كله أصبحت حياته كتابا مفتوحا ليس فيه أسرار ولاغموض[١] .

ولم يتحقق مثل هذا الأمر - على هذا النحو - لغيره من الأنبياء حتى من كانت له منهم رسالة باقية ، وأتباع من بعده ، وعلى الرغم مما تضمنته التوراة من حديث عن موسى عليه السلام ، فإننا نجد فيها هذا القول : « فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب ، حسب قول الرب ... ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم »[٢] .

وينطبق ذلك على نبى الله عيسى عليه السلام ، فقد كانت المدة التى قضاها فى الدعوة إلى الله قليلة ، تعرض أثناءها لكثير من الاضطهاد والمطاردة ، ولم يؤمن بدعوته إلا قلة قليلة من الأتباع والحواريين ، ولذلك كان المعروف من حياته وأحواله أقل القليل ، حتى لقد وصل الأمر ببعض المدارس التاريخية الأوربية إلى الشك فى وجوده[٣] ، طبقا لمنهجها فى الشك المطلق فى مقررات العلم القديم ، ووقائع التاريخ

(١) ارجع مثلا إلى الشمائل المحمدية للترمذى ، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ، والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية ، وارجع كذلك إلى كتب الحديث بصفة عامة لا سيما فى الحديث عن شمائله ومناقبه صلى الله عليه وسلم . وانظر كتاب مريم جميلة الذى سبقت الإشارة إليه ص ٢٤٨ .

(٢) العهد القديم ، سفر التثنية ٣٤ / ٥ ، ٦ .

(٣) المسلم لا يشك فى وجود نبى الله عيسى عليه السلام ؛ لأنه يتلقى العلم بنبوته وأحواله من القرآن ، الذى حفظه الله بلا تحريف ولا تبديل . أما الكتب الأخرى فلا تقدم عنه إلا شيئا قليلا ، لا يستند إلى يقين .

المتواتر « فشك الدارسون فى وجودالأنبياء والمرسلين ، وكان الشك يتناول كل نبى وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام ، وقد شكوا فى بوذا ، كما شكوا فى إبراهيم موسى وعيسى ، وسرى الشك إلى الأدب ، فشكوا فى شخصية هو ميروس ، وفى شخصية شكسبير . وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة فى التاريخ أنها وجدت فعلا ، ولكنها لم تصنع ما نسبوه إليها ، ولم تكتب ما ينشر بأسمائها »(١) وقد كتب أحد أساتذة المسيحية الكبار ورئيس قسم تاريخ الأديان بجامعة باريس يقول : « ولا اعتقد أنه يمكن التشكيك فى وجوده (عيسى عليه السلام) ولكننا متى أثبتنا وجوده التاريخى فإننا بذلك نضع أنفسنا مباشرة فى تيه من التاريخ ، كله ظلمات وشكوك ، ولا أدل على ذلك من أن البحث الدقيق الذى دار فى السنوات الأخيرة على أساس من الوثائق الأصلية لم يثبت سوى استحالة تصوير حياة عيسى فى شيء من اليقين والتثبت ..... »(٢) .

أما حياة محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته وأحواله وأقواله وأعماله فهى معروفة معرفة تفصيلية ليس فوقها مزيد . وهذا يتفق مع كونه خاتم النبيين (٣) .

وبهذه الخصائص وأمثالها مما يمكن إضافته إليها يتحقق للإسلام وعقيدته ما لا يتحقق لسواه ، ويكون الإسلام هو الدين الكامل ، الذى لا يقاربه ولا يلحق به دين ، وصدق قول الله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » (المائدة : ٣) .

---

(١) انظر كتاب العقاد عن المسيح ص٨٥ ، ٨٦ . وقد ناقش هذا الاتجاه القائم على الشك ورد عليه فى الصفحات التالية إلى ص٩٣ .

(٢) شارل جنيبير ، المسيحية : نشأتها وتطورها (مرجع سابق) ص ٢٦ .

(٣) يقول مرسيا إلياد : إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) هو الوحيد من بين مؤسسى كل الأديان العالمية ، الذى تعرف سيرته الذاتية فى خطوطها الكبرى » . تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ، ترجمة عبد الهادى عباس ج٣/٧٣ .

وقوله : «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (آل عمران : ٨٥) وقوله صلى الله عليه وسلم فى بعض حديثه : « ... ولو كان (موسى) حيا وأدرك نبوتى لاتبعنى »[١] .

وقوله : والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار[٢] .

سابعا : حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة :

تمهيد : الإنسان - من وجهة النظر الدينية - كائن متدين ، وليس التدين - عنده - شيئا وافدا عليه من خارج فطرته ؛ بل إنه شىء كامن فيها . ويدل على هذا المعنى أدلة كثيرة . منها قول اله عز وجل :

- « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم : ٣٠) ، ومنها قول الرسول صلى اله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ... »[٣] .

وتستند هذه الفطرة الدينية إلى ما أودع الله تعالى فى النفس الإنسانية من مشاعر الإيمان به ، والتوحيد له . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

---

(١) سنن الدارمى ، باب ما يتقى من تفسير حديث النبى صلى الله عليه وسلم : وقول غيره عند قوله ١/١١٥ ، ١١٦ ورواه الإمام أحمد بلفظ ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى . انظر مسند أحمد ٣/٣٨٧ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ١/٣٦٧ ، وارجع إلى تفسير ابن كثير فى تفسير الآية ٨٢ من سورة آل عمران . ٢/٥٦ طبعة الشعب .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ٦/٢٠ وأورده مختصرا في كتاب القدر ٧/٢١١ وصحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كل مولود يولد على الفطرة ، ٥/٥١٢ - ٥١٥ . وقد ورد الحديث عند الترمذى بلفظ : كل مولود ... أبواب القدر ٣/٢٠٣ وكذا فى سنن أبى داود مع اختلاف يسير في كتاب السنة ، باب فى ذرارى المشركين ٤/٢٢٩ .

وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون » (الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣) وتوحى الآيتان بأن الخلائق كانت - فى هذا المشهد الغيبى - مؤهلة للسمع ، مستطيعة للفهم والاختيار ، وأنها أفصحت عن إيمانها بالله وتوحيدها له ، وقد جعل الله إقرارها هذا حجة عليها ، لا يصح لها أن تنكره أوتجحده ، لأنه إقرار قائم على الرضا . والإقرار سيد الأدلة كما يقولون .

وسواء أكان هذا الإشهاد والإقرار حقيقيا كما يرى بعض المفسرين ، أم إنه كان أمرا رمزيا كما يرى فريق آخر منهم(١) ، فإنه يدل على أن الإيمان والتدين فطرة فى النفس الإنسانية ، وأنها تخلق على هذا التدين الملائم لفطرتها ، الموافق لطبيعتها ، وهذا ما تؤكده الدراسات العلمية التى تثبت أن النفس الإنسانية لم تَخْل - فى تاريخها الطويل - من نوع من الإيمان ، الذى يهديها إلى الله ، وأن النفس لا تعرف ما يسمى بالفراغ العقدى ، « فالغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية . وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى ، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية ... والغريزة الدينية لا تختفى ، بل لا تضعف ولا تذبل إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة وعند قليل جدا من الأفراد(٢) .

---

(١) وردت أحاديث وآثار وأقوال للصحابة والتابعين ومن بعدهم فى بيان صورة هذا الإحضار والإشهاد والإقرار ، يمكن الرجوع إليها فى كتب التفسير كتفسير الطبرى وابن كثير والقرطبى والزمخشرى فى كتابه الكشاف ، وقد وردت هذه الأقوال عند تفسيرهم لآيتى ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة الأعراف ، كما يمكن الرجوع إلى بعض الكتب المعنية بمسائل العقيدة ومنها : كتاب الرد على الجهمية للحافظ بن منده والجزء الثامن من درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ، طبعة الشاويش ص٢٦٥ وما بعدها ط٦ .

(٢) د/ محمد عبد الله دراز : الدين ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، مطبعة السعادة ١٩٦٩ ص٨٤ .

وقد انتهى عدد من المفكرين المهتمين ببحث هذه المسألة إلى القول بأن الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها ، حتى إنه كما صح أن يُعَرَّف الإنسان بأنه كائن مفكر ، أو بأنه كائن مدنى بطبعه ، يسوغ لنا أن نعرف الإنسان بأنه كائن متدين بفطرته(١) وقد اضطر علماء الاجتماع إلى الإقرار بهذه الحقيقة لوجود الشواهد المتواترة التى تؤيدها وتؤكدها ، حتى لدى الإنسان البدائى الذى كان بعض العلماء يتصور خلوه من هذه النزعة الدينية ، لكنهم لاحظوا أنه ليس مستثنى من القاعدة العامة التي يمكن استخلاصها من تاريخ الأمم المتحضرة ، « ولقد أظهر علم الآثار - دائما - من بين الأطلال التى كشف عنها - بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية ، أيا كانت الشعائر ، وقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة فى العصر الحجرى ، إلى عهد المعابد الضخمة ، جنبا إلى جنب ، مع الفكرة الدينية ، التى طبعت قوانين الإنسان ، بل علومه »(٢) .

وقد قال شيشرون (٤٣ ق . م) إن كل البشر من جميع الجنسيات متفقون على أنه يوجد فى ضمائرهم اعتقاد فطرى بالنسبة لوجود الآلهة ، التى توجد آراء مختلفة فيما يتعلق بطبيعتها ، لكن لا يوجد شخص ينكر وجودها . وقد كتب بلو تارك ١٢٠م) على نحو أكثر بلاغة أيضا : « إذا عنيتم أنفسكم بالسفر عبر العالم فستجدون بلادا ومدنا دون أسوار ، ودون آداب ، ودون ملوك وبيوت وثروات وأموال ، ومسارح وملاعب ، ولكن لم يُرَ - مطلقا - ولن يُرَى مدينة بغير معابد ولا آلهة ، يلجأ المرء فيا إلى الصلوات والعظات والعرافة والقرابين ، من أجل أن يحصل على البركات والخيرات ، أو يحتمى بها من اللعنات والنكبات(٣) . ومما يؤكد هذا حالة القبائل

---

(١) السابق ص ١٠٠ .

(٢) مالك بن نبى ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨١ ص ٧٥ وانظر ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) Voir : J.V . Linden , W.T. Costello : Les fondements de la relgion . payot. Paris 1957 . PP 67, 68 .

البدائية التى هى ذات أهمية عالية ، حيث تظهر فيها العقيدة فى الله ، لا كشىء وليد للثقافة أو المجتمع المنظم ، لكن كثمرة للفطرة نفسها ، لطبيعتها الإنسانية(١) .

وهكذا امتزج الدين - بقوة - بحياة الإنسان على هذه الأرض ، إلى حد أنه يمكن القول بأنه بدأ عندما بدأ الإنسان نفسه(٢) .

والحاجة إلى العقيدة - إذن - حاجة فطرية أصيلة ، تدفع النفس إلى الاستجابة لها دون إحساس بالنفور أو الكراهية ، ويظل الأمر على هذا النحو ، مادامت النفس على فطرتها الأصلية ، التي هى - عند المؤمنين - أثر من آثار الميثاق الأول الذى أخذه الله - تعالى - على البشرية ، كما سبق القول .

ولكن الحاجة إلى العقيدة ليست منحصرة فى هذا الدافع الفطرى وحده ، بل إن هناك دوافع وأسبابا أخرى تقدم للإنسان حوافز للتدين ، بما تقدمه له من خيرات تتعلق بحياته وأخلاقه ، وخصائصه النفسية وأحواله الاجتماعية ، ونهضته الحضارية ، بحيث يجد العقل نفسه مدفوعا إلى التدين ، إن لم يكن بحكم الفطرة وحدها ، فبحكم هذا الخير الذي يتحقق له - فردا أو جماعة - من وراء التدين والاعتقاد الصحيح .

ويمكن الإشارة إلى بعض هذه الدوافع فيما يلى :

أولا : الجانب العلمى :

١ - من الأمور الهامة التى تمنحها العقيدة الصحيحة للإنسان أنها تعطيه تفسيرا لوجوده ، ولوجود الكون من حوله ، وهو تفسير لا يقع أسيرا للنظرة الجزئية ، ولا ينحصر فى إطار اللحظة الحاضرة ، ولا يقف عند ظواهر الأشياء ، وإنما هو تفسير يتسم بالشمول للماضى والمستقبل ، للمبدأ والمصير ، للظاهر وما وراءه من العلل والأسباب . وتختلف هذه النظرة المنبثقة من العقيدة عن تلك التفسيرات التى

(١) Ibid : P. 69.

(٢) Ibid P. 233 et voir p. 73

ويتفق هذا مع الاعتقاد الدينى بخلق الله لآدم أبى البشرية ، وأن الله علمه الأسماء كلها ، وخلقه على التوحيد والإيمان .

تسيطر على عقول الماديين الذين قالوا أو يقولون « ما هى إلا حياتنا نموت، نحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون » (الجاثية : ٢٤) . وقد وصف القرآن هؤلاء وأمثالهم بأنهم « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » (الروم : ٧) .

ولا يقف الدين حجر عثرة فى فهم ظواهر الوجود ، التي يكتفى بمعرفتها هؤلاء الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، ولكنه يوجه العقل إلى البحث عما وراءها ؛ لأن هذه الظواهر ليست هى السبب فى إحداث نفسها ، أو فى إضفاء طابع النظام الموجود فيها ، لأن المادة – فى النظرة العلمية التجريبية – موصوفة بالعجز عن فعل شىء لنفسها ، وإنما تتلقى التأثير من خارجها ، ولهذا يحث الدين العقل على فهم هذه الظواهر وكشف قوانينها ، ولكنه لا يتوقف عند هذا المستوى ، بل يربطها بقدرة الخالق – جل وعلا – وهكذا فالتفسير الدينى للكون « يتخطى الإدراك العلمي ، ويسمو عليه ، لأنه يوافق الفكرة العلمية ويحتويها ، بل ويتجاوزها إلى ما لا نهاية . فعندما يقف العلم عند تقرير وملاحظة الأسباب المتتالية ، ومراحلها الوسيطة فإن النظرة الميتافيزيقية (أو بالأحرى الدينية) لا تقف عند هذا الحد ، ولا تجد رضاها وإشباعها إلا بالصعود إلى بداية البدايات التى تفسر كل شىء ، ولا يستطيع شىء أن يفسرها تفسيرا كاملا . فالمتناهى يحتل ركنا صغيرا من اللا متناهي ، فلا تنبهر فوق الحد – إذن – عند رؤية العمل الإنسانى أو ظواهر الطبيعة مهما كانت عظمتها »[1] .

٢ – ولا يتصف التفسير الديني لوجود الإنسان بالشمول فحسب ، بل إنه – كذلك – هو المؤهل للإجابة عن تلك التساؤلات الجوهرية التى تفرض وجودها على الإنسان ، وتتطلب منه إجابة مقنعة لها ، ولا يستطيع الإنسان أن يتجاهل هذه الأسئلة ، لما لها من أهمية ترجع إلى أنها متصلة بجوهر وجوده ، وطبيعته ، ومصيره ، ومن ثم فإن الاشتغال بها ، والتفكير فيها ، ليس نوعا من الترف العقلى أو الرياضة الذهنية .

---

(١) د / محمد عبد الله دراز ، مدخل إلى القرآن الكريم ، ترجمة الأستاذ محمد عبد العظيم على . دار القلم ، الكويت ط٣/١٩٨١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

ومن هذه الأسئلة التساؤل الذى يطوف بالذهن عن العالم والإنسان : من أين جاءا ؟ ومن الذى خلقهما ؟ ومن الذي يحفظهما ويدبرهما ؟ وما هدفهما والغاية التي يسعيان إليها ؟ ثم كيف كانت بدايتهما ، وكيف ينتهيان ؟ ما الحياة ، ما الموت ؟ ما المستقبل الذي ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ « هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة »(١) ويمكن أن نضيف إلي ذلك عددا آخر من الأسئلة حول النفس البشرية وعلاقتها بالبدن ، وما المصير الذى تصير إليه بعد الموت ، وما مدى الحرية التي يتمتع بها الإنسان ، وهل هو مخير أو مصير ، إلى غير ذلك من الأسئلة التى فرضت نفسها على المفكرين والعلماء والفلاسفة ، منذ أقدم العصور ، وفى سائر الحضارات ، وقد حاول هؤلاء أن يجيبوا على هذه التساؤلات ، على قدر طاقتهم ، وجاءت إجاباتهم تحمل فى ثناياها ألوانا من قصور الفكر البشرى ، وعجزه عن الإحاطة الشاملة بالوجود فى سائر جوانبه .

٣ - العلم - وحده - لا يكفى :

أ - ومن مظاهر هذا العجز أن الإنسان يعجز فى نطاق العلم بمفهومه **التجريبى** عن تصور بداية الوجود ؛ لأنه لم يشهد تلك البداية ، ومن ثم فإن تصوراته حولها تمثل نوعا من " الاحتمال " الذي لا يرقى إلى اليقين « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا » (الكهف : ٥١) .

وينطبق هذا الحكم نفسه على ما يتعلق بالطرف الآخر للوجود ، حيث النهاية والمصير . وللإنسان رغبة فى فهم هذا المستقبل وكشف أسراره ، وكثيرا ما تكون دراسته للواقع أو الحاضر بهدف فهم المستقبل ، والقدرة على التنبؤ به ؛ لأن ذلك يمنحه مزيدا من اليقين والطمأنينة ، ويخلصه من القلق الذى ينشأ عن مواجهة الحياة دون فهم لمصيرها ، أو الوقوع نهبا للاحتمالات التى لا يستطيع ترجيح شيء منها ، وعلى

---

(١) د / دراز : الدين ص٨٤ وانظر ٨٥ . وكذا سانتلانا : المذاهب اليونانية الفلسفية فى العالم الإسلامى . نشر د/ محمد جلال شرف . دار النهضة العربية ببروت ١٩٨١ ص٢٩ .

الرغم من تلك الرغبة الملحّة فى معرفة مستقبل الوجود ، فإن الإنسان يعجز عن كشف أسراره ؛ لأنه غيب مجهول ، لا يستطيع معرفته أو الإحاطة به ، ولقد يعجز - فى كثير من الأحيان - عن كشف حجاب المستقبل القريب ، فكيف بالمستقبل البعيد الذى يستغرق الآماد والآباد ؟ ومن هنا كان اللجوء إلى الدين ضرورة ؛ لأن خالق هذا الوجود هو العليم به : نشأة ومصيرا ، وبداية ونهاية . « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » (الملك : ١٤) وليس مثل هذا العلم بعزيز على الله الذى يعلم الغيب والشهادة ، والحال والمآل « ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه » (هود : ١٢٣) .

ب - ومن الحق أن نقول : إن الإنسان إذا كان عاجزا عن الوصول إلى الحق فيما يتعلق ببداية الوجود ونهايته ، فإنه يعرف عن حاضر الوجود شيئا كثيرا ، وإن علمه به ليزداد يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة . وإنه ليكشف من مجاهيل الوجود وأسراره ما يزيده فهما له ، ومعرفة بقوانينه ، تسخيرا لها فى تحقيق مطالبه ، وإن نظرة إلى ما حققه الإنسان من الكشوف العلمية فى سائر مجالات الطبيعة فى العقود الأخيرة ليكشف عن ضخامة التطور العلمي ، وتقدمه المذهل . ولكن هذا التطور لا يكفى وحده للإجابة على تساؤلات الإنسان الجوهرية التى أشرنا إليها منذ قليل ؛ لأن سعة الكون وضخامته وتنوع الخلائق فيه ، وما يتجلى فيه من دلائل الإعجاز والإتقان . كل ذلك يجعل دائرة المجهول فى الوجود أعظم من دائرة المعلوم ، ويعبر "ول ديورانت" عن ذلك متسائلا : ما طبيعة العالم ؟ وما مادته ؟ وما صورته ؟ وما مكوناته وهيكله ؟ وما مواده الأولى وقوانينه ؟ وما المادة فى كيفها الباطن وفي جوهر وجودها الغامض ؟ وما العقل ؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها ؟ أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها ... إلخ[1] وهل وصل العقل إلى يقين يتعلق بنشأة الحياة

(١) ول ديورانت : مباهج الفلسفة ، ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهوانى . ص ٢٣ ، ٢٤ ، وانظر - كذلك - برتراند رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة د/ زكي نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٧٨/٣ جـ٤/١، ٥٠ .

الأولى ، أو بسريان الحياة فى الجماد ، وما السر فى هذه الكثرة فى تنوع الكائنات ، وما فيها من نظام وجمال . ثم كيف يعمل العقل ؟ وكيف يقوم بتخزين المعلومات ، واستحضارها وكيف يقوم بعملية تجريد المعنويات والكليات من الظواهر المادية ؟ وكيف يتوصل إلى الابتكار واكتشاف القوانين وإبداع الأفكار والفنون ؟ إن ذلك كله وما يماثله يظل فى نطاق المجهول ، الذى يسعى الإنسان سعيا حثيثا إلى كشف أسراره ، وقد يتكشف له شيء من ذلك أو كثير منه ، ولكن سيظل هناك الكثير الذي لا يستطيع معرفة حقائقه ؛ لأن علمه نسبى محدود « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (الإسراء : ٨٥) .

جـ - ويدلنا العلم نفسه علي ما يتصف به من نسبية ، حيث يعد التطور سمة من سماته ، وفى هذا التطور تتم مراجعة النتائج والنظريات والأفكار السابقة ، كما يتم العدول عما يكشف العلم عن قصوره أو خطئه . ومن الأمثلة الدالة علي ذلك ما يقوله ديورانت متسائلا : إلى أى نجم بعيد ذهبت نظرية السديم ، وقوانين نيوتن التي قلبتها قوانين اينشتين فى النسبية ؟ وأين نظرية بقاء الطاقة وعدم فنائها فى الطبيعيات الحديثة ؟ وأين اقليدس من الرياضيين المحدثين الذين يصوغون الرياضيات ، ويتحدثون عن نهائيات لا ؟؟ وأين علم الأجنة وقوانين التطور ؟ وأين دارون ؟ ... إلخ ثم يقول : فماذا أصاب علومنا ؟ هل فقدت - فجأة - قداستها وما فيها من حقائق أزلية ؟ أيمكن أن تكون قوانين الطبيعة ليست سوى فروض إنسانية ؟ ألم يعد هناك يقين أو استقرار فى العلم ؟ » [1] .

د - وتكشف هذه التساؤلات عن مدى الحيرة التى يقع الإنسان فيها بسبب هذه التطورات المتلاحقة التى تصيب الإنسان بالدوار ، وتجعله يبحث عن مستقر آمن ، يجد فى حماه السكينة والأمن ، خاصة وأن العلم - في بعض الأحيان - قد يثير بعض المشكلات ثم لا يتصدى لتقديم حلول لها ، مكتفيا بأنه يوجِّه الأنظار إليها ، تاركا

(١) ديورانت : المرجع السابق ص ٢٤ .

المجال مفتوحا لمن يستطيع تقديم هذه الحلول . ولذلك وجدنا بعض المفكرين وفلاسفة الحضارة يحذرون من الإعراض عن الدين ، اكتفاء بما يحققه العلم من تقدم وها هو المؤرخ الكبير توينبى يقول « ... وإذا كان العلم قد انتصر على الدين فى البلاد المتحضرة انتصارا ساحقا فإن هذا الانتصار يعتبر كارثة ، لا على الدين وحده ، ولكن على العلم كذلك ، فإن كلا من الدين (التدين) والعقل ملكة جوهرية من ملكات الطبيعة البشرية ... لقد أثار العلم الحديث قضايا معنوية بالغة الأهمية ، لكنه لم يشارك فى إيجاد حلول لها ، وما كان فى وسعه أن يفعل ذلك »[1] .

ومن المفكرين الأوربيين من أعلن عن مخاوفه من أن هذه الثورة العلمية التى تعيشها أوروبا ستجعل الإنسان مجردا عن الأخلاق التى هى وثيقة الصلة بالدين . وعندئذ سيكون خطرا على نفسه وعلى البشرية ؛ لأنه يملك قوة أسطورية لا يعرف ما يفعل بها ، بعد أن أصيب بالشلل من أثر الضياع ، وفقدان الأمان ، تخلخل القيم . ويتساءل هؤلاء فى فزع : من يدري ، أين سينجذب هذا العالم الغريب الجديد ؟[2]
وليس معنى ذلك عند هؤلاء الفلاسفة والمفكرين أن العلم ضار فى ذاته ، أو أنه لا فائدة تتحقق من ورائه ، وأن على الناس أن يصرفوا أنظارهم عنه ، ويجعلوه وراء ظهورهم . إن هذا المعنى غير مراد ، بل إنه غير ممكن ، بسبب الإنجازات العلمية الكثيرة التى تؤدى إلى تيسير الحياة ، ومقاومة ما فيها من آلام ، وإنما المراد أن العلم محتاج فى حركته المندفعة إلى التقدم إلى ضوابط من القيم المعنوية والأخلاقية التى تضبط اتجاهه ، وتقوم مساره ، وتمنعه من أن يكون سبيلا للإيذاء ، كما هو الشأن فى

---

(١) فؤاد محمد شبل : توينبى مبتدع المنهج التاريخي الحديث الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١، ١٩٧٥/ ص ٥١ ، ٥٢ ويمكن الإشارة هنا إلى بحوث الهندسة الوراثية والاستنساخ ونحو ذلك من البحوث التى تتطور تطورا هائلا وتثير مشكلات قانونية وأخلاقية ليس فى مستطاع العلم أن يقوم بحلها .

(٢) فرانكلين - ل - باومر : الفكر الأوروبى الحديث ، ترجمة د/أحمد حمدى محمود . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ جـ٤ / ٧ ، ٨ .

أسلحة الحرب المهلكة من نووية وكيماوية وميكروبية إلى غير ذلك من أدوات تخريب الحضارة وتدميرها . وهنا يأتي دور الدين الذى لا يعلو عليه شيء فيما يقدمه من ضوابط ومعايير أخلاقية هادية .

ثانيا - فى نطاق الفلسفة :

وإذا كان العلم - نتيجة لما سبق - لا يستطيع - وحده - أن يمنح الإنسان ما هو محتاج إليه من يقين وسكينة ، ومعرفة محيطة شاملة ، فإن الفلسفة ليست أفضل منه حالا فى هذا الشأن ، مع جهودها الدائبة لارتياد آفاق ومجالات لا يستطيع العلم - بسبب منهجه - أن يصل إليها ، ومنها مجال الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة ، وهو مجال تسعى الفلسفة منذ قديم إلى دراسته ومعرفته ، وقد رفعته بين علومها إلى الدرجة العليا ، كما نجد ذلك لدى أفلاطون وأرسطو ومن سار على نهجهما من الفلاسفة قديما وحديثا .

ولكن الفلسفة - على الرغم من هذه الجهود والمحاولات ، وعلى الرغم مما وصلت إليه من آراء ونظريات - لا تصلح لكى تكون بديلا عن الدين .

أ - ذلك أن الفلسفة - بصفة عامة - لا تخلو - هى نفسها - من تأثير الدين ، حتى إنه ليمكن القول بأن الدين هو « أصل كل تفكير فلسفى ، بما فى ذلك الفكر الإغريقى ، فهو يزوده بمجموعة من الصور ، يختار من بينها تمثلا أوليا للكون . وهو يزود الفلسفة بمعنى اللامتناهى ، والعدل والظلم ، والفاني والخالد ، وهذه كلها معان تتجاوز مستوى الملاحظة الوضعية البسيطة »[1] .

ب - ثم إن الفلسفة - على الرغم مما تسعى إليه من تجريد وعموم وإطلاق تتجاوز به حدود الزمان والمكان - لا تستطيع أن تتخلص من آثار البيئة والظروف التى تحيط بأصحابها ، والفلاسفة كما يقول برتراند رسل : « نتائج وأسباب في آن معا : هم نتائج للظروف الاجتماعية ، ولما يسود عصورهم من سياسة ونظم اجتماعية ،

---

(١) فؤاد كامل : مدخل إلى فلسفة الدين . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ ص ١٦ ، ١٧ .

وهم كذلك أسباب (إن أسعفهم الحظ) لما يسود العصور التالية من عقائد تشكل السياسة والنظم الاجتماعية » ولذلك حاول رسل أن يعرض كل فيلسوف « باعتباره رجلا تبلورت فيه وتركزت أفكار ومشاعر كانت شائعة على نحو مبهم مبعثر ، فى المجتمع الذي كان هذا الفيلسوف أحد أعضائه »(١) ، وليست الفلسفة - إذن - شيئا واحدا أو صورة واحدة ، بل إنها تختلف بحسب اختلاف ظروف نشأتها ، كما يدلنا على ذلك واقع الفلسفة فى عصرنا الحاضر ، أو فى تاريخها القديم .

جـ - ثم تختلف الفلسفة - كذلك - بحسب المنهج الذي تقوم عليه ، وهو منهج ينبغى أن يقوم على النقد والفحص ، والتمحيص لكل معرفة سابقة ، حيث لا توجد فى الفلسفة مُسَلّمات أو آراء تتصف بالقداسة أو بأنها فوق النقد . ويترتب علي ذلك كثرة الآراء ، واختلافها ، بل وتعارضها ، وليس فى الفلسفة ما يمنع من ذلك ما دام كل صاحب رأى يقيم الدليل علي صحته ، ويسعى إلى أن يكون بناؤه الفلسفى منطقيا خاليا من التناقض . ولا حرج على الفيلسوف إذا خالف الآخرين أو خالفوه ، وإنما يتأتى الحرج وتحدث المشقة لمن يقرأ هذه الفلسفات ، حيث يصطدم بما فيها من اتجاهات متعارضة ، وأدلة متناقضة . فهذا فيلسوف يرى إمكان المعرفة ، وذاك يرى استحالتها ، وهذا فيلسوف مثالى ، وذاك مادى أو واقعى ، وهذا يؤمن بالحرية الفردية ، وذاك تتغلب لديه النزعة الاجتماعية ، وهذا يؤمن بالقيم الأخلاقية المطلقة ، وذاك يؤمن بمذهب المنفعة أو بغيرها من المذاهب النسبية . وهكذا وهكذا .. ويحس القارىء - نتيجة لذلك - بالحيرة العقلية إزاء ما يختاره أو يرفضه ، وقد تدفعه تلك الحيرة إلى أن ينفض يديه من الفلسفة كلها ، وأن يتجه إلى البحث عن بديل لها ، يجد فيه السكينة واليقين ، بسبب ما يتصف به من سمو وعصمة وكمال . وهذا لا يتحقق للنظم البشرية ، التي تعكس ضعف البشر ، ومعارفهم القاصرة ، ثم لا تخلو - مع ذلك - من ملاحظة المصالح الخاصة بأمة أو جنس أو طبقة أو طائفة ، على نحو

---

(١) رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، مرجع سابق ٢/١ .

يدفعها إلى التحيز والعصبية والهوى . ولذلك تفقد سلطانها على النفس البشرية ، التى لا تحس إزاءها بالهيبة والخضوع والرضا ، بل إنها تحس أن بإمكانها أن تتفوق عليها أو أن تقوم بمراوغتها وخداعها . ومن أجل ذلك جعل الله عز وجل التشريع من خصائص الألوهية ؛ لأنه يصدر عن علم شامل محيط ، برىء من الهوى ، « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ... » (المؤمنون : ٧١) .

د - والفلسفة تتسم بأنها ذات طابع نظرى ، يبدو فيما يقوم به الفلاسفة من نشاط عقلى فى تحديد المشكلات الفلسفية ، وبذل الجهود للوصول إلي حلول لها ، وقد لا يتمكن الفيلسوف من ذلك ، بسبب صعوبة المشكلات أو تعقيدها . ويظل الأمر - في جملته - مقتصرا علي هذا النشاط العقلى ، الذى لا يلمس الإرادة الإنسانية ولا يحركها . ولذلك كانت الفلسفة - فى أكثر الأحيان - عاجزة عن التأثير والتغيير ، وهى لا تفعل ذلك إلا إذا تحولت - عند أصحابها - إلى عقيدة أو ايديولوجية . أما الدين فإنه قادر على مخاطبة عقل الإنسان ووجدانه ، والتأثير فى شعوره وإرادته ، ومن ثم فإنه قادر على تغيير فكره وسلوكه . وهذا واضح فى الحركات الدينية الكبرى ، التي استطاعت - على عكس الفلسفة - أن تغير الأفراد ، وأن تبدل الجماعات ، وأن تنقلها من حال إلي حال ، كما لاحظ المفكر الإسلامى الهندى محمد إقبال (ت ١٩٣٨ م)[1] .

ومعني ذلك أن العقل قد يقرأ الفلسفة لما فيها من ثقافة أو نسق فكرى يسبب له متعة ذهنية ، ولكنه - فيما يتعلق بالاعتقاد - محتاج إلى الدين ، الذى لا يغنى عنه شىء فيما يمنحه للإنسان من هدى ويقين .

هـ - وإنه لمن حسن الحظ أن نجد عددا كبيرا من كبار الفلاسفة يعترفون بأنه توجد مجالات لا يستطيع العقل أن يصل إلى حقائقها ؛ لأنها من مستوى فوق إدراكه ، فإذا حاول العقل اقتحام هذه المجالات فإنه لا يحصل من وراء محاولاته إلا على

---

(١) د / محمد إقبال . تجديد التفكير الدينى فى الإسلام . ترجمة الأستاذ / عباس محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط١٩٦٨ انظر ٢٠٧ ، ٢١٣ .

احتمالات وظنون ، ليس فيها يقين ، وها هو أفلاطون يجهد نفسه فى الحديث عن النفس وخلودها ، ثم يقول على لسان إحدى الشخصيات فى إحدى محاوراته الفلسفية « إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جدا فى هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ... ما دام لا سبيل لنا إلى مركب أمتن وآمن ، أعنى إلى وحى إلهى »(١) .

والفيلسوف الألمانى كانط (١٨٠٤م) - الذى يوصف بأنه أحدث فى ميدان الفكر ثورة كتلك الثورة التي قام بها كوبرنيق فى مجال العلم التجريبى حين اهتدى إلى نظرية دوران الكواكب حول الشمس - يقرر أن العقل عاجز عن إثبات الحقائق الغيبية ، وأنه غير قادر على البرهنة على إثبات وجود ما يتعالى على الخبرة الإنسانية . ومن الأمثلة التي يقدمها كانط لإثبات رأيه : الاستدلال على وجود الله تعالى وخلود النفس ، حيث يعجز العقل - فى رأيه - عن البرهنة النظرية على هاتين القضيتين ، وإن كان يضطر إلى التسليم بهما من الناحية العملية ؛ لأن ذلك هو السبيل إلى إقامة الأخلاق والالتزام بها (٢) ، وإذا كان العقل عاجزا عن مجرد الاستدلال فإنه - من باب أولى - عاجز عن تصور مالا يستطيع البرهنة عليه .

ويذكر الفيلسوف الألمانى " ماكس شيلر " أن حقيقة الذات الإلهية لا يمكن معرفتها بواسطة الميتافيزيقا ، التي يمكن أن تبرهن على وجود ذات تستمد وجودها من ذاتها ، وأن تثبت أنها السبب الأول لكل كائن حادث ، كما يمكن أن تبرهن على روحانيتها ولا نهائيتها ، وأن تعرف أنها هي الخير الأعلى ، وأنها الغاية النهائية للعالم ، لكن إدراك حقيقة هذه الذات و طبيعتها لن تكون ممكنة عن طريق الميتافيزيقا

---

(١) الأستاذ / يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٥ / ١٩٦٦ ص ٩١ .

(٢) كانط : نقد العقل العملى ، ترجمة الأستاذ / أحمد الشيبانى بيروت ط١/ ١٩٦٦ . انظر ص١٩ - ٢٣ . وانظر : د/ محمود زيدان : كانط وفلسفته النظرية . دار المعارف ط١٩٦٨ ص ٢٧٧ وما بعدها .

لأنها ستتوارى (وتتعالى) ضرورةً عن كل طريقة للمعرفة العقلية الفطرية من جانب الكائنات الفانية[1] .

ويتفق هذا الموقف الذى وقفه هؤلاء الفلاسفة الغربيون الكبار مع الموقف الذى نجده لدى بعض المفكرين والفلاسفة الإسلاميين الذين يصرحون بأن العقل لا يستطيع أن يدرك الحقيقة فيما يتعلق بوجود الله الذي ليس كمثله شيء ، وفيما يتعلق بأمور الآخرة التى هى من الغيب ، ثم إنه عاجز عن معرفة تفصيلات الأحكام الشرعية وأوجه نفع الطاعات ، وضرر المعاصى ، وهو عاجز - كذلك - عن معرفة ما يؤدى إلى السعادة الحقيقية الملائمة للنفس البشرية . وهذا كله " لا يدرك إلا بنور النبوة " كما يقول الغزالى[2] ويشـــاركه فى ذلك الفيلسوف الشهير ابن رشد (٥٩٥هـ) الذى يرى أن الشرع هو الوسيلة المثلى لمعرفة هذه الأمور التي يعجز العقل عن إدراكها . وقد أقر ابن رشد بأن " أصدق ما قال القوم (الفلاسفة) : أن للعقول حدًا تقف عنده ولا تتعداه " (٣) .

وعلى الرغم من الخصومة الفكرية التي كانت بين ابن رشد والغزالى بسبب موقف الغزالى من الفلاسفة ، وجدنا ابن رشد ينقل ما قاله الغزالي من أن " كل ما قصرت عن إدراكه العقول الإنسانية فواجب أن نرجع فيه إلى الشرع " ويعلق ابن رشد على ذلك قائلا : إن هذا قول حق ؛ لأن الوحى يأتى متمما لعلوم العقل بمعني " أن كل ما عجز عنه العقل أفاده الله تعالى للإنسان من قبَل الوحى[4] ورتب على هذا أنه يجب التسليم بمبادئ الشريعة وتصديق النبى الآتى بها ؛ لأن مبادئها " هى أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية "[5] .

---

(١) Voir Maurice Dupuy : La philosophie de la religion chez Max Sheler , P . U . F 1959 . P 161 .

(٢) أبو حامد الغزالى : فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ضمن القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى ، مكتبة الجندى ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٣) ابن رشد : تهافت التهافت .تحقيق د/سليمان دنيا . دار المعارف ط٢/١٩٧١ جـ٢/ ٥٣٤ .

(٤) تهافت التهافت ٤١٥/١ .

(٥) السابق ٧٩١/٢ ، ٥٩٢ . وانظر ٦٤٩/٢ ، ٦٥٠ .

وإذا كان الفلاسفة - وهم أكثر الناس اعتزازاً بالعقل ، واستنادا إليه - قد انتهوا إلى أن للعقل الإنسانى حدوداً يقف عندها ، وأنه محتاج في معرفتها إلى نور النبوة فإن ذلك يعد خير دليل على حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة التي يستضئ العقل بها ، جامعا بذلك بين نور العقل نور النبوة ، وكلاهما من فضل الله الذى أهداه إلى الإنسان « ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور » (النور : ٤٠) .

ثالثا : في المجال النفسي :

إذا كانت العقيدة الصحيحة هى التي تقدم للإنسان ذلك التفسير الصحيح الشامل للوجود الكونى والإنسانى - كما سبق القول - فإنها تؤثر - كذلك - فى النفس تأثيرا عميقا ، وتهيئها للتزود بعدد من الخصائص الإيجابية التى تؤثر فى نظرتها إلى الحياة ، وفى موقفها من الآخرين ، وفى سلوكها إزاء ما يعرض لها من أحداث ، أو ما يقع لها من ابتلاء .

وتتميز النفس المؤمنة - فى العادة - أو بحسب ما ينبغى أن يكون - بالسكينة والطمأنينة النفسية . وتبرأ - بسبب إيمانها - من الوقوع فى هاوية القلق والحيرة والإحساس بالشقاء . وسر ذلك أن الإيمان بالعقيدة الصحيحة يجعل النفس موصولة بالله تعالى ، خالق كل شىء ، وربه ومالكه والمهيمن عليه - « ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » (الأعراف : ٥٤) .

- « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ، الذى حرمها وله كل شىء ... » (النمل : ٩١) .

- « قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ... » (الأنعام : ١٦٤) .

- « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير » (آل عمران : ٢٦) .

- « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم » (يونس : ١٠٧) .

وتدل هذه الآيات وأمثالها على أن مصائر العباد وآجالهم وأقدارهم وأرزاقهم بيد الله وحده ، وأنه لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ، ولا معارض لقضائه . فإذا تحول العلم بذلك إلى يقين يخالط القلب ، ويمتزج بالشعور ، سكن القلب إلى حكم الله ، وأيقن أنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . ويورثه هذا الاعتقاد شعورا بالأمن والطمأنينة والرضا .

- « الذين آمنـــوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئـــــك لهم الأمن وهم مهتدون » (الأنعام : ٨٢) .

- « الذين آمنـــوا وتطمئن قلوبهم بذكر اللـــه ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : ٢٨) .

- « من عـمل صـالحا من ذكر أو أنثى وهو مـؤمن فلنحيـينَّهُ حيـاة طيبـة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (النحل : ٩٧) .

ويزداد هذا الشعور قوة وعمقا إذا استحضر المؤمن سعة الفضل الإلهى الذى يتولى به عباده المؤمنين المتقين ، فهو قريب منهم يسمع دعاءهم ، ويحقق رجاءهم ، ويرحم ضعفهم ، ويسوق إليهم من الخير ما يتألف قلوبهم ، ويُثَبِّتُ يقينهم ، ويفتح لهم من أبواب التوبة والرحمة ما يرد شاردهم ، ويؤمِّن خائفهم ، ويعفو عن مسيئهم ، ويقوى عزم طائعهم . ومما يدل على ذلك من القرآن قوله تعالى :

- « وإذا سألك عبادى عني فإنى قريب ... » (البقرة : ١٨٦) .

- « هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما ، تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما » (الأحزاب : ٤٣ ، ٤٤) .

- « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ... » (الآيات : غافر ٧ - ٩) إلى آيات أخرى كثيرة .

ومما يدل على ذلك من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : قوله فيما يرويه عن ربه : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو اغفر ، ومن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ، ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة ، لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة »(1) وكذاقوله فيما يرويه عن ربه : « إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ، ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته »(2) إلى أحاديث كثيرة تجرى هذا المجرى .

وهكذا يستظل المؤمن في حياته بظل عقيدته ، التي تجعل قلبه موصولا بالله تعالى ، بما يتصف به من علم محيط ، وإرادة شاملة ، وقدرة مطلقة ، وقَدَر نافذ ، ورحمة عامة جامعة ، فيحول الإيمان ضعفه إلى قوة ، وخوفه إلى أمن ، وحيرته إلى سكينة وهدى . ويكتسب من الخصائص النفسية ما يتطابق مع هذه العقيدة التى استقرت فى ضميره ، ويمكن الإشارة إلى شىء من ذلك فيما يلى :

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » ٨ / ١٧١ ، وأخرجه مسلم بأكثر من رواية فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٥ / ٥٤١ ، ٥٤٢ كما أورده بلفظ آخر فى كتاب التوبة ، باب فى الحض على التوبة والفرح بها ٥ / ٥٨٧ وانظر مسند أحمد فى مواطن كثيرة ٢ / ٤١٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٩ ، ٥٢٤ ، إلخ . وقراب الأرض أى ما يقارب ملء الأرض . وهي بضم القاف ، وحُكى كسرها .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق باب التواضع ٧ / ١٩٠ وانظر تخريجا أوفى له في تحقيقنا لمدارج السالكين لابن قيم الجوزية مطبعة دار الكتب ط ١ / ١٩٩٦ جـ ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٤ .

أ - يتعلم المؤمن الحق من عقيدته الصحيحة أن يكون عزيز النفس ، مرفوع الرأس ، في غير كبر ولا تجبر . محفوظ الكرامة ، في غير إحساس بالضعف أو الهوان أوالمذلة أمام الناس ، وإن كانوا أكثر منه مالا أو أشد قوة ؛ لأن الخلق - جميعا - عباد الله ، وهم فقراء إلى فضله ، محتاجون إلى رحمته ، ولئن اغتر بعضهم بما أمدهم الله تعالى به من الأسباب كالجاه أو القوة أو نحوهما فإنهم لا يملكون - فى حقيقة الأمر - لغيرهم بل لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يمنعون خيرا ولا رزقا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا . ولئن تناسي بعضهم ذلك أو نسيه فإن الله - عز وجل - يسوق إليهم من قضائه المباشر - أو من قضائه الذي يسوقه إليهم على أيدى عباده - ما يذكرهم بحقيقة ضعفهم وعجزهم ، حتي يتراجعوا عن غرورهم واستكبارهم ، وحتى لا ينخدع الناس بما أوتوا من مظاهر القوة العابرة الزائلة .

ويورث اليقين بهذا قلبَ المؤمن قوة معنوية ، وحصانة نفسية وصلابة في الحق ، وعزة إزاء الخلق ، لا تتحقق إلا لمن آمن بالعقيدة الصحيحة التي جاء بها أنبياء الله ورسله الكرام . وقد أورد القرآن الكريم من الأمثلة مايوضح هذه المعانى ، التى بلغت ذروتها العليا فى حياة الأنبياء عليهم السلام .

فهذا نوح - عليه السلام - يرسله الله إلى قومه فيدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ، ويحذرهم من الكفر به ، ولكن قومه لا يستجيبون له ، فيجتهد فى القيام بما أوجب الله عليه من دعوتهم إلى الإيمان ، ويتخذ - لذلك - كل وسيلة ممكنة . ويصور القرآن الكريم ذلك قائلا : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ... » (سورة نوح : الآيات : ٥ - ٩) .

ولما أيقن نوح أنهم لن يستجيبوا له قال لهم ، فى غير خوف ولا وجل : « يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مقامى ، وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم

وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون » (يونس : ٧١) ومعنى ذلك أنه يتحداهم ويطالبهم بأن يجمعوا كلمتهم ، ويوحدوا قوتهم ، ويبلغوا أقصى ما يستطيعون الوصول إليه من قوة وكيد وتدبير ، ثم يوجهوا ذلك كله إليه ، دون انتظار أو تأخير ، لأن هذا لن يرهبه أو يخيفه ، ولن يجعله يتراجع عما جاء به قومه من دعوة الحق ؛ لأنه متوكل على الله ، واثق من نصرته وحمايته . وهذا الموقف الشجاع الواثق إنما هو أثر من آثار الإيمان واليقين ، ولولا ذلك لأحس بالضعف إزاءهم ، ولآثر السلامة والمهادنة خوفًا من بطشهم وأذاهم .

وقد تكرر الموقف نفسه مع غيره من الأنبياء ، وكان موقفهم مع أقوامهم مثل موقفه : إصرارا على الحق ، وبراءة من الباطل ، واستكبارا عليه ، وإعلانا للتحق ، ونجد نماذج لذلك فى حديث القرآن الكريم عن هود ومحمد عليهما السلام(١) .

وإذا كان الأنبياء هم المثل الأعلى فى التحقق بمعانى الإيمان ، فإن الصالحين من أتباعهم ينالون نصيبا من هذه المعاني ، على قدر استحضارها فى القلب ، واستشعارها فى الضمير ، فكلما قوى الإيمان واليقين فى قلوبهم ، كانوا أكثر اتصافا بالقوة والعزة والصلابة والسيادة ، وليس هذا بغريب ، إذ يقول الله تعالى : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا »(فاطر : ١٠) وهو يثبت نصيبا منها لرسله والصالحين من عباده « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »(المنافقون : ٨) .

ومن الأمثلة لذلك ما ذكره القرآن الكريم عن السحرة من قوم فرعون ، حيث كانوا من رجاله وجنده ، وكانوا أداة فى يده ، يسخّرهم لبسط هيبته ، وإرهاب عدوه ، وكانت غاية ما تتطلع إليه نفوسهم أن يكونوا موضع رضا الفرعون عنهم ، أو أن ينالوا شيئا من عطاياه ، التى يستخرج بها أقصى مالديهم من المهارة ، وأعظم ما يمكن الوصول إليه من الخضوع والطاعة ، وجاء موسى - عليه السلام - يطلب إلى فرعون أن يرسل معه بنى اسرائيل ، وظن فرعون به جنونا ، فأظهر له موسى بعض ما آتاه الله

---

(١) ارجع الآيات ٥٢ - ٥٦ من سورة هود ، ١٩٤ - ١٩٦ من سورة الأعراف .

من الآيات الدالة على صدق نبوته . وخيل إلى فرعون أنها نوع من السحر الذى مهر فيه رجاله ، فدعاهم لمنازلته ومغالبته « فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إنْ كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم - إذا - لمن المقربين ، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ، فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فألقى السحرةُ ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون » (الشعراء : ٤١ - ٤٨) .

وجُنَّ جنون فرعون ، فهؤلاء هم جنوده الذين أعدهم لمثل هذا اليوم يخذلونه فى هذا الموقف العصيب ، ويزلزلون هيبته أمام جنده وشعبه الذى اجتمع فى يوم الزينة ليسعد بالنصر والظفر على موسى وأخيه ، فى مشهد ظنوا أن نتيجته مضمونة . وعندئذ صاح فرعون بالسحرة مهددا متوعدا ، مذكرا لهم ببطشه ونقمته « فلأقطِّعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » (طه : ٧١) .

وظن فرعون أن هذا التهديد المروع سوف يجعلهم يتراجعون ، ولم يكن قد أدرك - بعد - أن عنصرا جديدا قد طرأ على الموقف ، فأخرج هؤلاء السحرة من رهبتهم وعبوديتهم له ، إلى الإيمان بالله الذي يملك الآجال والأقدار ، والمصائر والعواقب ، ولذلك فوجئ بهم يحدثونه بلغة لم يكن قادرا على فهمها والاقتناع بها « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاضٍ ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلا » (طه : ٧٢ - ٧٥) .

- ولقد كان هذا العنصر الحاسم نفسه هو العنصر الذى أضيف إلى حياة العرب ، فانتقلوا - به - من حياة الجاهلية التى كانوا عليها إلى تلك الحياة الوضيئة المشرقة التي جاءت إليهم مع الإسلام . وقد كانوا قبله محصورين فى صحراء الجزيرة ،

لا يُعرف لهم علم ، ولا يُسمع لهم صوت ، ولا يُخشى لهم بأس . فلما جاء الإسلام قاوموه فى أول الأمر ، ولكنهم أذعنوا له من بعد ، وكان له من التأثير فى عقولهم وقلوبهم وسلوكهم ما جعلهم أمة ، كأنها خُلقت خلقا جديدا ، وعندما خرجوا للجهاد لم ترهبهم قوى الأمم من حولهم ، بسبب ما أودع الإيمان فى قلوبهم من رغبة فى الشهادة ، ويقين بضرورة تحقق وعد الله تعالى لهم بالنصر والفتح ، ولقد وجدنا من هؤلاء المجاهدين الأبرار من يمشى على بساط أكاسرة الفرس ، راكبا فرسه فى غير هيبة ولا وجل . وعندما يسأله هؤلاء عن سبب مجىء المسلمين إليهم يقول : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ... فمن قبل ذلك قبلنا منه ، ورجعنا عنه ... ومن أبى قاتلناه أبدا ، حتى نفضى إلى موعود الله . قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى ، والظفر لمن بقى »[1] .

وقد حاول رستم أن يغرى هؤلاء ببعض متاع الدنيا ، ظنا منه أنه سيؤدى إلى رجوعهم إلى بلادهم . ولكن قائلهم قال له : « أبعد أن أوْهَنَّا ملككم ، وضعَّفنا عزكم ... »[2] ولقد كان خصوم المسلمين يرون فى هذا المسلك نوعا من الغرور والجرأة « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » (الأنفال : ٤٩) .

ولم يكن الأمر كذلك فى حقيقة الأمر ، وإنما كان السبب في هذا هو تلك العقيدة التي زودتهم بزاد لا ينتهى من الثقة فى الله ، والتوكل عليه ، واليقين فى تحقق وعده « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » (العنكبوت : ٦٩) .

ب - وإذا كانت هذه الصفات التى يتخلق بها المؤمن ميراثا من مواريث العقيدة فإن من آثارها - كذلك - أن صاحب العقيدة يتصف بما يمكن أن نطلق عليه : التوازن النفسى ، إزاء ما يمكن أن يحل به من البلاء ، أو يعرض له من تصاريف القدر .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٢٠ .

(٢) تاريخ ابن كثير ٧ / ٤٠ ، ٤١ .

فالمؤمن واثق من عدل الله تعالى وحكمته ، مطمئن إلى إحسانه وعنايته ، راض بقضائه وقدره ، حتى ولو كان بعض هذا القضاء يأتي على غير ما كان يرجوه أو يتوقعه ؛ لأنه يعلم أن قضاء الله له خير من قضائه لنفسه ؛ لأن قضاء الله يرجع إلى علمه ، الذى يحيط بالعواقب والخواتيم ، ويستعلى على الزمان والمكان ، ويرتبط بالخير الخالص الذى لا يخالطه الهوى . لذلك كان الإيمان به والتسليم له من أصول العقيدة « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة : ٢١٦) .

ويعلمه الإيمان أن الإنسان الذى حمل الأمانة التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها قد عرّض نفسه - بذلك - للابتلاء الذى تصح معه المسئولية ، وتثبت به الجدارة ، وأنه ليس مبتلى بالشر - وحده - كما قد يتوهم البعض ، ولكنه مبتلى بالخير والشر « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا تُرجعون »(الأنبياء : ٣٥) .

وأنه مسئول عن مسلكه فيما يبتلى به ، فإن كان خيرا أدى ما يتطلبه الخير من شكر الله على نعمته ، فيكون - عندئذ - خيرا خالصا لا يناله من ورائه سوء ، كالكبر أو البطر أو الاستعلاء أو الجحود ، وإن كان ما نزل به على غير مراده فإن إيمانه بحكمة الله وعدله وحسن مثوبته يدفعه إلى الصبر فى غير سخط ولا جزع ، مذكرا نفسه بنعم الله الأخرى التي يتعذر احصاؤها واستقصاؤها ، وبما كان يمكن أن يحل به من ضروب البلاء التى لا طاقة له على احتمالها ، موجها قلبه إلى آثار رحمة الله التي تتجلى على عباده حينا بعد حين ، فتزيل كروبهم ، وتكشف همومهم ، ومن ثم يكون البلاء سبيلا إلى مزيد من الخير ، ويكون الصبر عليه بابا من أبواب الطاعة ، يؤدى إلى تكفير الذنوب ، أو زيادة الحسنات ، أو رفع الدرجات عند الله تعالى ، ويصدق عليه - عندئذ - ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن إصابته سراء شكر ، وكان ذلك خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له (١) .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الزهد ٨٤٤/٥ والدارمى فى كتاب الرقاق ، باب : المؤمن يؤجر فى كل شيء ٣١٨/٢ ومسند أحمد (مختصرا) ٢٤/٥ . وراجع الحديث عن مقام الصبر والرضا فى كتاب : قوت القلوب لأبى طالب المكى ، وإحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى .

فإذا تسلح المؤمن بمقتضيات الإيمان في مواجهة الابتلاء ، خيرا أو شرا ، كان له من إيمانه عصمة من غرور النعمة والزهو والكبر بها ، وكان له - كذلك - نجاة من الجزع والسخط والكمد الذي يقهر النفس بسبب ما ينزل بها من الضر والمكروه ، واتصفت النفس بالثبات والتوازن عند نزول البلاء « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » (الحديد : ٢٢ ، ٢٣) .

جـ - وليس من صفات مثل هذه النفس المؤمنة بالله وقدره أن تقع فريسة للتشاؤم أو اليأس ، الذى يشل القوى ، ويبدد الطاقة النفسية ، ولكنها تتجه نحو الرجاء والأمل ، الذى يجدد العزم ويقوى الإرادة ، وليس هذا الرجاء نوعا من الوهم الكاذب ، أو الخيال الذى يتعذر تحقيقه ، وإنما هو اعتصام بما يستوجبه الإيمان من ثقة بالله ، الذي ترتبط بمشيئته الأسباب ، واستمساك بما يترتب على ذلك من صبر وجلد وكفاح .

وقد تضمن القصص القرآنى ما يدل على أن القنوط واليأس يتعارضان مع مقتضيات الإيمان ، وجاء ذلك فى حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام ، حينما بشرته الملائكة بغلام عليم ، وتعجب إبراهيم وزوجه لهذه البشارة التى لا تدخل فى نطاق الأسباب المعتادة ، حتى إن امرأته قالت : « يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟؟ إن هذا لشىء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله ... » (هود: ٧٢ ، ٧٣) وعندما أفصح إبراهيم عن عجبه الذى يكاد يصل إلى حد الاستنكار ، قالت له الملائكة : « ... بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين » فرد عليهم قائلا : « ... ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » (الحجر : ٥٥ ، ٥٦) .

وتكررمثل هذا الأمر فى الحديث عن يعقوب - عليه السلام - وبنيه الذين كادوا لأخيهم يوسف ، وحسدوه على حب أبيه له ، وتآمروا على إبعاده عنه ، وكانوا سببا فيما تعرض له يعقوب ويوسف من ألوان البلاء ، وهو بلاء تطاول عليه العهد ،

وتراكمت فيه المحن ، وتضاعفت فيه الآلام وتنوعت ، وكان من شأن ذلك كله أن يتسلل اليأس إلى قلب يعقوب ، لولا ما امتلأ به قلبه من رحابة الأمل ، وانفساح الرجاء ، ولهذا وجدناه يقول لأبنائه الذين كانوا من أسباب محنته « فصبر جميل . عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم ، وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ، قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ، قال : إنما أشكو بثي وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (يوسف : ٨٣ - ٨٧) .

وقد ظل يعقوب مستمسكا بما يقتضيه الإيمان من صبر وأمل إلى أن حقق الله رجاءه ، وجمعه بأبنائه على خير ما يرجوه لهم ، من رفعة ومكانة وجاه عظيم .

- وتحدثنا كتب السيرة عن نماذج لهذا الأمل الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم - يبثه فى قلوب الصحابة ، على الرغم مما كان يحيط بهم - فى بعض الأحيان - من شدائد وأهوال . ومن أبلغ الأمثلة على ذلك ما وقع فى غزوة الأحزاب التى اجتمعت فيها كلمة المشركين والمنافقين واليهود على حرب المسلمين ، وأحاط هؤلاء بالمسلمين من كل جانب ، وأحدث الحصار - فى البداية - أثرا شديدا فى نفوس المحاصرين حتي ليقول القرآن : « إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » (الأحزاب : ١٠ ، ١١) وفى ظلمة المحنة ، وهول الحصار كان الرجاء فى كشف هذه الغمة يجد طريقه إلى قلوب المؤمنين ، ليمنحها السكينة والصبر على البلاء ، والعزم على الثبات والجهاد ، بل إن الرجاء قد امتد ليتحول إلى بشارة بالنصر والفتح المبين ، الذى تكون به كلمة الله هى العليا ، ويخرج الإسلام به إلى خارج شبه الجزيرة العربية . وفى ذلك يقول سلمان الفارسى - الذى أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق - « ضربْتُ في ناحية من الخندق ، فغلظت عليَّ صخرة ،

ورسول الله قريب منى ، فلما رآنى أضرب ، ورأى شدة المكان علىَّ ، نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى . قال (سلمان) : قلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أوقد رأيت ذلك يا سلمان ؟ قلت : نعم ، قال : أما الأولى فإن الله فتح علىَّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح بها علىَّ الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علىَّ بها المشرق »[1] . واستعاد المحاصرون سكينتهم ورباطة جأشهم ، وتذكروا ما تعلموه من أنهم سيبتلون فى أموالهم وأنفسهم ، وأنهم سيلاقون من أهل الكتاب والمشركين أذى كثيرا ، وليس فى الأمر - إذن - غرابة ولا مفاجأة : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » (الأحزاب : ٢٢) . ثم توالت الأحداث بما يحقق هذه البشارات ، على النحو الذى تضمنته الآيات التالية (٢٥ - ٢٧) .

وهكذا يقترن الإيمان بالتفاؤل ، والرجاء فى فضل الله ، ويكون اليأس والقنوط قرينا للكفر ، « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم » (العنكبوت : ٢٣) .

وتتضح المفارقة بين هذه المشاعر والصفات التي يستمدها الإنسان من عقيدته ، وبين المشاعر التى يعانى منها بعض أتباع المذاهب الإلحادية . وهى مذاهب تنظر إلى الإنسان إلى أنه قد قُذف به إلى الوجودقذفا ، ودُفع به إلى الكون دفعا ، وعليه أن يواجه الطبيعة مجردا من كل سند روحى ، فليس لديه إيمان بوجود إله رحيم ، يحفظه ويرعاه ويسانده ، وليس لديه إيمان بخلود يمنحه جرعة من الأمل الذى يساعده على تحمل أعباء الحياة ومشقاتها . ولهذا يحس مثل هذا الملحد بالضآلة والعجز والقهر ، والاغتراب ، ويعيش مفعما بالتشاؤم واليأس ، حيث يحيط العدم من حوله بكل شىء

(١) سيرة ابن هشام ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين ، طبعة الحلبى ط١٩٥٥/٢ ج٢١٩/٢ .

وحيث يفتقد الوجود فى جملته غاية يسعى إليها ، وفى ذلك يقول بعض فلاسفة الوجودية « إن تجربة القلق تفضى بنا إلى أن نشعر بأنفسنا ، وأننا هنا فى العالم مهجورون دون سند أو معين ، لقد ألقينا فى هذا العالم دون أن نعرف لذلك سببا . وهنا توكيد من التوكيدات الرسمية فى فلسفة الوجود ، فنحن موجودون ، دون أن نعثر على سبب لوجودنا ... ووجود هذا الكائن الذى قذف به إلى هذا العالم وهو الإنسان هو فى الوقت نفسه وبالضرورة كائن فان ، فهو وجود من أجل الموت ... فنحن - إذن - فى زمن متناه محدود ، وهذا يفسر الطابع الفاجع للهم »[1] ولهذا يوصف الإنسان عندهم بأنه موجود فى عالم يحده الموت ، ويغمره القلق بل إن « الإنسان يعى نفسه كمخلوق يحيا أصلا فى القلق ، وأنه منسحق تحت وطأة وحدته ، داخل أفق زمانيته »[2] والفرق واضح بين النظرتين والموقفين ، وهو فرق ليس بالهين ، بل إنه يتعلق بصميم الحياة وجوهرها .

وهذا معنى من معانى الدين ، تكتسب به النفس رحابة الوجود وفسحة الأمل ، وتتزود منه بقدرة متجددة على مواجهة الحياة واحتمالها ، ولهذا المعني - ولغيره من المعانى - كان الدين جديرا بالانتماء إليه ، والحرص عليه .

رابعا : فى المجال الأخلاقى :

للعقيدة أثر لا يمكن تجاهله فى مجال الأخلاق ، حيث تقدم إلى أتباعها جملة من القيم الأخلاقية ، التى تطالبهم بالالتزام بها ، وتحذرهم من الإهمال لها ، وإذا أخذنا الإسلام مثلا فسوف نلاحظ أن ما دعا إليه من تشريعات ، وما أوصى به من وصايا يرتبط بالأخلاق ارتباطا وثيقا ، وينطبق هذا - كذلك - علي جانب العقيدة فيه ،

---

(١) جان فال : من تاريخ الوجودية ، ضمن نصوص مختارة ، ترجمة الأستاذ فؤاد كامل . الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١/١٩٨٧ ص١١ ، ١٢ .

(٢) جان فال وآخرين : ما هى الوجودية ، ترجمة د/ عبد المنعم حفنى مكتبة مدبولى ١٩٧٧ ص٤٥ وكان يعبر بقوله هذا عن فلسفة هايدجر وانظر - كذلك - جون ماكورى : الوجودية ، ترجمة د/ إمام عبد الفتاح إمام مراجعة د/ فؤاد زكريا ، طبع الكويت ١٩٨٢ ص٢٨٣ ، ٢٨٤ .

ويمكن القول بأن درجة الالتزام الأخلاقى تتناسب مع مكانة العقيدة فى نفس المؤمن : قوة وضعفا ، ويتضح ذلك التناسب والترابط فى كثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ومنها : -

- « من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » متفق عليه .

- « لا يومن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه .

- « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ... » متفق عليه .

وإذا كان الإيمان يدفع المؤمن إلى التخلق بهذه الأخلاق وأمثالها فإن التقصير فى التزام هذه الأخلاق يعود بالضرر على صاحبه حتى إنه ليخرجه من كمال الإيمان أو يدخله فى باب من أبواب النفاق ، ومن الأمثلة التى توضح هذا قوله تعالى :

- أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » (الماعون : ١- ٣) وقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

- « والله لا يؤمن (ثلاث مرات) قالوا من : قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » متفق عليه .

- « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » متفق عليه .

- « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » رواه أحمد[١] .

وقد لاحظ ابن خلدون هذا الارتباط بين درجة الإيمان ودرجة الأخلاق ، وأنه كلما تأصل الإيمان فى القلب تأصلت الأخلاق ، وأصبحت راسخة فى النفس ، بحيث يكون الانقياد لها والعمل بمقتضاها سهلا يسيرا . والسبب فى ذلك - عنده أن « حصول

---

(١) راجع فى تخريج هذه الأحاديث : الطبعة المحققة من رياض الصالحين للإمام شرف الدين النووى ، تحقيق وتخريج : عبد العزيز رباح ، أحمد يوسف الدقاق . نشر دار المأمون للتراث ، دمشق ١٩٨٢ صفحات ١٥٣ ، ١٢٣ ، ١١٥ ، ٣١٠ وانظر للحديث الأخير مسند أحمد ١٣٥/٣ ، ١٥٤ .

الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه (أى الإيمان) طرفة عين . قال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . وفى حديث هرقل ، لما سأل أبا سفيان بن حرب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم وأحواله ، فقال فى أصحابه : هل يرتد أحد منهم سخطا لدينه ؟ قال : لا . قال : وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت فى القلب عسر على النفس مخالفتها ، شأن الملكات إذا استقرت ، فإنها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة(١) .

وتتميز الأخلاق المنبثقة من العقيدة بمزايا عديدة ، من أهمها : أنها ترتكز على قاعدة راسخة من يقظة الضمير ، وصحوة الشعور ، بحيث تكون الرقابة على الفعل رقابة ذاتية داخلية ، وعندئذ يكون الإقبال على الفعل أو الامتناع عنه متفقا مع اتجاه القلب ، المحكوم بما تغرسه العقيدة فيه من مراقبة الله ، الذي يعلم السر والنجوى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ومن ثم لا يكون صاحبه مطالبا بإحسان الفعل فحسب ، بل بإحسان النية أيضا ؛ لأن الأعمال بالنيات ، وفى ظل هذا الاعتقاد لا يمتنع الإنسان عن الرذائل أو الآثار ، مراعاة لجانب الناس ، بل مراعاة لحق الربوبية ، وخوفا من مقام الرب - جل جلاله - ، وحذرا من عقابه . وهذا هو الذى يفسر لنا أن بعض الناس قد يقع فى الخطأ أو الخطيئة ، دون أن يطلع عليه أحد ، لكنه لا يحس راحة الضمير ، ولهذا يعترف على نفسه ، مع علمه بما يمكن أن ينزل به من عقاب شديد ، كما حدث لماعز والغامدية(٢) فى عهد الرسول صلى عليه وسلم ، ثم إن هذا هو الذى يفسر لنا أيضا اتجاه بعض الناس إلى فعل الخير فى سر ، بحيث لا يعرف الناس أسماءهم ، لأنهم يريدون لعلمهم أن يكون خالصا لله تعالى ، دون رياء أو سمعة ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ . والملكة تعنى الصفة الثابتة الراسخة فى النفس بحيث تدعو إلى الفعل الخقلى فى سهولة ويسر وانظر لقول أبى سفيان : صحيح البخارى . كتاب بدء الوحى ١/ ٤ - ٧ .

(٢) انظر : صحيح البخارى كتاب الحدود ، باب لا يرجم المجنون والمجنونة ٨/ ٢١ ، ٢٢ ، وباب الرجم بالمصلى ٨/ ٢ ، ٢٣ ، وانظر ٨/ ٢٤ ، ٢٥ وصحيح مسلم ، كتاب الحدود ، باب حد الزنا ٤/ ٢٧٢ - ٢٧٩ .

وهذا المستوى من الرقابة الداخلية لا يتحقق بالخضوع للقانون البشرى ؛ لأن احساس الإنسان بأن واضعه بشر مثله يوحى إليه بأن من الممكن التحايل عليه ، والالتفاف من حوله ، ولذلك يحتاج القانون البشرى إلى وسائل الردع والعقوبة الملموسة ، ليتسنى تحقيق قدر من الاحترام والهيبة له .

وإذا تأسست الأخلاق على مراقبة الله تعالى ، امتد أثرها إلى علاقة صاحبها بغيره من الناس ، فجاءت بعيدة عن إيذائهم ، وتمنى الشر لهم ؛ لأن ذلك يتنافى مع حقيقة الإيمان ، كما دلت على ذلك الأحاديث التي سقناها منذ قليل ، ومن ثم فإنها تقوم على قاعدة من العدالة والرحمة ، وترتفع - فى أفقها الأعلى - إلى الغيرية والإيثار ، وهو مستوى لا يكاد يتحقق إلا فى ظل العقيدة الصحيحة . ويؤدى هذا المستوى الأخلاقى الرفيع إلى قلة الجرائم - على اختلاف أنواعها - كما يؤدى إلى أن ينعم المجتمع الذى تسود فيه هذه الأخلاق بالأمن والطمأنينة ، « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (الأنعام : ٨٢) .

أما المجتمع الذى تضعف العقيدة فيه أو تنعدم فإنه يكون معرضا لأنواع من الجرائم النفسية والأخلاقية ، التي تؤرق أفراده ، وتنهك قواه ، وتفقده الاحساس بالأمن ، وفى مثل هذه المجتمعات تزداد نسبة القلق والاكتئاب النفسي ، والأمراض العقلية ، والانتحار ، والاغتصاب والطلاق والعدوان والجرائم ، وما أشبه ذلك من الأمراض النفسية والاجتماعية .

وقد ذهب بعض الباحثين الغربيين إلى أن التوسع المادى والتقلص الروحى والخروج عن الدين قد أوجد خطرا لا يقل أهمية عن الخطر الناشىء عن القنبلة الذرية . وقد أدى التنافس العنيف بين الدول ، والرعب والمذابح وغيرها إلى سيطرة الدهشة والاستغراب على الإنسان المعاصر ، كما دفعته إلى التساؤل عما إذا كانت قيمه الروحية وحياته يتهددهما خطر التدهور والزوال ، وكان ذلك سببا فى هذا الإحساس بالتشاؤم حول مصير أوروبا وتدهور حضارتها ، بسبب ضعف الوازع الدينى فيها[1] وتؤكد

---

(١) انظر : ل س ل ، شنايدر : العالم فى القرن العشرين ، ترجمة سعيد عبود السامرائى ، دار مكتبة الحياة ١٩٦ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

الإحصاءات هذه المخاوف التى تكاد تهوى بالحضارة الغربية ، وبغيرها إلى قاع سحيق .
وفي ذلك يقول أحد مفكريهم : لقد رجونا أن نداوى مصائب النوع الإنسانى بالكنوز المادية - لكن ذلك لم يتحقق ، بل تحقق العكس « فإن جرائم الفوضويين ، وإفلاس الملايين ، وانتحار الأسر بأجمعها ، والوساوس الآخذة فى الانتشار بين الناس ، والجنون ... وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار ، الذى عم أجناسنا ناشىء عن عدم وجود أصل يصلح لإحداث الوحدة والإخاء بين احتياجنا الدائم للعمل ، وبين عاطفة الحب فينا . لذلك تري ظلمات من الحسد والكمد آخذة فى الاسوداد كل يوم ، ملقية أطنابها على عالمنا » وينتهى مفكر آخر إلى القول بأن « من التناقض المؤلم البين أن نرى أن الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم ، ... وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسان فى الطبيعة ، بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالمية أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات »(١) .

ومن أجل ذلك ارتفعت أصوات كثير من المصلحين بالعودة إلى الإيمان ، الذى هو السبيل الأمثل لحل المشكلات الخلقية والعقلية ، التي يواجهها الإنسان . وقد رأى هؤلاء أن الخير فى المجتمع لن يتحقق إلا بأن تتجه التربية - منذ الطفولة - إلى أن تغرس فى نفوس الأطفال عقيدة الإيمان بالله ورقابته وهيمنته ؛ لأن ذلك سوف ينشئهم على العادات الطيبة الخيرة ، وبذلك يتجه المجتمع - فى جملته - نحو الأمن والسعادة(٢) .

وعلى الرغم من تلك التجربة المرة التى عاشتها أوروبا فى ظل تسلط الكنيسة الكاثوليكية قرونا عديدة ، جعلتها تتمرد على الكنيسة ، وما تمثله من دين - فإننا نجد من بين فلاسفة الحضارة فيها من ينادي بضرورة العودة إلى الدين ، يقول توينبى

---

(١) انظر : محمد فريد وجدى : الإنسان فى عصر العلم ، دار الكاتب العربى بيروت ط٣ / ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

(٢) هنرى لنك : العودة إلى الإيمان ، ترجمة د / ثروت عكاشة دار المعارف ط٣/١٩٦٤ ص ٨١ ، ٨٢ ، ١١٩ - ١٢١ .

بعد أن أشار إلى هذه الحقيقة « ولكنى أعتقد أن الكائنات البشرية لا تستطيع أن تعيش – قط – بدون دين ، وعندما تعترضك فترة متزمة – ونحن نعيش فى فترة متأزمة من الناحية الروحية . فإن الدين يواجهك ، وعليك أن تواجهه »[1] .

وهكذا يأتى الدين ، ليكون كما كان دائما طوق النجاة ، الذى تبحث عنه البشرية ، وهو رحمة الله إليها فى كل حين ، ولكنها قد تعرض عنه جهلا أو غرورا أو استكبارا ، ولكنها ما تلبث أن تحس أنها محتاجة إليه نتيجة لما تعانيه من حيرة وقلق واغتراب ، وإحساس بوحشة الوجود وكآبته . فإذا آبت إلى الدين وجدت في رحابه من نور الوحى ، وهدى النبوة ، وسكينة الإيمان ما يهديها سواء السبيل .

ولقد ظل هذا النور الإلهى المتمثل فى الوحى والنبوة يتجدد : عصرا بعد عصر ، إلى أن ختمه الله بالإسلام الذى أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وقد أكمل الله – تعالى – به الدين كله ، وجعله وارثا لما فى الرسالات كلها من الحق والخير والهدى ، ومصححا لما ألحقه البشر بها من التغيير والتبديل . ولهذا جعله الله تعالى خاتما ومهيمنا على الكتاب كله :

– « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ... » (المائدة : ٤٨) .

ورضيه لعباده كلهم دينا :

– « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » (المائدة : ٣) .

* * *

---

(١) محمد عبد الله الشفقى ، مع أرنولد توينبى . الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤ ص ٣٤ .

هذا ، وإذا كنا قد تناولنا فى هذا القسم من هذه الدراسة - بعض المسائل والقضايا المتصلة بالعقيدة ، من زوايا متعددة ، تتعلق بالمضمون ، والمصدر ، والمنهج ، والأهمية ونحو ذلك من المسائل ، فإننا - بمشيئة الله تعالى - سننتقل - فى القسم الثانى - لدراسة أصول العقيدة الإسلامية ، متبعين فى ترتيبها ما جاء فى قوله تعالى فى آية البر : « ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ... » (البقرة : ١٧٧) .

القسم الثانى

فى أصول العقيدة الإسلامية

تمهيـــــد :

الإيمان بالله تعالى هو أصل العقيدة ومحورها ، وهو أساس لغيره من عقائد الدين كالإيمان باليوم الآخر والكتب الإلهية والنبوة ونحوها ، ثم هو أصل للالتزام بما جاء فى الدين من العبادات والأخلاق والأحكام ، ولذلك كان من الضرورى أن تنال هذه العقيدة الأساسية حظها من العناية والاهتمام ،حتى يكون الإيمان بها قائما على الفهم والاقتناع واليقين ، بعيدا عن الشك والأوهام والظنون . « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حَيَّ عن بينة » (الأنفال : ٤٢) .

وينظر الإسلام إلى الإيمان بالله تعالى على أنه أمر مستقر فى الفطرة الإنسانية ، وأنه أثر من آثار الميثاق الأول ، الذى انطبع فى أعماق النفس البشرية ، **ومن ثم** « فلست واجداً أحدا إلا وهو مقر بأن له صانعا ومدبرا ، وإن سمّاه بغير اسمه ، **أو عبد** شيئا دونه ليقربه منه عند نفسه ، أو وصفه بغير صفته .. فكل مولود فى العالم على ذلك العهد والإقرار ، وهى الحنيفية التى وقعت فى أول الخلق ، وجرت فى فِطَر العقـــول »[1] ولا يصح - إذن - أن يكون الإيمان بالله تعالى موضع شك ، بل إنه أمر ضرورى ما دامت فطرة الإنسان سليمة ، وهذا هو الذى عبر عنه الأنبيـــاء ، حين كذبهم قومهم « قالت رسلهم : أفى اللـــه شك ؟ فاطر السموات والأرض .. » (إبراهيم : ١٠) .

ولكن النفس الإنسانية قد تتعرض لأسباب نفسية أو اجتماعية أو تربوية تصرفها عن الاستجابة لمقتضى فطرتها غفلة أو جهلا . وهى محتاجة - فى مثل هذه الحالة - إلى ما يعيدها إلى الإيمان الموافق لطبيعتها ، وينقذها من الحيرة التى تعذبها وتؤرقها ، وقـــد يكفى - في بعض الأحيـــان والأحـــوال - أن يوضع أمـــامـــهـــا

---

(١) ابن قتيبة : (أبو محمد عبد الله بن مسلم ٢٧٦ هـ) تأويل مختلف الحديث ، نشر الأستاذ محمد زهرى البخارى . دار الجيل بيروت ١٩٧٣ ص ١٢٩ .

ما يذكّرها بخالقها وخالق الوجود من حولها ؛ لأن ذلك يوقظ هذه النفس من غفلتها ، أو يخرجها من جهالتها . ومن الآيات التى تتجه هذه الوجهة فى القرآن قوله تعالى :

– « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » (الأنعام : ٩٥) .

– « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم ، فاعبدوه . أفلا تذكرون ؟ » (يونس : ٣) .

– « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ... الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين » (غافر : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤) .

وهذه الآيات وأمثالها تنبه النفس إلى التأمل فى أحوالها وفى أحوال الوجود من حولها ، وتدفعها إلى البحث والتساؤل والنظر ، لأن ذلك سوف يقودها إلى الإيمان بالله تعالى ، إذا هى أحسنت الفهم ، وأذعنت للحق .

ولا يكتفى القرآن بآيات التذكير والتنبيه ، بل إنه يضيف إليها من البراهين والأدلة ما يواجه نزعة التمرد والكفر التي قد تنساق إليها بعض النفوس : جحودا وكبرا وعلوا ، وهى نزعة كثيرة الحدوث فى تاريخ البشرية ، ومن ثم لم يكن من الحكمة تجاهلها أو إهمالها ، خاصة وأن القرآن يقول : « وما أكثر الناس – ولو حرصت – بمؤمنين » (يوسف : ١٠٣) .

من خصائص الأدلة الشرعية :

ويمكن القول بأن أدلة القرآن والسنة تتميز عموما في هذه القضية وفى غيرها من

قضايا العقيدة بأنها أدلة سهلة واضحة ، بعيدة عن التعقيد والغموض ، خالية مما وقع فى كثير من أدلة الفلاسفة وعلماء الكلام من صعوبة ، جعلت فهمها حكرا على طائفة قليلة من الناس ، بسبب كونها مركبة من مقدمات طويلة ، ليست واضحة بذاتها ، بل إنها - هى نفسها - محتاجة إلى إقامة البرهان على صحتها ، قبل استخدامها فى الاستدلال(١) أما الأدلة الشرعية فقد كان ملاحظا فيها أنها لم تأت لفريق من الناس دون فريق ؛ لأن العقيدة أمر يُطالَب به البشر جميعا ، على اختلاف مستوياتهم العقلية والثقافية ، ومن ثم جاءت هذه الأدلة ملائمة لهم ، بحيث ينتفع كل منهم بها على حسب فهمه وفكره ، فالعامة يفهمونها إجمالا ، والخاصة يعرفون من أسرارها وحكمتها ما يتناسب مع عقولهم ، وقد أشاد بذلك علماء الإسلام ومفكروه ، ومن هؤلاء الفيلسوف أبو يوسف يعقوب الكندى أول من وصف بالفلسفة عند المسلمين ، وقد قارن بين المعرفة البشرية المعتادة ، وعلم الأنبياء عليهم السلام ، وأوضح أن الأولى تحتاج إلى تكلف ومعاناة فى طلبها ، ثم هى تتطلب زمانا طويلا ، وجهدا جهيدا فى تحصيلها ، وليس هذا هو شأن علوم الأنبياء التي ينالونها بفضل من الله تعالى ، دون جهد ولا طلب ولا زمان ، ثم وصف علمهم بالإيجاز والبيان والإحاطة بالمطلوب على نحو لا يتحقق للمعرفة البشرية .

وقد استدل لفكرته هذه بما تضمنته الآيات الأخيرة من سورة "يس" من أدلة على البعث والإيمان بالآخرة ، وبعد أن شرح هذه الأدلة واستخلص دلالاتها وخصائصها قال : " فأى بشر يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جل وتعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ؟ ... كَلّت عن مثل ذلك الألسن المنطقية ... وقصرت عن مثله نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية(٢) .

(١) يمكن أن نستحضر هنا دليل التناهى للكندى ، ودليل الجوهر الفرد ونحوه من الأدلة التى نجدها لدى المتكلمين . وانظر لهذه الفكرة : أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر للإمام أبى الحسن الأشعرى ، تحقيق د/ محمد السيد الجليند . مطبعة التقدم القاهرة ط١/١٩٨٧ ص٥٤ - ٥٨ .

(٢) رسائل الكندى جـ١ / ٣٧٦ .

ومن يرون مثل هذا الرأى الإمام أبو حامد الغزالى الذي وصف أدلة القرآن الكريم بأنها مثل الغذاء ، ينتفع به كل إنسان ، بل إنها كالماء فى انتفاع الخلق جميعا به : صغارا وكبارا ، ضعفاء وأقوياء[1] ويشاركه فى ذلك ابن رشد الذى أوضح « أن الطرق الشرعية إذا تؤملت وجدت فى الأكثر قد جمعت بين وصفين : أحدهما أن تكون يقينية ، والثانى أن تكون بسيطة غير مركبة ، أعنى قليلة المقدمات ، فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأول . ثم وصفها بأنها ملائمة لكل المستويات العقلية ، وأنها تحث العلماء على الاستزادة من العلم ؛ لأنهم يعرفون من الحقائق والمعارف ما لا يعرفه غيرهم ، وهذا يزيدهم علما بالله تعالى[2] .

ومن المنطقى - إذن - أن نعني بهذه الطرق والأدلة الشرعية ولا نقدم عليها غيرها من الأدلة ، خصوصا وأن هذه الأدلة الأخرى لا تساويها ، بل لا تقاربها فى الوضوح والبداهة ، وما تؤدى إليه من يقين .

وقد تضمن القرآن والسنة عددا من الأدلة ، من بينها الأدلة الآتية :

اولا - دليل الخلق [3] :

أ - تعد ظاهرة الخلق من الظواهر الملموسة للناس جميعا ، فالإنسان يدرك أنه قد أتي عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، وأنه خرج بعد ذلك إلى الوجود . وهو - إذن - مخلوق بعد عدم ، وهذا من الأمور البدهية التى لا ينازع فيها عاقل من العقلاء ، ولو ادعى إنسان أنه ذو حياة أبدية ، أو أنه ليس بمخلوق لعلم أنه كاذب في دعواه ، ولأيقن الناس جميعا أنه كاذب فيها ؛ لأنهم يشاهدون بدايته ونهايته . وتنطبق ظاهرة الخلق على ما يحيط بالإنسان من نبات وحيوان ، وجماد وظواهر طبيعية ، وكذلك تنطبق على ما يقع حوله من أحداث تتغير وتتبدل .

---

(١) أبو حامد الغزالى : إلجام العوام عند علم الكلام ، ضمن القصور العوالى ص ٢٦٦ .

(٢) ابن رشد : مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، ص ١٤٩ ، ١٥٥ .

(٣) سماه ابن رشد دليل الاختراع . راجع كتابه : مناهج الأدلة ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

ب - ولما كانت هذه الظاهرة على هذا المستوى من الوضوح والبداهة والعموم فإن القرآن الكريم قد وجه الأنظار إليها ، ولم يكن غريبا أن تكون صفة " الخلق " هى أول صفة ذكرها الله تعالى لنا من صفاته ، وجاء ذلك فى أول ما نزل من القرآن ، وذلك فى قوله تعالى :

- « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » (العلق : ١ ، ٢) .

ثم لم يكن غريبا أن تتكرر الإشارة إلى ظاهرة الخلق فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، لا يقتصر الحديث فيها على خلق الإنسان ، بل يتناول أنواعا كثيرة من الخلائق سواه . ومن هذه الآيات قوله تعالى :

- « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (مريم : ٦٧) .

- « فلينظر الإنسان ممَّ خُلق ، خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (الطارق : ٥ - ٧) .

- « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون » (يس : ٧١) .

- سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » (الأعلى ١ - ٥) .

- « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » (فاطر : ٢٧) .

- « أم خلقنا الملائكة إناثا وهو شاهدون ؟ » (الصافات : ١٥٠) .

- « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » (الحجر : ٢٧) .

- « وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر . كل فى فلك يسبحون » (الأنبياء : ٣٣) .

- « الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيرا » (الفرقان : ٥٩) .

- « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه » (الأنعام : ١٠٢) .

- « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » (النحل : ٨) .

- « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (يس : ٣٦) .

جـ - وإذا كانت ظاهرة الخلق على هذا النحو من الظهور والعموم فإن من شأنها أن تدفع العقل إلى التساؤل عن سبب وجودها ، خاصة وأن فكرة السببية من الأفكار المودعة فى الفطرة الإنسانية ، وهى تعنى أن كل فعل له فاعل ، وكل مخلوق له خالق . ومما يدل على وضوح هذه الفكرة وبداهتها أن الطفل الصغير قادر على إدراكها منذ سنوات عمره الأولى ، حتى « إن الصبى إذا رأى ضربة حصلت على رأسه قال : من ضربنى ... ويبكى حتى يعلم من ضربه ، وإذا قيل له : ما ضربك أحد ، أو هذه الضربة حصلت بنفسها ، من غير أن يفعلها أحد ، لم يقبل عقله ذلك »[1] .

وبمقتضى هذا القانون الفطرى يربط العقل بين المخلوقات وخالقها ، وبين الموجودات وموجدها ، فإذا غفل العقل عن هذا الربط جاءت إليه أدلة القرآن لتذكره بهذه الصلة ، ولتبين له أن المخلوقات لا تخلق نفسها ، بل إنها محتاجة - فى وجودها - إلى خالق أعلى ، له من صفات العظمة والكمال ما يجعله قادرا على أن يمنحها هذا الوجود .

ولعل من أظهر الأدلة التى ساقها القرآن فى هذا المقام ما جاء فى قوله تعالى :

- « أم خلقوا من غير شىء ؟ » .

- « أم هم الخالقون ؟ » .

---

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ٣٠٥/٨ وانظر معالم أصول الدين لفخر الدين الرازى ، مكتبة الكليات الأزهرية ص٢٩ وهو يذكر أن فكرة السببية مركوزة فى طباع الحيوان أيضا ، ويلجأ الإنسان إلى التفسير السببى حتى ولو كان الفاعل مجهولا لديه . فعندما تقع جريمة لا يعرف فاعلها تقيد الجريمة ضد مجهول . وهو ليس بمعدوم على كل حال . انظر عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ، دار الكتب الحديثة ١٩٦٥ ص٢١ ، ٢٢ وانظر كذلك : السببية في العلم د/ السيد نفادى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ص٩ وما بعدها ، ص ٦٦ . ونشأة الدين للنشار ١٨٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

- « أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون »[1] (الطور : ٣٥ ، ٣٦) .
وتتضمن هاتان الآيتان ثلاثة أسئلة :

السؤال الأول : أم خلقوا من غير شيء ؟ أي من غير خالق يخلقهم[2] والإجابة البدهية المنطقية إن الخلق من غير خالق أمر غير ممكن ؛ لأن كل مخلوق يحتاج إلي خالق ، وكل مسبب يقتضى سببا ، بناء على قانون السببية .

السؤال الثانى : أم هم الخالقون ؟ والإجابة البدهية هي أن الإنسان لا يخلق نفسه ؛ لأنه يولد ضعيفا جاهلا عاجزا ، محتاجا إلى غيره في طعامه وشرابه ورعايته فى سائر احتياجاته ، ومن دلائل هذه الحاجة أنه لا يختار أبويه ، ولا يحدد ميقات ولادته ، ولا يتحكم فيما يوجد فى جسده من الأعضاء التى لا دخل له فى أدائها لمهماتها . ثم إنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه عجزا ولا هرما ، ولا موتا ، ولو كان الإنسان هو الذى يتصف بالخلق لكان من البدهى أن يمنح نفسه الخلود ، وينطبق هذا العجز على الإنسان بصفة عامة ، ولذلك لا ينجو منه جد ولا أم ولا أب ولا أحد ، ومن ثم فليس الخالق هو الإنسان .

ويظل السؤال قائما : إذا كان كل مخلوق لابد له من خالق ، وهذا ما يقرره السؤال الأول ، ولم يكن هذا الخالق هو الإنسان ، وهذا ما يجاب به على السؤال الثانى ، فمن الخالق - إذن - ؟ .

وقبل أن يجيب القرآن على هذا السؤال ينقل القضية إلى مستوى آخر ، حتى

---

(١) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ، أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون . كاد قلبى أن يطير » صحيح البخارى : كتاب التفسير ، تفسير سورة والطور ٤٩/٦ ، ٥٠ وارجع إلى كتاب المنهاج فى شعب الإيمان لأبى عبد الله الحسين الحليمى ١٩٧٩/١ جـ٥٤٨/٢ .

(٢) قال ابن عباس : من غير رب خلقهم وقدرهم . انظر تفسير القرطبى لهذه الآية ، وقوت القلوب للمكى ١١٣/١ .

يغلق باب الجدال والمنازعة ، لأنه قد وجد من البشر من ادعى القدرة على الخلق ، ونسب لنفسه الإحياء والأمانة ، ومن هؤلاء هذا الذى حاج إبراهيم عليه السلام فى ربه ، بسبب ما أوتى من الملك والتمكين ، حتى وصل به الكبر والغرور إلى أن يدعى أنه يحيى ويميت ، مثلما يفعل رب إبراهيم وخالقه ، وهو رب العالمين ، ويقال(١) إنه أراد أن يثبت ذلك بصورة عملية فأتى برجل فقتله ، ثم أتى برجل فحكم عليه بالقتل ثم عفا عنه ، مدعيا أن هذا إحياء له ، وهذا خداع ظاهر ، ولذلك فاجأه إبراهيم بما يبطل ادعاءه ، ويظهر كذبه ، حين طلب منه أن يخالف القانون الطبيعى الذى أودعه الله فى الكون ، (... قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين) (البقرة ٢٥٨) .

وعلى هذا النسق نفسه نجد الآية الثانية هنا تتضمن السؤال الثالث الذي يتعلق بالكون : أم خلقوا السموات والأرض ؟ ولا يستطيع مدع - مهما كانت جرأته - أن يدعى أنه خلق السموات والأرض ، لأنهما أسبق من الإنسان وجودا ، والمتأخر لا يخلق المتقدم ، لأن السبب سابق على المسبب : وجودا أو رتبة ، ثم لأنهما أكبر من الإنسان خلقا ، ولذلك يحتاجان إلى علم وقدرة لا يستطيع أحد أن يزعم امتلاكهما ، وعلى الرغم من تقدم العلم وتطور أجهزته واكتشافاته ، فإن جزءا كبيرا من أسرار هذا الكون لم يكتشف بعد ، أى أنه ما يزال مجهولا للإنسان ، ولذلك لا يجرؤ أحد من البشر على أن يتطاول فيدعى أن له صلة بخلق السموات والأرض . والنتيجة التى يمكن استخلاصها من هذه الأسئلة هى أن الخلق فعل من أفعال الله تعالى ، ولا يصح نسبته إلى أحد سواه .

ولئن كانت هذه النتيجة لا تذكر صراحة في هاتين الآيتين فإنها تأتى فى آيات أخرى تتكامل معهما ، ومن هذه الآيات قوله تعالى :

- « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » ؟ (لقمان : ١١) .

---

(١) ارجع إلى كتب التفسير فى تفسير الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

- « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ؟ » (فاطر : ٤٠) .

- « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » (الرعد : ١٦) .

- « ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » (الأعراف : ٥٤) .

د - وقد أوضح القرآن الكريم فى آيات كثيرة أنه ليس لأحد فى أمر الخلق شىء ، لأن الخلق من خصائص الربوبية ، وأن نسبة الخلق إلى غير الله تعالى خطأ ظاهر ليس له ما يبرره ؛ لأن هؤلاء " الأغيار " يتصفون بالعجز والافتقار « واتخذوا من دونه آلهة ، لا يخلقون شيئا ، وهم يُخلَقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » (الفرقان : ٣) .

ويؤكد القرآن الكريم فى لهجة ممزوجة بالتحدى أن هذه الآلهة المدعاة لا تستطيع ولن تستطيع أن تخلق من العدم شيئا ، مهما كان صغيرا أو ضئيلا « يأيها الناس ضُرِب مثلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (الحج : ٧٣) . وإذا عجز هؤلاء عن خلق الذباب - مع ضآلة شأنه ، إذا قورن بغيره من الأنواع والفضائل - ثم إذا عجزوا عن أن يستردوا من الذباب ما يأخذه منهم - فإنهم يكونون عن خلق غيره أكثر عجزا . وهكذا ينتهى التأمل فى ظاهرة الخلق إلى الإيمان بوجود خالق عليم حكيم .

ويلاحظ أن هذا الدليل يعتمد على مقدمات واضحة سواء أكانت حسية أم عقلية ، ولذلك كان فهمها ، ثم الانتقال منها إلى ما يترتب عليها من نتائج ، أمرا لا عسر فيه ولا مشقة ، ومن ثم يكون ملائما لكافة المستويات العقلية .

هـ - على أن هذا الدليل يكتمل بملاحظة شيئين :

أولهما : أن العقل لا يمكن أن يستمر فى بحثه عن الأسباب التى تحكم الظواهر

إلى ما لا نهاية ، بل إنه يضطر إلى التسليم بوجود بداية لها ، وهو مدفوع إلى ذلك بطبيعته نفسها ؛ لأن الإنسان ذو بداية فى الوجود ، أيا كان التفسير الذى يعطيه لهذا الوجود ، وهو أسير لهذه الطبيعة فى تصوراته وأفكاره ، وليس من العسير عليه - إذن - أن يسلم بوجود بداية للكون الذى يحيط به ، وعندئذ فإنه سيرى نفسه مدفوعا إلى البحث عن المبْدِىء الموجد الخالق لهذا الوجود ، فإذا وصل إليه عن طريق التفكير المنطقى السليم ، أو عن طريق الدين الصحيح فإن عليه أن يكف نفسه ويمنعها من التمادى والاسترسال في البحث عن مُبْدئ موجد لهذا المبدئ الذى انتهى إليه ؛ لأن القول بأن كل سبب وراءه سبب إلى مالا نهاية ، يعد من الأمور التي تصادم مسلمات العقل وقوانينه ، حيث يعترف العقل نفسه بأن تسلسل الأسباب إلى مالا نهاية له معلوم الفساد بالضرورة(١) . ومن ثم يضطر العقل إلى التسليم بأن الأسباب متناهية ، وأنها جميعا تنتهى إلى سبب أول ، أو علة أولى كما يقول الفلاسفة ؛ لأن مالا نهاية له لا يقع فى الوجود ، كما يقول الكندى(٢) ولهذا « ليس يُجَوِّزُ أحد من الحكماء وجود أسباب لا نهاية لها ، كما تجوزه الدهرية ؛ لأنه يلزم عنه وجود مسبب من غير سبب ، ومتحرك من غير محرك »(٣) . كما يقول ابن رشد ، وإذا كان الحكماء يقولون ذلك فإن الدين يقول مثله أيضا ، ولذلك كان من أسماء الله تعالى " الأول " الذي ليس قبله شىء ، وكان من صفاته أنه يُبْدئ الأشياء ويعيدها ، وقد جاء هذا الوصف متعلقا بكثير من الموجودات ، ومن ذلك قوله تعالى :

- « إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد » (البروج ١٢ ، ١٣) .

---

(١) انظر : ابن تيمية ، درء تعارض ٣٠٦/٣ .

(٢) انظر : الكندى : رسائل الكندى ١ / ١١٤ وما بعدها ، ٢٠١ - ٢٠٧ ، ٢ / ٩٠ وما بعدها .

(٣) ابن رشد : تهافت التهافت ٨٣/١ ويتفق هذا مع ما قاله ابن سينا فى دليل الممكن والواجب من حيث ضرورة الانتهاء إلى موجود واجب الوجود بذاته ، ليس له شبيه . انظر : النجاة ، تحقيق وتقديم د/ ماجد فخرى ، دار الآفاق الجديدة . بيروت ط١/١٩٨٥ .

- « قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون » (يونس : ٣٤) .

- « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » (العنكبوت : ٢٠) إلى آيات كثيرة .

والعقل والدين - إذن - يتفقان على أن الأسباب لا تتسلسل إلى ما لا نهاية ، وأن من الضرورى أن تنتهى إلى سبب أول ، هو الذى يمنح هذه الأسباب تأثيرها ، وهو الذى يعطى الكون وجوده وبدايته ، فإذا استقر ذلك فى يقين الإنسان وعقله وجد السكينة والطمأنينة ، أما إذا ظل العقل حائرا بين الأسباب لا يعرف لها بداية ولا نهاية ، فإنه يقع فى براثن الشك والقلق ، اللذين يترتبان على مصادمة بعض قوانين الفكر لدى العقل الإنسانى . وصاحبُ هذا الموقف العقلى يشبه المريض الذى فسدت بعض حواسه ، فأصبح يحس الأشياء على غير حقيقتها ، فيجد الحلو مرا ، والمر حلوا ، أو يرى الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا وهكذا . وليس ينفع مع مثل هذا حوار ولا جدل عقلى ؛ لأنه ينكر بعض المسلمات العقلية ، التى تقوم البراهين عليها . فإذا كانت بدايات البراهين موضع ريبة عنده فكيف يقام عليها برهان ؟ ولعل الذى ينفعه - عندئذ - هو أن يقاوم نزعة الشك فى نفسه ، حتى يستعيد صحته العقلية ، التى تعيده إلى التصور الصحيح لفكرة الأسباب والمسببات ، وغيرها من المسلّمات العقلية .

وقد أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بوجود هذه الظاهرة لدى بعض الناس فقال : « لا يزال الناس يتساءلون ، حتى يقال : هذا ، خلق الله الخلق ، فمن خلق الله؟ ؟ . فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : آمنت بالله » (رواه البخارى ومسلم ، واللفظ له ، ورواه غيرهما)[1] وقد جعل الرسول - صلى الله عليه وسلم ذلك من وسوسة

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الوسوسة فى الإيمان ، وما يقوله من وجدها ٣٣٨/١ . وقد وردت به روايات أخرى مقاربة ، وبعضها أحاديث قدسية ٣٣٨/١ - ٣٤٢ وصحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ٤ / ٩٢ وانظر كتاب الاعتصام بالسنة ، باب ما يكره من كثرة السؤال ١٤٣/٨ ، ١٤٤ وسنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب فى الجهمية ٢٣١/٤ ومسند أحمد ٣٨٧/٢ .

الشيطان[1] ولذلك أمر بالاستعاذة منه ، واللجوء إلى الله تعالى حتى يعينه عليه ، ويبعد عنه الاسترسال مع خواطر الشك والحيرة ، ويعيده إلى سلامة العقل ، وطمأنينة اليقين »[2] .

أما الأمر الثانى الذى يكتمل به الدليل ، فهو ضرورة التفرقة بين الخالق والمخلوق فى حقيقة الوجود ، وما يتصف به كل منهما من صفات . فإذا كان المخلوق يحتاج إلى خالق ، فالخالق الذى يمنح الأشياء وجودها ، يتنزه عن الاحتياج والنقص والفقر إلى سواه ، فهو الغنى عن العالمين ، وهو مستغن فى وجوده وعلمه وقدرته وكماله عن كل ما سواه . وهو القيوم المهيمن ذو الجلال والإكرام ، وليس محتاجا إلى سبب سابق عليه لأنه « الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » (الحديد : ٣) .

وليس من الصعب على العقل أن يدرك هذا ويذعن له ؛ لأن من بدهيات العقل أن يفرق بين المؤثر والأثر ، وبين الصانع والصنعة ، ومن ثم لا يستوى المخلوق وخالقه . وهذا بعض ما يدل عليه قوله تعالى فى التفرقة بين الإله الحق والآلهة المفتراة « أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ » (النحل : ١٧) وقوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » (الشورى : ١١) وسنعود إلى هذه الملاحظة مرة أخرى عند الحديث عن التوحيد ، فيما بعد ، إن شاء الله .

* * *

---

(١) انظر كتب الحديث المشار إليها فى التعليق السابق ، ثم انظر : درء تعارض ٣٦٣/١ وما بعدها ، ٣/ ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) وليس معنى هذا الإعراض عن الدليل العقلى فى الإقناع بأصول العقيدة وقضاياها ، وفى الرد على الشبهات التى تثار حولها ، فاستخدام البرهان هو الطريق الأمثل ، وهو الذى يتفق مع نعمة العقل التى أنعم الله بها على الإنسان . ولكنه يستخدم حيث يمكن الانتفاع به ، فإذا تسلط الشك فى البدهيات نفسها على العقل فإنه لن يكون مؤهلا للانتفاع بالبرهان ، كما يُمْنَعُ المريض من بعض أنواع الغذاء ، وليس ذلك لعيب فى الغذاء نفسه ؛ بل لأن الحالة الصحية للمريض لا تسمح بهضمه ، ولذلك كان على من استحوذ عليه الشك أن يقوم بمقاومة نزعة الشك أولا ، وعليه أن يستعين بالله ليعينه على التخلص من مرضه .

ثانيا - دليل القصد والتقدير :

أ - عنى القرآن الكريم - فى كثير من آياته - بتوجيه نظر الإنسان وفكره إلى ما فى وجود الكون والإنسان من دلائل القدرة والقصد ، ومواطن الاعتبار ، فهذا الكون الفسيح الأرجاء ، المترامى الأطراف ، الزاخر بأنواع شتى من الخلائق والكائنات يخضع لنظام دقيق ، لا يحتمل الخلل ، وسنن ثابتة لا تسمح بالصدفة ، فكل شيء فيه بمقدار ، وهو يسعى إلى غايات محددة ، طبقا لنظام مرسوم . وهذا يدل على إتقان الصنع ، وكمال التدبير ، ودقة التقدير . ومن الآيات الدالة على قوله تعالى :

- « الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » (الملك : ٣ ، ٤) .

- « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » (الحجر: ٢١) .

- « إنا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر : ٤٩) .

- « الشمس والقمر بحسبان » (الرحمن : ٥) .

- « والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكلٌ فى فلك يسبحون » (يس : ٣٨ - ٤٠) إلى آيات كثيرة أخرى .

ويزداد الشعور بما فى الوجود من دقة واتقان ، كلما ازداد الإنسان علما بالكون ، خاصة وأن الكون يبلغ من الضخامة مبلغا يذهل العقل ، ويكفى أن نشير إلى أن وحدة القياس فيه هى سرعة الضوء التى تبلغ ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة وتتباعد فيه بعض الأجرام الفلكية حتى لتقاس المسافات بينها بالسنوات الضوئية ، بل بالملايين من هذه السنوات(١) .

---

(١) السنة الضوئية كما هو معروف هى المسافة الحاصلة من ضرب سرعة الضوء فى الثانية وهى ثلاثمائة ألف كيلو متر فى ٦٠ وهو عدد الثوانى فى الدقيقة ، ثم يضرب الحاصل في ٦٠ وهو عدد الدقائق فى الساعة ، ثم يضرب الحاصل فى ٢٤ وهو عدد الساعات فى اليوم ، ثم فى عدد أيام السنة لنحصل على المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة وهو عدد ضخم يعجز كثير من الناس عن قراءته بل عن تصوره ، ثم يضرب الحاصل بعد ذلك في عدد السنين الضوئية التى تصل إلى ملايين .

وقد استطاع الإنسان أن يرصد وأن يتلقى الضوء القادم من أعماق الفضاء من مسافات سحيقة ، تبعد عن نظامنا الشمسى ببضعة ملايين من السنين ، وليس هذا الفضاء خاليا من الكواكب والنجوم والأفلاك بل إن ما به منها لا يقع تحت حصر بحسب معارفنا البشرية القاصرة ، وكلما تقدم الإنسان فى مجال كشف هذا المجهول ظهر له من ضخامة الكون وكائناته ما يبهر عقله . ثم إن كل واحد من هذه الكتل الضخمة يسبح فى مجال ومدار خاص به لا يشاركه فيه غيره ، ولكل منها سرعته وكتلته ، وحركته المنضبطة التى لا تتخلف جزءا صغيرا من أجزاء الثانية الواحدة ، وكل هذا ومثله وأكثر منه ، مما يعرفه أهل الاختصاص برهان على كمال الصنع ودقة التقدير . والنظر إلى الكون على هذا النحو يجعله محرابا من محاريب العبادة التي يكتشف العلماء فيها ما يهدى الإنسان إلى الله .

ب – وإذا كانت هذه الآيات السابقة وأمثالها توجه العقل إلي تأمل ما فى الكون من اتقان ونظام وتقدير ، فإن آيات أخرى تؤكد على جانب القصد والإرادة فى بعض جوانب الوجود ، حتى لا يخطئ العقل فى تفسير وجودها بالصدفة ، أو يفسرها تفسيرا آليا ميكانيكيا ، يرجع إلى قوانين المادة ونظامها ، وحركتها الذاتية[1] . ومن هذه الآيات قوله تعالى :

– « وفى الأرض قطعٌ متجاورات ، وجنات من أعنابٍ ، وزرع ونخيل صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ ، يُسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها علي بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الرعد : ٤) .

والآية تتحدث عن هذا الاختلاف الذى يقع بين أنواع من الثمار والزروع والفواكه التى تتعرض لظروف واحدة أو متقاربة ، حيث تمتص غذاءها من تربة واحدة ، وتصنع غذاءها وثمارها من عناصر واحدة ، وتسقى بماء واحد ، وتتنفس هواء واحدا ، وتتعرض لظروف جوية واحدة من حيث الضوء ، وغيره من العوامل المؤثرة ، ثم هى

(١) كما يقول بذلك الماديون .

- على الرغم من هذا كله - تنتج ثمارا مختلفة فى ألونها وأحجامها وطعومها وروائحها ، ولا يقع ذلك فى الأنواع المختلفة ، بل يقع فى النوع الواحد أيضا . ولو كان الأمر يرجع إلى تفسير آلى أصم لوجب أن تتحد هذه الثمار جميعا فى كل شيء يتعلق بها ، لكن هذا التنوُّع يرجع إلى إرادة وقصد واختيار وعلم وحكمة .

وعلى هذا النحو نفسه يأتى قوله تعالى :

- « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك ، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ، إن الله عزيز غفور » (فاطر : ٢٧ ، ٢٨) .

وتتحدث الآيتان عن ظاهرة الاختلاف التى تقع ، حيث يُتَوَقَّعُ الاتفاق . وهى تقع فى الثمرات ، والجبال ، والناس ، الدواب ، والأنعام ، ومن شأن هذه الظاهرة أن تدفع العقل إلى التأمل فيها والبحث عن أسبابها . ولا شك أن العلماء هم أقدر الناس على معرفة هذه الأسباب ، وكشف أسرارها ، ومن ثم يكونون أكثر الناس خشية لله تعالى ، لما يرون من بديع صنعه ، وكمال قدرته وحكمته[1] .

جـ - ولا يكتفى القرآن بتوجيه الإنسان إلى النظر فى الكون واستقراء دلالاته ، بل يطالبه بالنظر فى نفسه ، ليرى فيها مظاهر الإبداع والإتقان . ولا يقتصر ذلك على جانبه الروحي ، بما فى الروح من أسرار فى علاقتها بالكون ، واتصالها بالبدن وتأثيرها فيه ، بل ينبغى أن يتجه النظر والتأمل إلى الجسم - كذلك - بما فيه من أجهزة تعد مثالا للدقة والعظمة في تناسقها وتكاملها وأدائها لوظائفها ، وينطبق ذلك على

---

(١) استند الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى هذه الظاهرة فى جداله مع جمع من الدهرية الذين طلبوا منه برهانا على وجود الله تعالى ، وكان من أدلته على ذلك : ورقة التوت ، تأكلها دودة القز فيخرج منها الحرير ، وتأكلها النحل فيكون منها العسل ، وتأكلها الظباء فتنتج المسك ، وتأكلها الشاة فيكون منها البعر .

انظر تفسير ابن كثير فى تفسيره للآيتين : ٢١ ، ٢٢ من سورة البقرة .

أعضاء الجسم كلها ، ومنها المخ والقلب والرئتان والكبد والكلى والمعدة والأمعاء والأجهزة التناسلية ، والحواس المختلفة والدم والأعصاب والعضلات وغيرها مما يتضمنه الجسم الإنسانى . وكل هذه أجهزة دقيقة تقوم بأعمال معقدة ، وتؤدى عملها باتقان يصل إلى حد الإعجاز ، ويشعر بالعلماء بالدهشة إزاء كل ما يتعلق بالجسم الإنسانى : من الخلية الحية ، إلى تركيب الدم ، إلى المخ ، وهم يشعرون بالحيرة إزاء تكوينات هذه الأجهزة وكيفية أدائها لوظائفها ، ولعل شعورهم بالدهشة يزداد عند دراستهم للأجهزة العصبية المتصلة بالاحساس والشعور والتفكير ، وربما يدفعهم إلى ذلك ما يلاحظونه ويقدرونه من خلايا وشعيرات تعد بآلاف الملايين . ويؤدى هذا كله إلى الإحساس بالعجز إزاء القدرة التى صنعت هذا كله على هذا النحو الدقيق . ومن هؤلاء من يقول « ولم يستطع إدراكنا وفهمنا أن يفسرا حتى الآن سعة العقل ... وتحتوى المادة المخية على أكثر من اثنى عشر ألف مليون من الخلايا ، وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبى ، ولكل ليف عدة فروع ، وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف من ملايين المرات ، بواسطة هذه الألياف ، وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة تعمل بدقة متناهية ، كما لو كانت خلية واحدة ، برغم تعقيدها الذى لا يمكن تصوره ، ولهذا ينظر المراقبون - الذين اعتادوا إدراك عوالم الجزئيات والذرات - إلى العقل على أنه ظاهرة غير مفهومة »[1] وعلى الرغم من تقدم العلم يجد بعض العلماء أنفسهم مضطرين إلى الاعتراف بأن جهلهم بالجنس البشرى جهل مطبق ، وأن كثيرا من الأسئلة التى تتعلق به مازالت بلا جواب ، ومن هذه الأسئلة « كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكى تكوّن المركب ، والأعضاء المؤقتة للخلية ؟ كيف تقرر الجينات الموجودة فى نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟ كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء أنفسها (!) مثل الأنسجة والأعضاء ؟ .. ما هي طبيعة تكويننا النفسانى ، والفسيولوجى ؟ .. ما

(١) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، تعريب شفيق أسعد فريد ، مؤسسة المعارف ، بيروت ط٢/١٩٧٧ ص١١٤ بتصرف يسير جدا .

العلاقة بين الشعور والمخ ، ؟ إنها ما زالت لغزا حتى الآن .. إلى أى مدى تؤثر الإرادة فى الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟ .. إلخ . وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها ، يمكن أن تلقى فى موضوعات تعتبر على غاية الأهمية بالنسبة لنا ولكنها ستظل جميعا بلا جواب .(١) ولا يصح - إذن - إغفال هذا الجسم ، بل يجب أن يكون موضوعا للفهم والبحث والتأمل لكشف ما ينطوى عليه من دلائل العلم والحكمة والقدرة الإلهية . ومن هنا نجد بعض الآيات التى توجه الإنسان إلى هذا الجانب من النظر :

- « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » (التين : ٤) .

- « يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ؟ » (الانفطار : ٦ - ٨) .

- « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟ (الذاريات : ٢٠ ، ٢١) .

- « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » (الجاثية : ٣ ، ٤) .

د - ويكشف العلم عن مظاهر التفرد التى يتصف بها كل فرد على حدة ، بحيث لا يتفق شخصان اتفاقا كاملا فى صفاتهما وخصائصهما . ولا ينحصر هذا التفرد فى الجوانب النفسية لبنى الإنسان ، بل إنه يمتد ليشمل الجوانب المحسوسة لهم ، ويمكن أن نسوق فى هذا الصدد ما لاحظه العلماء من اختلاف بصمات الأصابع ، وشحمة الأذن ، وذبذبات الصوت ، وحدقة العين ، ووضع الأسنان وتكوين الجلد ، وخلايا الأنسجة ، وجميع أجزاء الجسم المركبة ، وتركيبها الكيماوى . ،وينطبق هذا الاختلاف حتى على التوائم المولودة من بويضة واحدة(٢) ، وهذا كله لا يقع صدفة ، وإنما هو - عند المؤمنين -

---

(١) انظر السابق : ١٧ - ١٩ .

(٢) انظر السابق : ٢٧٢ - ٢٧٧ وينطبق هذا التفرد على الجلد والبصمات وسائر أجزاء الجسم المركبة ، على الرغم مما قد يبدو فى الظاهر من تشابهها ، ثم ينطبق هذا التفرد على التركيب الكيميائى للأخلاط والخلايا ، ولهذا فمن المحتمل ، كما يقول كاريل ، أنه لم يوجد فردان من بين ملايين الملايين من البشر الذين استوطنوا هذه الأرض كان تركيبهما الكيميائى متماثلا . وهكذا يعد التفرد سمة من سمات الخلق ، ودليلا على سعة القدرة الإلهية .

أثر من آثار العلم الإلهى الذى لا يعزب عنه شيء ، وهو راجع إلى سعة القدرة الإلهية التى لا يعجزها شيء .

ثم تتجلى هذه الآثار واضحة - كذلك - فى عملية التكاثر والتوالد التى تتم دائما بين ذكر وأنثى ، وتخضع لقانون مطرد لا يتخلف ، على الرغم من اختلاف الأجناس والأنواع والفصائل ، فى الإنسان والحيوان والنبات . وقد أشار القرآن إلى ذلك فى مثل قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون »(الذاريات : ٤٩) وقوله : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (يس : ٣٦) ويذكر علماء التكاثر أن الجنس البشرى كله - بأعداده الهائلة - يعود فى نشأته إلى كائنات دقيقة جدا ، يمكن أن تجمع فى قمع من أقماع الخياطة (كستبان) ، وأن هذا الحيز الصغير يتسع « لكل ما فى النفوس من الأحاسيس والحوافز والأسرار ، ولكل ما فى العقول من الأفكار والفلسفات والمبتكرات ، ولكل ما فى الضمائر من العقائد والأخلاق والأشواق ، ولكل ما فى الأجسام من الوظائف .. ولكل ما بين هؤلاء وأولئك من الأواصر والعلاقات »[1] .

٣ - دليل العناية والهداية :

ليست علاقة الله تعالى بالكون والإنسان مقصورة على الخلق ، وما تضمنه من إتقان وتقدير ، بل إن هذه العلاقة تمتد لتشمل عناية الله تعالى بالوجود كله ، وهي علاقة حفظ ورحمة ، وإمداد له بأسباب الخير وعوامل الصلاح ، وهى عناية عامة دائمة لا يتصور وجود الكون دونها لحظة واحدة من الزمان « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا » (فاطر : ٤١) .

أ - ومن مظاهر هذه العناية أن الكون ملائم لحياة الإنسان ، على نحو يدل على القصد وتتجلى فيه العناية ، ولكن الإنسان قد يغفل عن هذا المعنى ؛ لأن حياته

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية . دار الهلال ، ١٩٦٢ ص١٣٦ بتصرف يسير .

المنتظمة ، وعلاقته المستقرة بالبيئة تصرفه عن كثير من التأمل لها ، والنظر فيها ، كما تحول ألفته لها واعتياده عليها دون تخيل " الاحتمالات " التى كان يمكن أن تكون عليها . ويؤدى هذا التعود إلى الكسل العقلى الذى يفقده الشعور بالدهشة إزاء الوجود من حوله . ولهذا تضمن القرآن كثيرا من الآيات التى تدعو الإنسان إلى النظر فى الوجود ، للتعرف على مظاهر العناية الإلهية بالكون والإنسان ، ومن هذه الايات :

- « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة مَن إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (القصص : ٧١ - ٧٣) .

ب - وقد تحدث القرآن الكريم فى آيات كثيرة عن تسخير كثير من الكائنات والموجودات ، التى أخضعها الله تعالى لقوانين ثابتة ، بحيث تكون الحياة مهيأة لمعيشة الإنسان وحياته ، لولا ذلك لما كانت حياة الإنسان ممكنة ، وفى هذا الصدد يتحدث القرآن عن تسخير الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والبحار والأنهار ، ونزول الأمطار ، وصلاح الأرض للزراعة والإثمار ، وما جعل الله فيها من عوامل الاستقرار بسبب الجبال الرواسى ، ويتحدث القرآن ، كذلك ، عن تسخير الحيوان لمنفعة الإنسان ، إلى غير ذلك من وجوه التسخير والقهر الإلهى ، الذى تتجلى به نعم الله الكثيرة ، الظاهرة منها والباطنة ، وهى نعم ينتفع بها البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ولكن أهل الإيمان يستدلون بها على وجود الله ورحمته ، وعنايته وإحسانه . ومن هذه الآيات التي عنيت ببيان هذا الأمر قوله تعالى :

- « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان : ٢٠) .

- « الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (إبراهيم : ٣٢ - ٣٤) .

- « وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وتري الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا ، وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (النحل : ١٣ - ١٦) .

- « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الوليّ الحميد » (الشورى : ٢٨) .

- « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن الخلق غافلين » (المؤمنون : ١٧) . إلى آيات كثيرة أخرى[١] .

جـ - ويدلنا التأمل فى حياة الإنسان أن آثار الرحمة الإلهية تحيط به من كل جانب ، وأنها تتصل به منذ أن تبدأ رحلة حياته فى بطن أمه ، حيث يهيئ الله له عوامل الحياة والنمو والاكتمال والغذاء والوقاية ، إلى أن يخرج إلى الوجود ، مزودا فى بدنه بهذه الأجهزة التى تحفظ عليه حياته دون تدخل منه ، وتزوده بالقدرة على فهم الوجود ، وتسخير الكائنات ، واستثمار المنافع التى بثها الله تعالى من حوله . ويتفق هذا كله مع كونه مستخلفا من الله تعالى فى الأرض ، وسيداً فى الكون .

- « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الإسراء : ٧٠) .

---

(١) انظر مثلا : الأنعام : ٩٥ - ٩٩ ، والنحل : ٥ - ١٢ ، والنمل : ٦٠ - ٦٤ ، والروم : ٢١ - ٢٦ ، ٤٦ - ٥٠ ، ويس : ٣٣ - ٣٥ ، ٧١ - ٧٣ ، والواقعة : ٦٣ - ٧٣ ، والنبأ : ٦ - ١٦ إلى آيات أخرى .

د - وتمتد آثار الرحمة الإلهية لتشمل عالم الحيوان ، وتتمثل هذه الرحمة فيما أودعه الله تعالى فى فطرته من عوامل الهداية لتحقيق منافعه ، والبعد عما يضره ويؤذيه . وهى هداية عامة ترجع إلى صفات الله تعالى الذى « خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » (الأعلى : ٢ ، ٣) وقد استند موسى عليه السلام إلى هذه الصفة فى حديثه عن الله تعالى ، فعندما سأله فرعون « فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (طه : ٤٩ ، ٥٠) .

وتتجلى هذه الهداية واضحة فى أنواع كثيرة من الحيوان والطيور ، ومما يظهر فيه ذلك عالم النحل ، والنمل ، وأسراب الطيور والأسماك التى تهاجر من مكان إلى مكان ، ومن بيئة إلى بيئة . ولقد يظهر فى سلوك بعض الحيوان ما يثير الدهشة والعجب ، فالحيوان الزاجل يطير المسافات الطويلة ، ويتعرف على طريقه دون مرشد أو دليل ، والثعلب إذا اشتد به الجوع استلقى على ظهره وتظاهر بالموت حتي يجد فريسة فينقض عليها ، والأنثى من السباع ترفع ولدها فى الهواء - عقب ولادته - حينا بعد حين ، وتحوله من مكان إلى مكان ؛ لأنها تضعه كقطعة لحم ، فهى تخشى عليه من الهوام والنمل ونحو ذلك ، والأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها تقترب من مواضع الماء ، حتى إذا أتاها المخاض ولدت فى الماء ، خشية على وليدها ؛ لأنها تلد وهى قائمة ، فلو ولدت على جسم صلب لأصيب وليدها بأذى . والعصفورة إذا سقط فرخها من عشه تستغيث ، حتي يجئ ما حولها من العصافير لكى يعاونوها على حمله ، والنملة إذا رأت طعاما لا تستطيع حمله وحدها ، ذهبت إلى النمل ، ثم عادت بهم ليتعاونوا جميعا على حمله . وهكذا وهكذا « وهذا باب واسع جدا » كما يقول بعض العلماء (١) .

---

(١) انظر : ابن قيم الجوزية ، شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل . تحرير الحسانى عبد الله ، مكتبة التراث ص١٦٦ وقد قال تأييدا لهذا « ويكفى فيه قوله سبحانه : وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون » (الأنعام : ٣٨) وانظر نماذج أخرى لهذه الهداية ١٤٤ - ١٦٦ .

هـ - وقد جاء العلم الحديث - بما توصل إليه من اكتشافات وملاحظات ونتائج علمية - ليقدم لنا من الدلائل والشواهد ما يؤكد عناية الله تعالى بالكون والإنسان والأحياء بصفة عامة .

ومن ذلك أن الأرض تقع على مسافة معينة من الشمس ، تعد هى المسافة المثلى ، ولذلك كانت ذات حرارة مناسبة ، وضغط جوى محتمل ، وجاذبية ملائمة ، ولو زادت المسافة عما هى عليه لزادت البرودة وتجمدت الأشياء ، ولم تعد الأرض صالحة للحياة ، ولو قلت المسافة عما هى عليه ، لزادت الحرارة ، واحترقت الموجودات ، ولزاد الضغط الجوى إلى درجة يتعذر معها نمو الإنسان واستقامة بدنه ، ثم إن الأرض تدور حول محورها ، وحول الشمس ، ويؤدى هذا إلى تقلب الليل والنهار ، وتغير الفصول ، وتجدد الحياة ، وزيادة مساحة الأرض الصالحة لسكنى الإنسان . ويحيط بالأرض غلاف جوى ذو وظائف متعددة ، فهو - من جهة - يشتمل على الغازات اللازمة لحياة الأحياء ، خاصة الإنسان ، ثم هو - من جهة ثانية - يحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلى الأرض . ثم إنه يساعد - من جهة ثالثة - على حفظ حرارة الأرض فى الحدود الملائمة للحياة (١) .

ثم يوجه العلماء النظر إلى بعض الظواهر التى تحدث على نحو غير متوقع . ومن هذه الظواهر ما يتعلق بالماء من حيث التمدد والانكماش ، فالقاعدة العامة أن المواد تنكمش بالبرودة ، فيقل حجمها ، لكن الماء لا يتبع هذه القاعدة التى تطبق على المواد جميعا ؛ لأنه عندما يصل إلى درجة ٤ مئوية فما دونها يزداد حجمه بدلا من أن يقل ، وتقل كثافته ، محققا بذلك مصلحة كبرى للإنسان وللأحياء ، لأنه عند تجمده مع قلة كثافته يُكَوِّن طبقة عازلة ، تحفظ جزءا من الماء تحتها دون تجمد ، وبذلك تبقى الأسماك - وغيرها من الكائنات التي تحيا فى الماء - حية . ولما كانت المناطق القطبية

---

(١) انظر كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم ، لمجموعة من العلماء ، ترجمة د/ الدمرداش سرحان . طبع مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر ط٣ / ١٩٦٨ ، ص٨ ، ٩ ويلاحظ أن الكندى الفيلسوف قد نبه على هذا الدليل . انظر رسائل الكندى ٢٢٩/١ وما بعدها ، وكذا ٢٣٧/١ .

ثلجية ، فإن هذا الثلج الطافى فوق الماء ينساب من القطبين إلى المحيطات ، فإذا تعرض لأشعة الشمس ذاب بفعل الحرارة ، ويحدث هذا كله بسبب مخالفة الماء للقاعدة العامة فى الانكماش ، ولو أنه كان خاضعا لها خضوعا مطلقا ، لتحول الماء كله عند برودته إلى ثلج ، ولغاص هذا الثلج فى قاع المحيطات ، مؤديا إلى تجمدها جميعا ، ولو حدث ذلك لانعدمت التيارات البحرية ، ولانعدم المطر ، لعدم التبخر ، ولأدى هذا فى النهاية إلى أن تتعذر الحياة أو تنعدم . وهكذا تكون مخالفة القاعدة العامة مخالفة مقصودة ، وهى أثر من آثار الرحمة الإلهية والعناية بالوجود .

ومن النماذج التى تتجلى فيها هذه العناية ما حدثنا به العلماء عن تركيب الهواء ، فالهواء مكون من الأكسوجين بنسبة ٢١٪ ومن النتروجين بنسبة ٧٨٪ ومن بعض الغازات الأخرى ، وهذه النسبة ثابتة فى البيئة الطبيعية ، وهى ملائمة للحياة تماما ، ويقول العلماء إن نسبة الأكسوجين لو زادت عما هي عليه لزادت نسبة وقوع الحرائق ؛ لأن هذا الغاز سريع الاشتعال ، ولو نقصت لما تمكن الإنسان من التنفس ، ولأصيب بالاختناق ، ولما أصبح الدم نقيا بصورة كافية . ومعني ذلك أن ثبات نسبة الأكسوجين يعد أمرا ضروريا لانتظام الحياة واستمرارها ، بسبب الحاجة الضرورية له فى التنفس ، وفى تحويل الغذاء إلى وقود وطاقة فى الجسم ، ويتم الحفاظ علي ثبات هذه النسبة بتدبير قائم على الحكمة ، ودال على الرعاية والعناية ، حيث إننا عند التنفس نأخذ الأكسوجين من الجو فى حركة الشهيق ، ثم نخرج الهواء فى حركة الزفير محملا بغاز ثانى أكسيد الكربون ، وهو غاز خانق ، لكنه يؤدى فائدة عظمى للحياة ؛ لأن النباتات تتنفسه فى جزء هام من نشاطها ، لتأخذ منه حاجتها من الكربون الذى لا غنى لها عنه فى بنائها وتكوينها ، وعندما تقوم النباتات بعملية التنفس لهذا الغاز تقوم بعملية " اختزال " تستبقى بها الكربون ثم تخرج الأكسوجين الذي يحتاج إليه الحيوان والإنسان ، وبذلك يتحقق التوازن الضرورى لاستمرار الحياة .

ثم إن غاز النتروجين الذي يمثل العنصر الأكبر فى الهواء (٧٨٪) يقوم بفوائد

محققة ؛ لأنه يعمل على تخفيف حدة اشتعال الأكسوجين ، ثم إنه يساعد على إخصاب الأرض التى تحتاج إليه لنمو النبات ، والأرض تحصل عليه من جذور بعض النباتات ، أو عن طريق المطر المصحوب بالرعد والبرق . وقد لجأ الإنسان أخيرا إلى استخلاص هذا العنصر من الهواء بطريقة صناعية ، ليستخدمه فى تخصيب الأرض التى يحيا عليها الإنسان والحيوان .

وإذا كان هذا المثال يدل على التدبير المحكم والصنع المتقن الذى لا يخضع للصدفة ، فإنه يدل - كذلك - على عناية الله تعالى بالأحياء وخاصة الإنسان ، وبذلك كانت الأرض ملائمة لحياته حتى لقد عبر القرآن عنها بالمهاد فقال :

- « ألم نجعل الأرض مهادا » (النبأ : ٦) ومعنى ذلك أنها للإنسان كالمهد للصبى ، والمهد يتصف بصفات ملائمة من حيث الحفظ والراحة والسعة والأمن ، وهكذا الأرض للإنسان ، بما جعل الله فيها من النعم والخيرات التى تتيسر بها الحياة له .

و - وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من مفكرى الرسلام قد اهتموا بهذا الدليل اهتماما كبيرا ، ورأوا فيه برهانا واضحا على وجود الله تعالى ، وأفاضوا فى الحديث عن مظاهر العناية الإلهية السارية فى جنبات الوجود الطبيعى والإنسانى ، وقد ظهر ذلك لدى الكندى فى رسائله ، والجاحظ فى بعض كتبه ، ومنها كتاب خصصه لهذا الغرض ، وهو " الدلائل والاعتبار " وقد رد فيه على هؤلاء الذين جهلوا الأسباب والمعانى ، وقصروا عن تأمل الصواب والحكمة ، وغفلوا عن الوقوف على ما فى الوجود من لطف التدبير وصواب التقدير . وقد ضمنه فصولا فى الحديث عن أنواع من الحيوان والطير ، وما يتميز به بعضها من ضروب الفِطَن ، التى تهتدى بها إلى أسباب منافعها(١) . وقد خصص الغزالى كتابا لهذا الغرض أيضا ، سماه " الحكمة فى مخلوقات الله عز وجل " ، وجعله ابن رشد أحد دليلين على وجود الله تعالى ، وهما دليل الاختراع ودليل العناية ، مستندا فيهما إلى آيات القرآن الكريم ، التى تضمنتها

---

(١) الجاحظ : الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ، تحقيق محمد راغب الطباخ . المطبعة العلمية بحلب ط١٩٢٨/١ ص٢ وما بعدها ، ٣٤ وما بعدها .

وقد ذكر ابن رشد نماذج من هذه الآيات التى اهتمت ببيان أوجه العناية الإلهية فى الوجود ، ثم قال : « ولو ذهبنا لنعدد هذه الآيات ، ونفصل ما نبهت عليه من العناية التى تدل على الصانع والمصنوع لما وسع ذلك مجلداتٌ كثيرة ، ولعلنا - إن أنسأ الله فى الأجل ، ووقع لنا فراغ - أن نكتب كتابا فى العناية التي نبه عليها الكتاب العزيز »[1] ، وقد استخلص ابن رشد من هذه الآيات التى ذكرها أن هذا العالم الذى نعيش فيه موافق لمصلحة الإنسان ، " ويحصل اليقين بذلك لمن تأمل فى أحوال هذا العالم وما فيه من موجودات ، وما سخره الله للإنسان من الحيوان والنبات والجماد ، ونحو ذلك من الأمطار والأنهار والبحار " ثم يحصل اليقين بذلك -أيضا - لمن تأمل " فى أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان ، أعنى كونها موافقة لحياته ووجوده »[2] . ونجد مثل هذا الاهتمام لدى ابن قيم الجوزية فى بعض كتبه[3] ، وكذلك لدى بعض الصوفية فى الحديث عن مقام الشكر ، ومن هؤلاء : أبو طالب المكى فى كتابه قوت القلوب ، وأبو حامد الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين .

٤ - الاستدلال بالنبوة :

تحدث القرآن الكريم فى كثير من آياته عن النبوة والأنبياء ، ويمكن الاستدلال بذلك على وجود الله تعالى من ناحيتين : أولاهما ما أمد الله تعالى به الأنبياء من آيات ودلائل ومعجزات ، ترجع إلى قدرة فوق مستوى طاقة البشر ، فلم يكن للأنبياء قدرة على المجئ بمثلها ، بل إن بعضها كان مثار دهشة الأنبياء أنفسهم ، وقد كان هذا هو الذى أحس به موسى عليه السلام ، حين أمره الله تعالى بأن يلقى عصاه ، فلما ألقاها تحولت أمام عينيه إلى حية تسعى ، وليس بغريب أن يحس بالرهبة من هذا الأمر الغريب الذى لم تجر العادة به ، وعندئذ قال الله تعالى له : « قال : خذها ولا تخف ، سنعيدها سيرتها الأولى » (طه : ٢١) .

---

(١) ابن رشد ، مناهج الأدلة ص ١٩٩ ، وانظر ١٩٦ - ١٩٨ وتهافت التهافت ٣١٦/١ - ٣٢١ .

(٢) مناهج الأدلة ١٥١ ، ١٥٢ وانظر ما بعدهما إلى ص ١٥٥ .

(٣) انظر : شفاء العليل ، مرجع سابق ١٤٤ - ١٦٩ وكذا مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . وهو لابن القيم أيضا . طبع بعناية الشيخ محمود حسن ربيع ، مكتبة حميدو ط٣ / ١٩٧٩ ص٢٠٥ وما بعدها إلى ٢٩٨ ومواطن أخرى .

وهكذا ترتبط المعجزات والآيات بإرادة الله تعالي وقدرته ، فلم يكن فى قدرة نوح عليه السلام أن ينزل الأمطار ، وأن يفجر العيون ، وأن يُحْدِث هذا الطوفان ، الذى هو حدث كونى تعجز عنه قدرة البشر ، ثم لم يكن فى قدرته أن يعيد الأرض إلى طبيعتها ، وإنما يحدث ذلك بقدرة إلهية « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بُعْداً للقوم الظالمين » (هود : ٤٤) ، ولم يكن فى طاقة إبراهيم عليه السلام أن ينقذ نفسه من النار التي قذفه فيها قومه ، لولا أن الله تعالى جعلها عليه بردا وسلاما . ولم يكن فى استطاعة موسى عليه السلام أن يحول البحر إلى طريق يبس يمر عليه هو وقومه ؛ بل إن ذلك أمر لا يستطيعه إلا من خلق هذا الماء ، وحدد طبيعته وخصائصه ، ومن ثم يمكن له أن يتصرف فيهما بإرادته وقدرته . ولم يكن فى قدرة عيسى عليه السلام أن يحيى الموتى أو يشفى المرضى أو يعلم بعض الغيب . ثم لم يكن فى قدرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتى من عند نفسه بهذا القرآن الذي قال الله عنه : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الإسراء : ٨٨) . وهكذا وهكذا (١) .

ولما كانت هذه الآيات أمرا واقعا فإنه يلزم أن يكون لها سبب ، طبقا لقانون السببية . ولما كان الأنبياء عليهم السلام ليسوا هم سبب وجودها ، فالسبب - إذن - راجع إلى من أرسلهم ، وهو الله تعالى .

---

(١) كان أبو سليمان الخطابى (٣٨٨هـ) من السابقين إلى الحديث عن هذا المعنى . وقد بين أن الصحابة رضوان الله عليهم قد ثبت عندهم أمر التوحيد من عدة وجوه ، أحدها : ثبوت النبوة بالمعجزات . انظر : صون المنطق والكلام للسيوطى ، مرجع سابق ١٤٢/١ : ونجد مثل هذا المعني لدى الحليمى فى منهاج شعب الإيمان (مرجع سابق) ١٤٧/١ ، والاعتقاد للبيهقى ص٢٦ ، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧٨/١١ . ومن المحتمل أن يكون الحارث بن أسد المحاسبى (٢٤٣) قد استدل بهذا الجانب - من قبل - على وجود الله تعالى ، فى رسالة تسمى : كتاب العظمة ، وقد طبعها - دون توثيق نسبتها إليه - الأستاذ / عبد القادر عطا ، وجعل عنوانها : وحدة النظام ووحدانية الله تعالى ، ضمن كتيب بعنوان : ثلاث رسائل فى عقيدة المسلم للمحاسبى والغزالى . دار البيان ط١٩٧٧/١ ورسالة المحاسبى تقع فى الصفحات من ١٧ ، إلى ٢٢ .

أما الوجه الثانى من وجهى دلالة النبوة على الله تعالى فإنه يتعلق بنوع من المعجزات أيضا وهو : العذاب الذى أنزله الله تعالى بالمكذبين للأنبياء عليهم السلام ، وهو عذاب قدري كونى ، تعجز عنه القدرة البشرية ، ومن ثم فليس له من تفسير إلا أن يكون فاعله هو اللـه تعالى . ومن أمثلة هذا العذاب غرق من كفر بنوح فى الطوفان ، وتوجيه أنواع من العذاب إلى فرعون وقومه ، حين قالوا لموسى « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد والقمل ، والضفادع ، والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » (الأعراف : ١٣٢ ، ١٣٣) . وقد أحس هؤلاء أن رب موسى هو الذى فعل بهم ذلك ، ولذلك طلبوا إليه أن يدعو ربه ليكشف عنهم هذا العذاب (الأعراف : ١٣٤) .

ومما يؤكد هذه الدلالة أن الأنبياء كانوا ينذرون أقوامهم بالهلاك إذا لم يستجيبوا لأمر الله تعالى ، وكان إنذارهم يأتى أحيانا محددا بمدة معينة ، قد تكون ثلاثة أيام ، كما هو شأن صالح عليه السلام مع قومه ، حين عقروا الناقة التى جعلها اللـه له آيـة « فعقروها فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب » (هود ٦٥) ثم نزل بهم العذاب على النحو الذي أنذرهم به ، وقد يكون الإنذار لمدة أقل من ذلك ، مثلما كان الشأن مع قوم لوط حينما أمره الله تعالى بقوله : « فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب » (هود : ٨١) .

ثم تحقق فيهم وعيد الله تعالى ، على حسب ما أخبر به . والعذاب - على هذا النحو - يدخل فى باب المعجزات والآيات الدالة على صدق الأنبياء عليهم السلام ، فيما أخبروا به عن الله تعالى ، يمكن اعتباره دليلا على وجود الله تعالى ، الذى اصطفاهم للرسالة ، وزودهم بالأدلة الكثيرة على صدقها .

خامسا - دليل التعجيز والتحدى :

ويقصد بهذا الدليل - الذى جاء فى القرآن الكريم بصور متعددة ، فى مجالات

متنوعة - إثبات وجود الله تعالى ، وإثبات وحدانيته أيضا . ثم إثبات عجز من سواه عن التدخل فيما هو من خصائص الألوهية كالخلق والإيجاد وتدبير الوجود وحفظه وتسخيره . وقد لجأ القرآن الكريم إلى هذه الطريقة ؛ لإقامة الحجة البرهانية القاطعة على المخالفين والمعاندين ، ولإظهار عجزهم ، حتي يكون ذلك سبيلا إلى الإقرار والتسليم بما جاء به الأنبياء عليهم السلام - من دعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده . وكان هذا المسلك متفقا مع المنهج الذى دعا إليه القرآن نفسه ، عندما كان يقول للمخالفين :

- « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » (الأنعام : ١٤٣) .

- « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (البقرة ١١١ ، والنمل ٦٤) .

ومن مواطن استخدام هذا الدليل فى القرآن ما جاء فى قصة إبراهيم مع هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه ، مدعيا - ادعاءً غير حقيقى - أنه يحيى ويميت ، وقد تحداه إبراهيم ليفحمه ويظهر عجزه وكذبه ، فقال له ما أمره اللـه تعـالى بقـوله له : « ... قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب فبهت الذى كفر » (البقرة : ٢٥٨) وليس هذا بإمكان بشر قطعا ، ولذلك لم يكن أمام هذا المجادل إلا أن يقر بالعجز والانقطاع .

وعندما نازع المشركون فى عقيدة التوحيد أوضح القرآن أن خلق الكائنات إنما هو من خصائص الربوبية وحدها ، وأنه ليس لأحد سوای الله مدخل فيه ، ولكى يثبت لهم ذلك بطريقة حاسمة قال لهم : « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » (لقمان : ١١) وقال لهم - كذلك - « ... إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » (الحج : ٧٣) ثم قال لهم : « هل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ... » (فاطر : ٤٠) وهكذا .

وقد تحدث القرآن - فى سورة الواقعة - عن بعض مظاهر القدرة الإلهية في خلق الإنسان ، وإنبات النبات ، وإنزال الماء ، وإيجاد النار وإنشائها ، كما تحدث عن القرآن الكريم وسمو مكانته ، ثم أوضح أن الله ليس متفردا بالإيجاد والخلق فقط ولكن بيده الموت أيضا . فالآجال مقدرة ، والأعمار محددة ، ولا يستطيع أحد أن يفلت من نهايته التى قدرها له الله تعالى : « ولكل أمة أجل . فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (الأعراف : ٣٤ وانظر الآية ٤٩ من سورة يونس) . ويجرى هذا القدر على المؤمنين ، وهم له مسلِّمون . ثم هو يجرى على الكافرين الجاحدين على رغم أنوفهم ، ولذلك يتحداهم القرآن بقول الله لهم « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين ، ترجعونها إن كنتم صادقين » (الواقعة : ٨١ - ٨٥) ويشهد الواقع بأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا الموت عن أنفسهم ، لأنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعا ولا ضراً ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

وكان من مواطن استخدام هذا الدليل فى القرآن ما جاء فيه عن تحدى الله تعالى للكافرين والمشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله أو بسورة من مثله ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، على الرغم من تحدى القرآن لهم . وقد بلغ هذا التحدى مبلغه حين قال الله لهم : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (البقرة : ٢٤) ثم قال الله تعالى لهم مغلقا أمامهم كل أمل فى معارضة القرآن أو الإتيان بشىء مثله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الإسراء : ٨٨) . وقال القرآن مثل ذلك عن التوراة والقرآن معا حين قال للمشركين : « قل فائتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتَّبعه إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتَّبع هواه بغير هدى من

الله . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » (القصص : ٤٩ ، ٥٠) .

وهكذا يكون التحدى طريقا من طرق الإثبات ، ووسيلة من وسائل البرهان(١) .

وتتأيد عقيدة الإيمان بالله عز وجل بكل ما يؤدى إلى تأكيدها ، وتحقيق اليقين بها : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة ... » (الأنفال : ٤٢) .

موقف العلم الحديث من عقيدة الإيمان بالله تعالى :

قبل أن نتحدث عن هذه المسألة ينبغى ألا يغيب عن بالنا أمران :

أولهما : أنه ليس من اختصاص العلم أن يبحث فى أمور الغيب التى تتعلق بالله تعالى ؛ لأن مجال العلم ينحصر فى نطاق الظواهر المحسوسة ، التى يقوم العلم بدراستها عن طريق الملاحظة والتجربة والاستقراء والإحصاء ، فى محاولة منه لفهم أسبابها ، ومعرفة القوانين التى تحكمها ، بحيث يمكن التنبؤ بوقوعها ، إذا وقعت ظروف مشابهة . ولما كان أمر الغيب والألوهية خارج هذا النطاق وأسمى منه ، فإن ذلك يجعل العلم بمعزل عن اقتحامه أو الخوض فيه(٢) .

وثانيهما : أنه على الرغم من ذلك ، استخدم العلم ، فى بعض الأحيان ، ليكون أداة من أدوات الإلحاد ، وعاملا فعالا من عوامل مقاومة الأنبياء ورفض ما جاءوا به من الهدى ، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى : « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » (غافر : ٨٣) .

وقد بلغ هذا الاتجاه مداه فى أوروبا فى أوائل نهضتها العلمية والصناعية ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، وفى أثناء القرن التاسع عشر ، ووصل الغرور بالعلم واكتشافاته إلى حد القول بأنه ليس هناك من سبب يضطر الإنسان إلى الإيمان بإله ؛ لأن كل شىء فى الوجود يمكن تفسيره - من وجهة نظرهم - تفسيرا ماديا ، يقوم على الربط بين الظواهر وأسبابها القريبة ، دون حاجة إلى تفسيرها بأسباب بعيدة تقوم على الاعتقاد بوجود الله . ووصل الأمر بأحد ممثلى هذا الاتجاه - وهو عالم الفلك الفرنسى لابلاس (١٨٢٧م) إلى أن يقول : " يجب علينا أن نعتبر الحالة الراهنة للكون نتيجة

---

(١) انظر : د/ يوسف محمود محمد ، أسس اليقين بين الفكر الدينى والفلسفى ، دار الحكمة ، الدوحة ط١/١٩٩٣ ص٢٥٦ ، ٢٨٧ - ٢٨٩ .

(٢) انظر les fondements ... p . 264 .

لحالته السابقة ، وسببا فى حالتـه التي تأتى بعد ذلك مبـاشرة ، ولو استطاع ذكاء ما (= عقل) أن يعلم - فى لحظة معينة - جميع القوى التى تحرك الطبيعة ، وموضع كل كائن من الكائنات التى تتكون منها ، لاستطاع أن يعبِّرَ - بصيغة واحدة - عن حركات أكبر الأجسام فى الكون ، وعن حركات أخف الذرات وزنا ، ولكان علمه بكل شىء !! علما أكيدا ، ولأصبح المستقبل والماضى ماثلين أمام ناظريه كالحاضر تماما "(١) .

وقد بنى لابلاس هذا تصوره لبناء العالم على هذه الفكرة وسجل ذلك فى كتاب بعنوان : نظام العالم ، وعندما قدمه إلى نابليون سأله قائلا : وأين موضع الله فى هذا النظام ؟ فأجاب بكل غرور وصلافة : سيدى ! لست فى حاجة إلى هذا الفرض !!(٢) .

وساعدت نظريات التطور التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ولا سيما نظرية دارون (١٨٨٢م) على دعم هذا الموقف الإلحادى الرافض للدين والألوهية والنبوة والوحى ، وكل ما يمكن أن يدخل فى نطاق الغيب ، واتجه كثير من العلماء التجريبيين إلى نبذ الدين ، بدعوى أنه معارض للعلم ، ولأن حقائقه غير قابلة للإثبات بوسائل العلم المحسوسة من ملاحظة وتجربة ونحوهما(٣) .

لكن هذا التفسير المادى للوجود لم يثبت على موقفه ، بل إنه بدأ فى التراجع والانحسار ، وأصبح العلماء التجريبيون أكثر تواضعا بسبب ما لاحظوه من ضخامة الكون ودقته ، وبسبب عجزهم فى أحيان كثيرة عن فهم القوانين التي تحكم ما فيه من ظواهر(٤) . واضطر بعض هؤلاء إلى التراجع عما كانوا قد وضعوه من نظريات تفسر الوجود تفسيرا ماديا آليا ، دون حاجة إلى القول بوجود إله ، ومن هؤلاء بوخنر

---

(١) عن د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، الانجلو المصرية ط٤ ص٧٧ وانظر : فيليب فرانك : فلسفة العلم ، ترجمة د / على على ناصف بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ / ١٩٨٣ ص٢٢٢ ، ٢٢٣ . وحكمة الغرب لرسْل ، ترجمة د/ فؤاد زكريا ، طبع الكويت ١٩٨٣ ، ١٥٠/٢ ، ١٥١ .

(٢) فلسفة العلم ص ٣٢٧ .

(٣) انظر : إميل بوترو : العلم والدين فى الفلسفة الحديثة ، ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهوانى ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، وما بعدهما .

(٤) ثم بسبب تحطيم المفهوم القديم للمادة . انظر : تجديد التفكير الدينى لإقبال ٤٢ ، ٤٣ ومباهج الفلسفة ٦٨/١ وما بعدها ، و les fondements ... p. 95 .

(١٨٩٩م) الذى ألف كتابا سماه : القوة المادية ، بين فيه أن المادة هى مستودع جميع القوى الطبيعية ، وجميع القوى التى تدعى روحية(١) لكنه عاد فأعلن أن الفصل فى أمر التولد الذاتى للخلية الأولى التى نشأ عنها الأصل الأول أمر غير متيسر ؛ لأن الأحوال المناسبة لهذا التولد الذاتى غير معروفة ، ولأن الخلية ذاتها - على الرغم من بساطتها - لابد أن تكون ذات بناء وتركيب ، يستحيل معه صدورها من الجماد مباشرة ، وإذا كانت الأحياء العليا كالإنسان ونحوه يستحيل صدورها من الجماد مباشرة ، دون خالق ، فإن هذه الاستحالة تنطبق على الخلية الأولى بنفس المقدار(٢) .

ورويدا رويدا بدأ العلم يتخلص من نزعة الإلحاد التي صحبته فى فترة سابقة ، وأخذ - على العكس من ذلك - يتجه إلى محزاب الإيمان ، وأصبح يقدم من النتائج - التى ترتقى فى كثير من الأحيان ، إلى درجة الحقائق العلمية - ما يوافق حقائق الدين ، وبذلك أصبح عاملا من عوامل مقاومة الشك الذى اعترى كثيرا من العقول ، وصرح كثير من العلماء بأنه " كلما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف ، فالفهم الحقيقى للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله(٣) ولم يعد غريبا - عندئذ -

---

(١) انظر : يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، مصر ط ٥ / ١٩٦٩ ص ٤٠٠ .

(٢) انظر : الشيخ نديم الجسر ، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ، طبع المكتب الإسلامى ، بيروت ط٣ / ١٩٦٩ ص .

(٣) انظر كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم ، مرجع سابق ص٥٢ بل وجدنا من المفكرين والعلماء من يتحدث عن حاجة العلم التجريبى نفسه إلى الدين ؛ لأنه يعتمد على أسس ومقدمات لا يمكن إثباتها عن طريق مناهج العلم نفسه ، ومن ثم فإنها تقوم على التسليم والإيمان بصدقها . ومادام الأمر كذلك فلم لا نفضل التفسير الدينى على التفسير الطبيعى ، ما دام قد اتضح لنا أن الأول يمتاز بأنه يرضى الحاجات العليا لحياتنا ، ولا سيما حاجاتنا الجمالية والأخلاقية والدينية ؟؟ . انظر مثلا : الفلسفة الانجليزية فى مائة عام لرودلف متس ، ترجمة د / فؤاد زكريا ، نشر مؤسسة سجل العرب ط١٩٦٧ ج٢/٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٨٥ . ويقول مراد هوفمان « سوف يذهل كثيرمن الأكاديميين المفكرين عندما يعلمون عدد علماء الطبيعة والطب والبيولوجى المتفوقين الذين يعتقدون فى وجود قوة عليا مفكرة خلقت الأكوان . انظر : الإسلام عام ٢٠٠٠ ترجمة عادل المعلم مكتبة الشروق ١٩٩٥ ص٢٩ - ٣١ .

أن تتضافر جهود العلماء لتأكيد قضايا الإيمان ، ويمكن أن نشير - فى هذا المقام - إلى واحد من الكتب الشهيرة التى تتجه نحو هذا الاتجاه ، وهو كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم ، وقد شارك في كتابته ثلاثون عالما ، بلغوا القمة فى فروع وتخصصات مختلفة من العلم . وقد استخرج كل منهم من مجال تخصصه ما يدفعه دفعا إلى الإيمان بالله تعالى ، بسبب ما هداه بحثه إليه من ملاحظته لمظاهر الإعجاز والإحكام فى جنبات الكون وما فيه من كائنات .

ولن نسترسل فى حشد ما يمكن للعلم أن يقدمه لتأييد هذه الفكرة ولكننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض المسائل ، ومنها :

١ - أن الكون له بداية ونهاية .

٢ - أن المادة موصوفة بالقصور الذاتى .

٣ - أن العلم يرفض تفسير الوجود عن طريق الصدفة .

فأما المسألة الأولى فتثبتها فروع متعددة من العلم كالفلك والجيولوجيا والطبيعة والكيمياء وغيرها ، ويتبين هذا - بإيجاز شديد - فيما يأتى :

أ - اختلف العلماء فى تقديرهم لعمر الكون اختلافا كبيرا ، يصل - فى بعض الأحيان - إلى عدد من ملايين السنين ، وربما زاد الاختلاف - أحيانا - إلى عشرات الملايين أو مئاتها ، ولكن العلماء - على الرغم من اختلافهم هذا - متفقون على أن الكون له بداية ، وهم يعتمدون في إثبات هذه البداية على وسائل متعددة ، من بينها ملاحظة العناصر المشعة فى الكون ، حيث تفقد هذه العناصر طاقتها الإشعاعية بالتدريج ، ولو لم يكن الكون ذا بداية ، لفقدت هذه العناصر إشعاعها منذ زمن بعيد(١) .

---

(١) انظر كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم ص٦ ، ومجلة عالم الفكر ، طبع الكويت ، العدد الأول ص١٧٨ من مقال للدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة .

ب - لاحظ العلماء أن الأجسام تنتقل انتقالا مستمرا من الحرارة إلى البرودة ، ومعني ذلك أن الكون يتجه إلى مرحلة تتساوى فيها حرارة الأجسام أو برودتها ، وينضب فيها معين الطاقة الحرارية . ومعنى ذلك أن تنتهى الحياة فى الكون بصورته الحالية ، ولما كانت الحياة ما تزال قائمة فإن ذلك يوحى لنا بأن نستنتج أن الكون لابد أن يكون له بداية ، لأنه لو لم يكن كذلك فلقد كان يجب أن يكون ما فيه من طاقة وحرارة قد انتهى منذ أمد بعيد ، ولتوقف كل نشاط فى الوجود . وهذه النتيجة مستخلصة مما يسمى بالقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية(١) .

جـ - ويؤكد علم الفلك هذه النتيجة ، حيث لاحظ علماؤه أن الكون فى اتساع دائم ، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام الفلكية ، يتباعد بعضها عن بعض بسرعة مدهشة ، ويمكن أن نفسر هذه الحالة تفسيرا جيدا إذا نحن سلَّمنا بنقطة بداية ، كانت كل الأجرام والأجسام فيها مجتمعة ، ثم انفصل بعضها عن بعض بعد ذلك عن طريق انفجار ، بدأت به الحركة والحرارة(٢) .

د - تدلنا بحوث الكيمياء على زن بعض المواد فى طريقها إلى الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها أسرع من بعض فى الوصول إلى هذه النتيجة وعلى ذلك ، فإن المادة ليست أبدية ، أى أن لها نهاية(٣) .

٢ - ولمكون - إذن - بداية ونهاية ، على الأقل فى صورته الحالية التى يستطيع العلم رصدها وملاحظتها ، والتنبؤ بالمستقبل على ضوئها ، وهنا يمكن أن نتساءل : هل يمكن أن يكون الكون خالقا لنفسه ؟

وقد أجاب الماديون - فى الماضي - على هذا التساؤل بالإيجاب ، زاعمين أن الطبيعة " تحتوى فى ذاتها ، على كل القوى المطلوبة لإحداث صور الوجود القائمة

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص٢٩ .

(٢) وحيد خان : الإسلام يتحدى ، ترجمة ظفر الإسلام خان . المختار الإسلامى ط ٧ / ١٩٧٧ ص ٧٥ .

(٣) الله يتجلى ص ٢٥ .

فيها ، والأنواع ينشأ بعضها من بعض ، بالتحول طبقا لقوانين ، وتبعا لترتيب ، فى الإمكان - منذ الآن - تحديده[1] فلا شىء فى الطبيعة لا يفسر بالطبيعة ، ولا شىء تقدم على الطبيعة ، ولا شىء يسمو عليها ، فالطبيعة عند من يعرف قوانينها ... هى ذاتها التى خلقت نفسها ، والتى تعمل على تقدمها "[2] .

ولكن العلم فى تقدمه قد أزاح هذه التفسيرات من طريقه ، عندما أثبت أن المادة موصوفة بما يسمى : القصور الذاتى ، ومعني هذه الصفة أن المادة - في ذاتها - لا تستطيع أن تفعل شيئا ، وأن كل تغير فيها يرجع إلى سبب خارجي عنها ، وقد صاغ " كانط " الفيلسوف الألمانى هذه الفكرة بقوله : إن المادة - وهى كل شىء تدركه الحواس الخارجية فقط - لا تحددها سوى الظروف الخارجية فى الفضاء ، ولا يطرأ عليها تغير إلا بالحركة ، ومن ثم - (فإنه) طبقا لمبدأ الميتافيزياء - يكون التغير من حركة أخرى ، أو من السكون إلى الحركة راجعا إلى سبب خارجي ، ولا يمكن أن يكون راجعا إلى سبب داخلى ؛ لأن المادة لا تتحدد بأسباب داخلية ، وعلى هذا فإن أى تغير يطرأ عليها يكون له سبب خارجي ، أى أنها تظل فى حالة سكون ، أو تستمر فى التحرك بسرعة ثابتة ، مالم تيتأثر " بسبب خارجى "[3] . وقد عبر نيوتن من قبل عن

---

(١) لم يتوقف هؤلاء الماديون ليسألوا أنفسهم : من الذى أودع فى هذه المادة هذه القوانين ، ومن الذى وضع فيها هذا النظام ، ومن الذى يقوم بحفظه ؟؟ : لا سيما وأن هذه القوانين ليست ذات طبيعة مادية ، بل أنها أسمى من المادة ، ومتحكمة فيها . ثم يسألوا أنفسهم كيف تحيا المادة ، وكيف تحس وتشعر وتفكر وتريد ؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التى لا تجد لها جوابا . انظر:
les fondements ... p . 95 .

(٢) بوترو : العلم والدين فى الفلسفة الحديثة ص ١٠٥ ، ١٠٦ ويتفق الماديون - فى كل عصر - على هذا التفسير المادى للوجود بحيث لا يكون محتاجا إلى إله . انظر على سبيل المثال : روجيه غارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، تعريب إبراهيم قريط . دار دمشق للطباعة والفكر ط٢ ، د . ت ص٥ - ٣٠ ، ثم ٥٢ وما بعدها . وقارن الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، تأليف إ . م بوشنسكى ترجمة د / عزت قرنى سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٩٢ ، ص ٩١ ، ٩٢ فى بيانه لرأى برتراند رسل . ثم فى حديثه عن المادية الجدلية ص ١٠٩ وما بعدها وبخاصة ص ١١٦ - ١١٨ .

(٣) فلسفة العلم ٢١٠ ، ٢١١ .

ذلك فى صورة قانون يقول : إن كل جسم يظل على حاله من السكون أو الحركة المنتظمة المستقيمة مالم يجبره مؤثر خارجى على تغيير مساره[1] ؛ ولا تستطيع المادة - إذن - أن تخلق نفسها ، أو تحول حالتها من عدم إلى وجود ، أو من وجود إلى عدم ، وإذا كان العلم قد أثبت أن للكون بداية فإن ذلك يعنى أنه ليس أزليا ، وأنه مسبوق بالعدم ، والعدم لا ينتج وجودا ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه .

ويتفق العقل المجرد مع ما أثبته العلم من أن المادة ليست سببا لنفسها ، وأنها محتاجة إلى سبب خارجى يكون مصدرا لكل تغير يصيبها ، وقد كان من أسباب هذا الموقف العقلى أن القول بأن المادة هى خالقة نفسها هو قول فاسد ؛ لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الشىء سابقا على وجود نفسه ، لأنه سبب ، وأن يكون فى الوقت نفسه مصاحبا لوجود نفسه ، أو متأخرا عنها ؛ لأنه نتيجة ، وهذا أمر غير مقبول ولا معقول ، لأن العقل يجزم بأن الشىء لا يكون قبل نفسه ، ولا يكون سابقا ومتأخرا فى وقت واحد . ولا يكون علة ذاته ومعلولا لها فى مسألة واحدة هى مسألة خلق الكون ووجوده (٢) .

٣ - وإذا كان الكون لم يخلق نفسه ، فهل خرج إلى الوجود عن طريق صدفة ليس وراءها قصد ولا تدبير ؟ .

ومن الغريب العجيب أن بعض العقول فى القديم والحديث قد قبلت هذه الفكرة ، واعتمدت عليها فى تفسير نشأة الكون والحياة ، وما يحدث من تغيرات . وهؤلاء يقولون إن المصادفة وحدها كافية لتفسير كل نظام ملحوظ في الكائنات الحية ، وضربوا لذلك مثلا : صندوقا من الحروف الأبجدية يعاد تنضيده مئات ، بل ألوف

---

(١) انظر : برتراند رسل ، حكمة الغرب ، جـ٢ / ٥٦ . وانظر : د / يمنى طريف الخولى : الحرية الإنسانية والعلم . دار الثقافة الجديدة ط١ / ١٩٩٠ ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) انظر ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ٣٠٢/٣ ، والشيخ محمد عبده ، رسالة التوحيد ، طبع دار الهلال ١٩٦٣ ص ٥٤ .

وملايين المرات على امتداد الزمان الذى لا تحصره السنون ولا القرون ، ولا مانع عند هؤلاء أن تسفر إحدى هذه المرات عن إلياذة هوميروس ، أو نظرية فلسفية ، أو قصيدة شعرية ذات معنى مفهوم ، أو عن مسألة حسابية ، أو تمرين هندسى ، أو قاموس لغوى أو نحو ذلك مما له معنى من الفكر أو الكلام . ويرى هؤلاء أنه لا مانع فى العقل - عندهم - أن ينتهى هذا الكون الملىء بالاحتمالات والمصادفات فى إحدى هذه المصادفات إلى تكوين كهذا التكوين الذي يبدو عليه ، أو إلى نظام كالنظام السائد فيه(١) .

ولا شك أن التأمل فى هذا المثال يظهرنا على عديد من المشكلات والتساؤلات التى لا تكفى الصدفة لحلها ، ومن هذه المشكلات أن هذا المثال يفترض وجود الحروف ، ولا يفسر كيفية وجودها ، ولا يكشف عن سبب هذا الوجود ، ثم إنه لا يكشف عن طبيعة هذا الذي يقوم بترتيب الحروف وتنضيدها ، ولا يحدد " الدور " الذى يقوم به فى هذا الترتيب والتنضيد . ثم إن هذا المثال يتقبل هذا الاحتمال الذى قد يأتى أو لا يأتى إلا بعد ملايين المرات ، على حين أنه يرفض الاحتمال المنطقى الأقرب إلى القبول ، وهو أن يكون الذى يتولى هذا الترتيب شخصا عاقلا عالما ذا إرادة تحدد له هذا الترتيب ، ولن يكون - عندئذ - مضطرا إلى مثل هذا التكرار الذى قد لا يكون له جدوى أو نتيجة . ولا يفسر لنا هذا المثال - كذلك - السبب الذى من أجله تتوقف المحاولات عند هذه المحاولة التى أنتجت شيئا ذا معنى ، مع أنه لا توجد ضرورة تستلزم ذلك ، ثم من الذى يحكم بأن ما تم التوصل إليه ذو معنى أو لا معنى له ؟ ، وهل من المعقول أن تكون الصدفة التى تعبر فى معناها عن حالة من الفوضى ، وعدم الخضوع للنظام سببا فى التوصل إلى نظام معقول(٢) ؟؟ .

وكل هذه - وأمثالها - مشكلات وتساؤلات لا تفسرها الصدفة ، ولا تجيب عنها . ولعل بعض القدامى كان لهم شىء من العذر ، إذا لجأوا إلى مثل هذا التفسير ، الذى يكشف عن تواضع معارفهم وبساطتها إن لم نقل إنه يكشف عن ضحالتها ، وربما كان هذا مصاحبا لطفولة العقل الإنسانى ، ومحاولاته الأولى لفهم هذا الوجود ،

(١) انظر كتاب عباس العقاد : الله ، طبعة الهلال ١٩٦٨ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) انظر : الله يتجلى : ٢٣ ، ٢٤ ، ٥٤ .

ولكن مثل هذا الفهم لم يعد ملائما لضخامة المعرفة الإنسانية فى عصور ازدهارها وتقدمها ، حيث كشفت مسيرة العلم عن مظاهر النظام والدقة والإتقان التى تتخلل كل ثنايا الوجود ، كما أوضحت ما يخضع له الكون من قوانين ثابتة ، وسنن مطردة ، فمن ذا الذى سن هذه القوانين ، وأودعها فى كل ذرة من ذرات الوجود ، بل فى كل ما دون الذرة عند نشأتها الأولى ؟ ومن ذا الذى خلق كـثم حـفظ ل ذلك النظام والتـوافق والانسجام ؟(١) .

لقـد اتجـه العلم الحديث إلى رفض التفسير بالصدفة ، وأوضح علماؤه أننا لا نلجأ إلى التفسير بالصـدفة إلا عند جهلنا بالقوانين الكامنـة التى تحكم الظواهر التى نلاحظهـا أو ندرسها ، ولا يعني جهلنـا بالقوانين أنها غير موجـودة ، وإنما يعنى أن وسائلنـا وعلومنا لم تصل بعد إلى درجة من الدقـة التى تسمح لنا بمعرفة هذه القوانين (٢) .

وقد وضع العلماء للصدفة قانونا رياضيا ، يوضح إمكان وقوع حادث ما عن طريق صدفة غير محسوبة ، ويشرح أحد كبار العلماء الأمريكيين هذا القانون قائلا : خذ عشرة بنسات ، وضع عليها أرقاما مسلسلة من ١ إلى ١٠ ثم ضعها فى كيس ، وهزها هزا شديدا ، ثم حاول أن تسحبها منه حسب ترتيبها ، إن فرصة سحب البنس رقم واحد هى بنسبة واحد إلى عشرة ، وفرصة سحب الأول بعد وضعه فى الكيس ومعه الثاني متتابعين هى بنسبة واحد إلى مائة ، وفرصة سحب البنسات الثلاثة الأولى بعد وضع الأول والثانى فى الكيس مرة أخرى هي بنسة واحد إلى ألف ، أما فرصة سحب الأربعة الأولى متتابعة فهى واحد إلى عشرة آلاف وهكذا ، وبمقتضى ذلك تكون فرصة سحب البنسات العشرة متوالية هي بنسبة واحد إلى عشرة بلايين ، أى واحد على يمينه عشرة أصفار . ويعلق هذا العالم علي ما سبق بقوله : « والغرض من هذا المثال البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة ، ولابد للحياة

(1) Voir : Comment se pose aujourd ,hui le probbeme de Dieu . par claude Tres montant . Edition du Seuil . Paris 1966 p . 191 et suit .

(٢) انظر : المنطق الحديث ومناهج البحث ، مرجع سابق ص ٨٢ ، ٨٣ .

فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة ، بحيث يصبح من المستحيل حسابيا أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة بمجرد المصادفة ، على أى أرض فى أى وقت »[1] .

وقد حاول عالم آخر أن يطبق قانون الصدفة على خلق جزىء واحد من أجزاء عنصر واحد ، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد ، إلا بنسبة واحد إلى رقم عشرة ، مضروبا فى نفسه مائة وستين مرة ، وهو رقم لا يمكن النطق به ، أو التعبير عنه بكلمات . وينبغى أن تكون كمية المادة اللازمة لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات . أما الزمن اللازم فهو بلايين لا تحصى من السنين ، قدرت بأنها عشرة مضروبة فى نفسها مائتين وثلاثا وأربعين مرة ، ومعنى ذلك كله أن من المحال عقلا أن تتألف كل هذه المصادفات لكى تبنى جزيئا بروتينيا واحدا [2] .

ولنا أن نتساءل : إذا كان تكوين جزىء واحد يحتاج إلى كل هذه المصادفات الهائلة ، وإلى هذه الكميات الضخمة من المادة ، ثم إلى هذا الزمن الذى لا يمكن قياسه . فما هى المقادير اللازمة لتكوين عنصر البروتين ؟ ثم ما هى المقادير اللازمة لتكوين بقية العناصر التى كشف العلماء منها ما يزيد على مائة عنصر ، مرتبة ترتيبا تصاعديا بحسب أوزانها الذرية ؟[3] ثم ما هى المقادير اللازمة لبناء الأجسام على اختلاف فصائلها وأنواعها وأجناسها ؟ إلى تساؤلات كثيرة يمكن إيرادها . فإذا كانت الصدفة عاجزة - فى منطق العلم[4] - عن تكوين جزىء واحد فهل تكون قادرة على

---

(١) كريس موريسون : العلم يدعو للإيمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى ، النهضة المصرية ، ط٦/١٩٧١ ص ٥١ وانظر أيضا ١٩٣ - ١٩٦ .

(٢) الله يتجلى ص ٩ ، ١٠ .

(٣) مثل جدول مندليف الذى رتب فيه العناصر ، وقد رصد منها مائة وثلاثة من العناصر .

(٤) هناك قانون للمصادفة يقول : إن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص ، بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة . وكلما تعددت الإمكانات أصبحت الصدفة أكثر استحالة . انظر : قصة الإيمان ٢٩٣ وما بعدها .

خلق هذا العالم بما يتصف به من ضخامة وتنوع وسعة ؟ ثم هل تكون قادرة على إخضاعه لهذه القوانين والسنن المطردة ، التى لا تتخلف ؟؟ ثم هل تستطيع أن تفسر لنا ما فى هذا العالم من حكمة واتقان يبلغان حد الروعة والإعجاز ؟ إن هذا العقل لا يصدق أن الصدفة أوجدت بيتا مجهزا أو جهازا دقيقا أو آلة محكمة أو معجما لغويا أو قصيدة شعرية ، فهل يصدق هذا العقل نفسه أن الصدفة هى التى تحكم هذا الوجود : خلقا ونظاما وحفظا وإمدادا ؟

إن الإجابة الوحيدة البدهية ، وهى الإجابة الصحيحة الموافقة للفطرة والعقل والعلم - هى أن الصدفة لا تصنع شيئا ، وأن خالق الوجود كله هو الإله ، الموصوف بأعلى وأعظم مراتب العلم والحكمة والقدرة . وهذه هي نفسها إجابة الدين الحق ، الذى يرجع الأمر كله لله وحده ، وبذلك يتلاقى العقل والفطرة ، ويتفق العلم والدين على تأكيد هذه العقيدة التى تمثل جوهر الإيمان وأساسه المتين .

- « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنّى تُصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يومنون . قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل الله يهدى للحق . أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يَهِدِّى إلا أن يُهدى ؟ فمالكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون » (يونس : ٣٢ - ٣٦) .

« توحيد الله تعالى »

تمهيد :

إذا كان الإيمان بالله تعالى هو جوهر العقيدة ومحورها ، فإن هذا الإيمان لا يكون صحيحا مقبولا عند الله سبحانه وتعالى إلا إذا صحبته عقيدة التوحيد ، وهى تعنى إثبات الألوهية لله تعالى وحده ، ونفيها عمن سواه ، فهو - وحده - الإله الحق ، رب كل شىء ، ومالك كل شىء ، ليس له ند ولا شريك ، « لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » (الإخلاص ٣ ، ٤) ، « رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سَمِيًّا ؟ » (مريم : ٦٥) .

وقد جاء الرسل - عليهم السلام - جميعا بدعوة الناس إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم ، مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (الأنبياء : ٢٥) ، ويقول : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » (النحل : ٢) وفى ذلك يقول الرسول - عليه السلام : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له »(١) وقد جعل الرسول النطق بكلمة التوحيد ، والإقرا بها أفضل شعب الإيمان ، كما جعله عاصما للدم والمال ، ومنجيا من الخلود فى النار(٢) . ويدلنا ذلك على ما لعقيدة التوحيد من أهمية بالغة ، ولهذا كانت موضع عناية القرآن الكريم ، من حيث الدعوة

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب أبواب الدعوات ، باب فى فضل لا حول ولا قوة إلا بالله بلفظ خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى ... » وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » وفى إسناده من ليس بالقوى عند أهل الحديث ٥/ ٢٣١ ورواه مالك فى الموطأ ، تخريج محمد فؤاد عبد الباقى طبعة الشعب . كتاب القرآن ، باب ما جاء فى الدعاء بلفظ : ... وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى ... » ص١٥٠ وانظر تخريج الحافظ العراقى لأحاديث الإحياء ٣٣٢/١ . وكشف الخفاء للعجلونى ١٥٣/١ .

(٢) انظر أحاديث كثيرة تدل على ذلك فى صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان ١ / ١٦٦ - ٢١٠ .

إلى الإيمان بها ، والبرهنة عليها ، ومناقشة المخالفين لها ، وذكر لوازمها ومقتضياتها في العبادة والأعمال والأخلاق .

أ - من أدلـة التوحيـد : واتباعا لمنهج القرآن في بناء العقيدة على العلم والبرهان ساق القرآن بعض الأدلة التي تثبت هذه العقيدة وتؤيدها . ومنها :

١ - أن مـا في الكون من سنن ثابتـة ، وقوانين مطردة ، ونظام محكم يدل على وحدانية الإله الخالق لهذا الكون ؛ لأنه لو اشترك في الخلق أكثر من إله لفسد الوجود ؛ لأن من شأن الإله أن يكون تام العلم نافذ الأمر مطلق الإرادة ، كامل القدرة . فإذا كان كل واحد منهم متصفا بهذه الصفات فلابد أن تظهر آثارها في الوجود ، وعندئذ يقع التنازع والاختلاف الذي يؤدي إلى الفساد ، ويتفق هذا مع ما استقر في فطرة البشر من أن تعدد الرئاسة للشيء الواحد يؤدي إلى تضارب الآراء واختلاف الأهواء ، فإذا كان هذا من صفات البشر الذين يتصور انقياد بعضهم لبعض ، فكيف يكون الأمر بالنسبة للألوهية التي تقتضي الكبرياء والعلو والهيمنة والقيومية ؟

وهكذا يؤدي التعدد إلى الفساد ، ولما كان الكون بريئا من الاختلاف ، منزها عن الفساد ، فإن ذلك دليل على وحدة خالقه وصانعه ، وهو الله تعالى . وفي ذلك يقول القرآن :

- « لو كان فيهما (أي السموات والأرض) آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (الأنبياء : ٢٢) .

- « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »[١] (المؤمنون : ٩١) .

---

(١) عندما نقوم بحل تمرين هندسي نفترض فرضا ، ثم نرى نتائجه . فإن كانت صحيحة كان ذلك دليلا على أن الفرض صحيح ، أما إذا كانت نتائجه فاسدة فإن ذلك يكون دليلا على فساد هذا الفرض ، وتسمى هذه الطريقة في المنطق بطريقة " التفنيد " ، وقد بين القرآن أن افتراض تعدد الآلهة يؤدي إلى فساد الوجود ، لكن الوجود غير فاسد ، إذن فهذا الافتراض فاسد ، والقول بوحدانية الإله هو الصحيح . ويسمى الدليل الذي استخلصه المتكلمون من الآية الأولى هنا دليل التمانع ، وما

- « قل لو كان معه آلهة - كما يقولون - إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » (الإسراء : ٤٢ ، ٤٣) .

٢ - أوضح القرآن الكريم أن الإيمان باله واحد هو الذى يستقيم مع الفطرة الإنسانية ؛ لأن مثل هذا الاعتقاد يؤدى إلى استقامة الشعور ، ووحدة الاتجاه ، ووحدة الولاء ؛ لأن صاحب هذه العقيدة يرجع الأمر كله لله : خلقا ورزقا ، وإحياء وإماتة ، وتصريفا وتدبيرا ، وإعطاء ومنعا ، ورفعا وخفضا . فإذا آمن الإنسان بهذا إيمانا راسخا ثابتا فى القلب والضمير ، فإنه لن يتوجه - عندئذ - بقلبه ومشاعره وعبادته إلا لهذا الإله وحده ، يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ، لا يتوكل إلا عليه ، ولا يلجأ إلا إليه ، ولا يطلب حوائجه إلا منه ، تقر عينه بعبادته ، ويهفو قلبه إلى قربه ومحبته ، يصبر على بلائه ، ويرضى بقضائه ، يشكو إليه ضره ، ويرجو منه خيره وبره ، وهو - فى هذا كله - موصول القلب بربه ، ليس بينه وبين مولاه حجاب ، ولا وسائط ولا أسباب ؛ لأن معبوده قريب مجيب ، حاضر لا يغيب ، لا تنفذ خزائنه ، ولا تنقطع مواهبه ، فهو يتقلب فى خيره وعطائه ، فيزداد لله شكرا وطاعة وقربا . فإذا كان المؤمن ، على هذه الحال ، استقامت نفسه ، واطمأن قلبه وتوحدت مشاعره ، وتحددت قبلته « إن ربى على صراط مستقيم » (هود : ٥٦) .

= قالوه فى هذا الدليل إننا إذا افترضنا وجود إلهين ، وأراد أحدهما شيئا فإما أن يستطيع الآخر إرادة ضده أولا يستطيع ، وكلا الأمرين محال ، لما يترتب عليهما من النتائج الباطلة ، لأنه إذا أراد أحدهما حركة شىء ، وأراد الثانى سكونه فإما أن يقع الأمران معا ، وهذا غير ممكن لأن الشىء لا يكون متحركات ساكنا فى وقت واحد باعتبار واحد ، وإما أن يتخلف الأمران معا فيكون الشىء لا ساكنا ولا متحركا وهذا باطل أيضا لأن الشىء لابد أن يوصف بواحد منهما فيكون متحركا أو ساكنا ، ثم يلزم وصف الإلهين - على هذا الفرض - بالعجز لعدم نفاذ إرادتهما . فإذا تحقق مراد أحدهما دون الآخر - فالذى تحقق مراده يكون هو الإله ، أما العاجز فلا يوصف بالألوهية . ارجع اللمع للأشعرى ، تحقيق د / حمودة غرابة ، مطبعة مصر ٢٠ ، ٢١ والتمهيد للباقلانى تحقيق أبى ريدة والخضيرى دار الفكر العربى ١٩٤٧ ص٤٢ وأصول الدين للبغدادى طبع دار الكتب العلمية بيروت ص٨٥ ، ٨٦ والمواقف لعضد الدين الإيجى ، طبع عالم الكتب ، بيروت ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ وفى التوحيد لأبى رشيد النيسابورى . تحقيق د / أبو ريدة . مطبعة دار الكتب ١٩٦٩ ص٦٢٨ والتوحيد للماتريدى ، تحقيق د / فتح الله خليف ، طبع بيروت ١٩٧٠ ص٢٠ ، ٢١ ، ٨٣ . وانظر نقد ابن رشد لهذا الدليل فى مناهج الأدلة ١٥٨ ، ١٦٠ .

أما إذا آمن بأكثر من إله ، فإنه لن يهدأ له بال ، ولن يستقر له قرار ، ولن يحس قلبه طمأنينة ولا سكينة ؛ لأن لكل واحد منهم واجبات ومطالب واجبة الأداء ، وعندئذ يحس بالحيرة والعجز ؛ لأنه لن يستطيع الوفاء بهذه المطالب جميعا ، فإذا أدى حق واحد منهم قَصَّر فى حقوق الآخرين ، وإذا أرضى واحدا أسخط الآخرين ، وعليه - عندئذ - أن ينتظر السخط والعقوبة ممن وقع فى حقه التقصير .

ويمكن استخلاص هذه المعانى من قوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سَلَمًا لرجل هل يستويان مثلا ؟ .. » (الزمر : ٢٩) والآية تقارن بين رجلين أحدهما : مملوك لعدد من الشركاء المتشاكسين ، الذين تختلف مصالحهم وأهواؤهم ، وثانيهما : مملوك لسيد واحد ، فهل يتساوى هذان الرجلان ؟ والإجابة البدهية : أنهما لا يستويان ، لأن الأول منهما يكون موزع النفس والخاطر بين هؤلاء الشركاء ، مقسم الوقت والجهد والعمل بينهم ، على عكس الثانى الذى يتجه بقلبه ومشاعره ووقته وجهده إلى سيد واحد فقط .

والإيمان بالتوحيد يؤدى - إذن - إلى التوافق النفسى الذى لا تشعر النفس معه بانقسام أو انفصام ، أما الوقوع فى براثن الشرك والتعدد فإنه يؤدى إلى مشاعر مرهقة من الخوف والقلق والحيرة ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

- « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (الحج : ٣١) .

- « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران .. » (الأنعام : ٧١) .

ب - التوحيد والفطرة :

وهكذا يكون الإيمان بالتوحيد مستقيما مع دواعى الفطرة ، التى غرسها الله تعالى فى الإنسان عند خلقه له ، ويتفق هذا مع الاعتقاد الدينى فى أن الله تعالى خلق آدم بيده ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكته ، وأخذ عليه العهد بطاعته

وعبادته ، وليس غريبا أن يُلقِّن آدم ذريته عقيدة التوحيد ، ثم يتفق هذا - كذلك - مع الآيات والأحاديث التى تتحدث عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وأنه لا تبديل لها ، ويدل على ذلك الحديث القدسى الذى يقول الله تعالى فيه : « ... وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرَّمتْ عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا »(١) .

وينحاز إلى هذا الرأى كثير من أصحاب الدراسات الإنسانية والاجتماعية الذين لاحظوا وجود عقيدة التوحيد لدى بعض القبائل البدائية المنعزلة عن الحضارة ، وهى قبائل متفرقة فى مواطن كثيرة من الأرض كاستراليا وأمريكا ، وقد انتهت هذه الدراسات إلى أن الروح الإنسانية إذا كانت قادرة على أن تعرف الله فإنه يجب أن تكون قادرة على إدراك أنه لا يوجد إلا إله واحد ، وهذا يؤكد أن الدين البدائى الذى اعتنقه الإنسان القديم كان توحيديا وليس تعدديا ، ويستند هؤلاء إلى معطيات التاريخ التى تثبت أن كل صور الدين كانت توحيدية ، أسست على عبادة إله واحد ، متميز عن الكون : وقد كانت هذه العقيدة وحيا من الله تعالى إلى الإنسان الأول ، ثم جاء الوحى المتتابع ليؤكدها ويقويها ، فيما عرفناه من الرسالات الإلهية لدى اليهود ومن جاءوا بعدهم من الرسل(٢) ولا ينكر هؤلاء أن البشرية قد وقعت فى الشرك والتعدد فى فترات كثيرة من تاريخها ، ولكنهم يلاحظون أنه ، على الرغم من هذا التعدد ، كانت الشعوب تعتقد فى الوقت نفسه بوجود إله أعلى أو أعظم ، مما يدل على أصالة عقيدة التوحيد ، فى النفس البشرية(٣) .

---

(١) صحيح مسلم . كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ... ٧١٦/٥ - ٧١٩ وانظر مسند أحمد ١٦٢/٤ والحنفاء جمع حنيف ، وهو المائل ، والمقصود به : المائل عن الباطل إلى الحق أى المؤمن الموحد .

(٢) Voir : les fondements ...o . p . cit . pp 247, 248

وانظر الدين للدكتور دراز ١١٢ ، ١١٣ ونشأة الدين للدكتور على سامى النشار ، نشر دار الثقافة بالإسكندرية ١٩٤٩ ، ٣ ، ١٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٩٣ .

(٣) انظر : الدين : د/دراز ١٠٧ ، ١٠٨ ويلاحظ أنه يوجد اتجاه آخر يقول بالتطور من التعدد إلى التوحيد . انظر المراجع السابقة وقارن كتاب : الله ، للعقاد ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، وكتابه إبراهيم أبو الأنبياء ، المكتبة العصرية - بيروت ١٩٨١ ص ١٨١ .

ولعل مما يؤكد هذا أن الإنسان إذا نزل به ضر أو وقع له مكروه لا يجد أمامه ملجأ ولا ملاذا إلا الله الواحد الأحد .

- « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » (الإسراء : ٦٧) .

- « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتي إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين ... » (يونس : ٢٢) .

وإنما تتجه النفس إلى الإله الحق وحده دون سواه ، لاعتقادها أنه هو - وحده - الذى يستطيع أن يكشف عنها ضره ، ويصرف عنها ما نزل بها من مكروه أو بلاء ، لأن بيده مقاليد كل شيء ، أما من سواه فإنه ليس له من الأمر شيء[1] .

- « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا ، وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » (الفرقان :٣) .

ويذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لرجل قبل إسلامه : « كم لك من إله ؟ قال : عشرة ، قال : فمن لغمك وكربك ، ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك من جملتهم ؟ قال : الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : مالك من إله إلا الله »[2] .

جـ - الرد على المخالفين لعقيدة التوحيد :

على الرغم من أن التوحيد هو الموافق للفطرة ، فقد انحرفت عنه البشرية فى فترات كثيرة من تاريخها ، ولذلك كانت المهمة الأولى للأنبياء أن يقاوموا هذا الانحراف ، وأن يعودوا بالناس إلى عقيدة التوحيد الخالصة .

---

(١) وقد اضطر فرعون - الذى ادعى الألوهية ، وقال للناس في جرأة عجيبة : « ما علمت لكم من إله غيرى - إلى الإقرار بالألوهية والإذعان لها عندما أدركه الغرق فقال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » (يونس : ٩٠) .

(٢) تفسير الفخر الرازى : (مفاتيح الغيب) ٣١٨/١ وورد برواية أخرى فى سنن الترمذى ، أبواب الدعوات ١٨٢/٥ وانظر تفسير ابن كثير ٤٩٥/٥ فيما رواه عن قتادة .

وقد حدثنا القرآن عن نماذج لهذا التعدد الذى وقعت فيه الأمم قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء قوم نوح عليه السلام الذين قالوا : « ... لا تذرنَّ آلهتكم ولا تذرن وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يغوث ويعوق ونَسْرًا » (نوح : ٢٣) وقوم إبراهيم الذين عبدوا الأصنام وغيرها كالكواكب والنجوم(١) وقوم هود(٢) بل وقع فيه أقوام بعض الأنبياء بعد أن أراهم الله تعالى عجائب قدرته وآياته ، ومن هؤلاء قوم موسى الذين نجاهم الله تعالى من بطش فرعون ، الذى أغرقه الله تعالى فى البحر ، وقد كان المتوقع من هؤلاء أن يشكروا الله على نعمته ، ولكنهم عندما عبروا البحر رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم « ... قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون » (الأعراف : ١٣٨) وليس هذا ادعاء على اليهود ، بل إن دراسة التوراة تثبت هذا ، فلقد نظروا إلى الألوهية نظرة عنصرية ، وجعلوا الرب الذي أرسل موسى إلها لبنى اسرائيل وحدهم ، لأنهم هم الشعب المختار بحسب اعتقادهم .

ويذكر بعض دارسى التوراة أن النصوص القديمة فى التوراة لم تضع موضع الشك وجود آلهة آخرين ، لكنها - فقط - كررت على اليهودى أنه يجب عليه أن يعبد - على وجه الخصوص - الإله الخاص بقبيلته أو بشعبه(٣) . وقد تحول التوحيد لدى كثير من أتباع عيسى عليه السلام إلى تعدد وتثليث(٤) ، ثم كان من أسباب ذلك أنهم هم واليهود « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » (التوبة : ٣١) . وكان في العرب - عند ظهور الإسلام - من يعبد الكواكب والجن والملائكة والأصنام ، فإذا سئلوا عن ذلك - مع إقرارهم بالإله الخالق - قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (الزمر : ٣) .

---

(١) راجع مثلا : الآيات ٧٤ - ٨٢ من سورة الأنعام ، ٥١ - ٧٠ من سورة الأنبياء ، ٦٩ - ٧٧ من سورة الشعراء ، ومواضع أخرى فى سورة العنكبوت والصافات إلخ .

(٢) راجع مثلا : الآيات ٥٠ - ٥٥ من سورة هود .

(٣) voir : H . De Glasenapp , croyances et rites des grandes religions . payot , Paris 1966 p . 95 .

(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مجلد ٢ جـ٢/٣٣٨ - ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ وتطور العقائد لجنيبير ٥٩ .

ويدلنا النظر فى تاريخ الحضارات على وقوع كثير منها فى الشرك . ومنها الحضارة الفارسية التى اتخذت فى بعض مراحلها إلهين : أحدهما للنور أو للخير ، والثانى للظلمة أو الشر ، ثم الحضارة الهندية والحضارة المصرية القديمة التى عبدت آلهة متعددة طبيعية وبشرية قبل أن يظهر فيها نوع من التوحيد علي يد أخناتون ، وينطبق هذا التعدد على الحضارة اليونانية التى كثرت فيها الآلهة كثرة واضحة ، حتى إن المؤرخين قسموها إلى سبع مجموعات : آلهة السماء ، وآلهة الأرض ، وآلهة الخصب ، والآلهة الحيوانية (كذا) وآلهة ما تحت الأرض ، وآلهة الأسلاف ، والأبطال والآلهة الأوليمبية ، أما أسماؤها فهى من الكثرة بحيث يشق على الإنسان ذكرها (١) .

وإذا كان الشرك والتعدد على هذا النحو من الذيوع والشيوع ، فلقد كان ينبغى مواجهته والرد عليه ، حتى تسلم عقيدة التوحيد فى نفوس المؤمنين بها من الشبهات ، خاصة وأن بعض من انحرفوا بهذه العقيدة كانوا يجاورون المسلمين ، أو يعايشونهم ، فى داخل المجتمع الإسلامى .

١ - وقد رد القرآن على أهل التثليث ممن ينتسبون إلى عيسى عليه السلام . وأوضح القرآن في رده عليهم أن عيسى قد أتى بعقيدة التوحيد التى أتى بمثلها إخوانه من الأنبياء ، كما أنكر عيسى نفسه أن يكون إلها ، أو أن توصف أمه بالألوهية ، ولكنه عَبْدُ الله ورسوله . وقد حذر قومه من الشرك بالله تعالى ، ودعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد . ويدل علي ذلك آيات كثيرة من القرآن منها قوله تعالى :

- « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » (المائدة : ٧٢) .

وذكر القرآن أن تأليه عيسى ليس إلا نوعا من الغُلُوِّ ، والقول على الله بغير حق ، ولذلك يجب العدول عنه « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، مجلد ٢ جـ١ / ٣١٧ - ٣٢٧ .

إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا » (النساء : ١٧١) .

ولم يكتف القرآن بالحديث عن بشرية عيسى ورسالته ، وعبادته لربه ، وتنزيهه الله تعالى عن أن يكون له شريك فى الألوهية[١] ، بل أشار القرآن إلى ما يتصف به عيسى من صفات لا يمكن أن تكون من صفات الألوهية ، بل إنها - على القطع - من صفات البشر المخلوقين ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ما المسيح بن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » (المائدة : ٧٥) .

والحاجة إلى الطعام ليست من صفات الألوهية ، وإنما هى من صفات البشرية . والله يتنزه عن هذه الحاجة وعما يرتبط بها من جوع وضعف وهزال ، وعما يترتب عليها من هضم وتخلص من بقايا الطعام ، فالله - عز وجل - يُطْعِم (بكسر العين) ولا يُطْعَم (بفتح العين) ، وهو الرزاق للعباد ، وهم لا يرزقونه ، ويطعمهم من خيره وهم لا يطعمونه ، وهو الغنى عن العالمين ، وهم مفتقرون إليه « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (الذاريات ٥٧ ، ٥٨) فإذا كان المسيح عليه السلام يأكل الطعام فإن ذلك دليل حاسم على أنه بشر ، وليس بإله .

وقد جاء فى السنة النبوية ما يؤيد حجة القرآن ويفصلها ، وذلك فى جدال الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران ، حول طبيعة المسيح عليه السلام ، فقد أثبتوا له الألوهية ، لأنه ولد من غير أب ، وقالوا للرسول : من أبوه ؟ فقال لهم النبى : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ فقالوا : بلى .

(١) وارجع كذلك إلى آية ٥٩ من سورة آل عمران ، ٧٣ ، ١١٧ من سورة المائدة ، ١٠١ من الأنعام ، ٣٠ - ٣٦ من سورة مريم ، ٥٧ - ٦٤ من سورة الزخرف ، ومواطن أخرى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ، ويحفظه ويرزقه ؟ .

قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما عُلِّم ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، ولا يحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فسكتوا . فأنزل الله عز وجل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها(1) .

وقد كان مما جاء فى هذه الآيات وصف الله تعالى بأنه الحى القيوم . " الحى الذى لا يموت ، وقد مات عيسى وصلب فى قولهم . والقيوم : القائم على مكانه ، من سلطانه فى خلقه لا يزول ، وقد زال عيسى فى قولهم عن مكانه الذى كان به ، وذهب عنه إلى غيره .

---

(1) انظر الواحدى : أبو الحسن على بن أحمد ، أسباب النزول ، دار المعرفة بيروت د . ت . ص ٦٨ ، وانظر ٧٤ ، ٧٥ وتفسير الطبرى وابن كثير لهذه الآيات .

وكان مما وصف الله تعالى به نفسه قوله : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » (آل عمران : ٦) أى قد كان عيسى ممن صور فى الأرحام ، لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه ، كما صور من ولد آدم ، فكيف يكون إلها وهو بذلك المنزل؟ " (١) .

ثم كان من وصف الله تعالى لنفسه ما أمر به رسوله « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » (آل عمران : ٢٦ ، ٢٧) ، أى لا يقدر على ذلك إلا الله ، ولا يصنعه إلا هو . فكأن الله تعالى يقول لهم : « فإن كنت سلطت عيسى على الأشياء التي بها يزعمون أنه إله من إحياء الموتى ، وإبراء الأسقام ، والخلق للطير من الطين ، والإخبار عن الغيوب ، لأجعله بها آية للناس ، وتصديقا له فى نبوته التى بعثته بها إلى قومه ، فإن من سلطانى وقدرتى مالم أعطه (إياه ، مثل) تمليك الملوك ... ووضعها حيث شئت ، وإيلاج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، وإخراج الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، ورزق من شئت من بر أو فاجر بغير حساب . فكل ذلك لم أسلط عيسى عليه ، ولم أملكه إياه ، أفلم تكن لهم فى ذلك عبرة وبينة ، أن لو كان إلها كان ذلك كله إليه ، وهو فى علمهم يهرب من الملوك ، وينتقل منهم فى البلاد من بلد إلى بلد »(٢) .

ثم ذكر الله فى هذه الآيات ولادته ونبوته ورفعه إلى الله ، وإنقاذه ممن أرادوا أن يمكروا به ، ثم رد على من وصفوه بالألوهية لأنه ولد من غير أب فقال : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون » (آل عمران : ٥٩) .

فإن قالوا : " خلق عيسى من غير ذلك فقد خلقت آدم من تراب ، بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذكر ، فكان كما كان عيسى لحما ودما ، وشعرا وبشرا ، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا "(٣) فإذا صح فى زعمهم أن يكون عيسى إلها فليجعلوا آدم إلها ، لأن خلقه أعجب من خلق عيسى .

(١) سيرة ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، مرجع سابق ٥٧٦/١ .
(٢) السابق ٥٧٨/١ .
(٣) السابق ١ / ٥٨٢ .

وعرف وفد نصارى نجران أن حجتهم داحضة ، ولكنهم أصروا على رأيهم ، بسبب العصبية الشديدة والتقليد لما نشأوا عليه ، وعندئذ أوحى الله تعالى إلى نبيه أمرا لم يخطر لهم على بال ، حيث أمر الرسول بما سمى " المباهلة " وهى التى تضمنها قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ، الحق من ربك ، فلا تكن من الممترين ، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم ، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » (آل عمران : ٥٩ - ٦٣) .

وخرج إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام ومعه على بن أبى طالب ، وزوجه فاطمة الزهراء بنت الرسول ، وولداهما الحسن والحسين(١) ، ولو لم يكن الرسول على ثقة من أمره ، ويقين من وحى الله إليه ، واعتقاد جازم فى تحريف هؤلاء لما جاء به عيسى عليه السلام لما خرج إليهم بنفسه وبفلذة كبده : فاطمة ، وولديهما ، وهم من أحب الناس إليه ، ولكن الوفد لم يخرج ، وطلبوا من الرسول مهلة يتدبرون أمرهم ، وقد خشوا على أنفسهم من المباهلة ، وخافوا أن تكون سببا فى نزول عذاب من الله إليهم ، يستأصل به كبيرهم ، ولا يبقى صغيرهم ، فمالوا إلى الموادعة ، واستأذنوا الرسول أن يتركهم على دينهم ، وطلبوا منه أن يرسل معهم رجلا من أصحابه ، يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من أموالهم ، فرضى الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ذلك، وأرسل معهم أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح(٢) ولو كان هؤلاء على يقين من صحة عقيدتهم لأقاموا الحجة عليها ، أو لقبلوا المباهلة التى تحداهم الوحى بها . ثم أنزل الله بعد هذا قوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (آل عمران : ٦٤) .

(١) سيرة ابن هشام ٥٨٢/١ .
(٢) تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٤٤/٢ ، ٤٥ .

٢ - وقد عنى القرآن والسنة عناية بالغة بالرد على المشركين ، لأن الوقوع فى الشرك كان شائعا عند كثير من الأمم كما سبق القول ، ثم لأن العرب الذين ظهر فيهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقعوا فيه أيضا ، ولذلك تعجبوا من الدعوة إلى عبادة الإله الواحد، وقالوا : « أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشىء عجاب ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » (ص : ٥ ، ٦) وقد بين القرآن أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من صفات الألوهية شىء . فهم لا يخلقون شيئا ، بل إنهم مخلوقون ، وينطبق ذلك على كل شىء عبده الناس من دون الله ، من البشر ، أو الملائكة ، أو الجن أو الكواكب أو الأمور الموجودة فى الطبيعة ، أو الأصنام التى يصنعها الناس بأيديهم . والمخلوق لا يمكن أن يكون إلها ، لأنه يأتى بعد عدم ، ثم يمضى إلى فناء ، وهو بينهما محتاج إلى من يخلقه ، ويرزقه ويحفظه ويتولى أمره ، فكيف يكون المخلوق المحتاج الفانى إلها ؟ وكيف ينتظم أمر الوجود فى غيبته ، قبل وجوده أو بعد موته ، أو عند مرضه ونومه إن كان من الأحياء ؟ ولقد استدل إبراهيم عليه السلام على بطلان ما اعتقده قومه من ربوبية الكواكب بأنها تغيب ، والإله لا يغيب « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برئٌ مما تشركون » ثم بين لقومه أنه لا يستحق الربوبية إلا من له صفة الخلق والغنى والقيومية « إنى وجهت وجهى للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » (الأنعام : ٧٦ - ٧٩) .

وقد بين القرآن أن هؤلاء الشركاء لا يستطيعون أن يجلبوا للمؤمنين بهم رزقا « ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون » (النحل : ٧٣) .

ولا يستطيعون أن يجلبوا لهم نصرا « ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون » (الأعراف : ١٩٢) .

ولا يستطيعون أن يدفعوا عنهم ضرا « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » (الإسراء : ٥٦) .

بل إن هؤلاء الشركاء لا يملكون شيئا من هذا كله لأنفسهم « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » (الفرقان : ٣) .

ثم بيّن القرآن أن الكواكب والنجوم وأمثالها مُسَخَّرة خاضعة لأمر الله تعالى ، والمسخَّر لا يكون ربا خالقا ولا إلها معبودا ، وأن الملائكة والجن مخلوقون مسئولون أمام خالقم الذى « لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون » (الأنبياء : ٢٣) وأن الصالحين منهم الملائكة فهم عباد مكرمون ، أما الجن فإنهم محاسبون على عصيانهم إذا عصوا ممن يملك حسابهم ، وهو ربهم وخالقهم « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » (الجن : ١٤ ، ١٥) .

وينطبق هذا - من باب أولى - على البشر ، الذين ينبغى أن يكونوا أدرى بضعف أنفسهم ، وعجزهم عن التدخل فى أهم ما يقع لهم ، من حيث الولادة والموت ، واحتياجهم فيما بينهما إلى الحفظ والعناية « قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا هم منا يصحبون » (الأنبياء : ٤٢ ، ٤٣) .

أما الأصنام فإن التوجه إليها بالعبادة يعد انتكاسة للعقل البشرى الذى تتسلط عليه الأوهام والجهالات ، والتقليد ، فتحجبه عن الحق والهدى ، وتجعله يستسيغ أن يصنع من الحجر صنما ، ثم يضفى عليه من القداسة والتعظيم ما يجعله يتوجه إليه ، طالبا بركته وهدايته ونصره ، وقد وصف القرآن قوم إبراهيم عليه السلام ، الذين كانوا يعبدون الأصنام بقوله : « ثم نكسوا على رءوسهم ... » (الأنبياء : ٦٥)[1] .

---

(١) وقد وصفوا بذلك بعد أن حطم إبراهيم عليه السلام أصنامهم إلا كبيرا لهم ، فلما علموا بذلك سألوا إبراهيم إن كان هو الذى فعل هذا ، فأجابهم بأن الذى فعل هذا هو كبيرهم ، وأنه يمكن لهم أن يسألوه : وكان من الممكن أن يدفعهم التأمل في الأمر إلي الاهتداء إلى الحق ، لكنهم =

وقد سخر القرآن سخرية بالغة من هذه الأصنام ومن يعبدونها ، وبين أنها عاجزة عن أن تفعل شيئا ، بل إنها عاجزة عن اتباع الهدى إذا دعيت إليه ، لأنها جمادات صماء لا تعقل ولا تعى . وقد تحدى الله المشركين أن يجربوا ذلك بأنفسهم ، حتى يتبين لهم هذا العجز المطلق الذى توصف به ، ثم وصف الله هذه الأصنام بما يؤدى إلى السخرية منها عندما تساءل " ألهم أرجلٌ يمشون بها ؟ أم لهم أيدٍ يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ " ثم يأمر الله ورسوله أن يقول لهم : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » (الأعراف ١٩٥ ، وانظر كذلك الآيات من (١٩١ - ١٩٨) .

بل يصل الأمر فى السخرية والتحدى إلى أن يذكر لهم القرآن أن هؤلاء الشركاء الذين يعبدونهم من دون الله سوف يكونون وقودا للنار ، هم ومن يؤمنون بهم ، وهذا أبلغ دليل على عجزهم ، وفساد رأى أتباعهم « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون » (الأنبياء : ٩٨ ، ٩٩) .

وهكذا تكررت دعوة القرآن إلى هؤلاء المشركين أن يراجعوا عقولهم ، وأن يفيقوا من غفلتهم ، وأن يطيلوا التأمل والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى أنفسهم ، لأنهم سيجدون - عندئذ - أبلغ الدلالات على أنه لا يستحق وصف الربوبية إلا إله واحد هو الله الواحد القهار :

= " نكسوا على رءوسهم وقالوا : لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " وعندئذ كانت الفرصة سانحة أمام إبراهيم ليسخر منهم قائلا : " أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون " .

راجع القصة فى سورة الأنبياء : ٥١ - ٧٣ .

- « قل الحمدُ الله ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ، اللهُ خير أم ما يُشركون ؟ أم منْ خلق السموات والأرضَ وأنزل لكُم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجةٍ ما كانَ لكم أن تنبتوا شجرَها أإلهٌ معَ الله ؟ بل هم قومٌ يعدلون . أمْ مَنْ جعل الأرضَ قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعلَ بينَ البحرين حاجزا ، أإلهٌ مع الله ؟ بل أكثرُهُم لا يعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوءَ ، ويجعلُكُمْ خلفاءَ الأرضِ ، أإلهٌ مع الله ؟ قليلا ما تذكّرون . أم من يهديكم فى ظلماتِ البرِّ والبحرِ ومن يرسل الرياح بُشرا بين يدى رحمته أإلهٌ مع الله ؟ تعالى اللهُ عما يشركون . أم من يبدأُ الخلقَ ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرضِ ، أإلهٌ مع الله ؟ قلْ هاتوا بُرهانكم إنْ كنتم صادقين » (النمل : ٥٩ - ٦٤) .

وقد كرر القرآن التحدى لهم بأن يقدموا برهانا على صحة الشرك الذى يعتقدونه[1] ، ثم بين أن ذلك غير ممكن ، لأن الوجود شاهد على الوحدانية ، « ومن يدع مع الله إلها آخر ، لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون » (المؤمنون : ١١٧) .

أيا عجبا كيف يُعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد ؟
ولله في كلِّ تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبداً شاهد
وفى كلِّ شىءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحد[2]

د - توحيد الربوبية والألوهية :

استخدم بعض علماء السلف ، أهل السنة والحديث هذا المصطلح[3] للإشارة إلى جانبين متكاملين من جوانب التوحيد :

---

(١) انظر مثلا : الآية ٢٤ من سورة الأنبياء .

(٢) الشعر لأبي العتاهية ، انظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ، تحقيق د/ عبد الستار أحمد فراج . دار المعارف ط٤ / ١٩٨١ ص ٢٠٧ .

(٣) كابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن كثير وابن أبى العز الحنفى وأمثالهم كملا على قارى ، والشوكانى والصنعانى ، ومحمد بن عبد الوهاب : ويعرف ذلك بالرجوع إلى كتبهم . وقد كان ابن تيمية من أكثر الذين تحدثوا عن هذا المصطلح ، ثم ارتضاه تلاميذه ، ومن تابعوا اتجاهه من بعده .

أولهما : توحيد الربوبية ، ومعناه الإيمان الجازم بأن الله واحد فى أفعاله ، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وحفظ الوجود وتدبيره وتصريف أحواله ، بعلمه وإرادته وقدرته ، وأنه لا شريك له فى شيء من ذلك كله ، بل الأمر كله لله[1] ، ولا يستثنى من ذلك الملائكة المقربون ، ولا الأنبياء والمرسلون « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » (مريم : ٩٣ - ٩٥) .

وقد كان الإسلام حريصا على تقرير هذا الجانب من جوانب التوحيد لصيانته من أى نوع من أنواع الشرك ، خاصة وأن كثيرا من الحضارات قد ضلت عن الفهم الصحيح له ، وقد كان ممن ساء فهمهم له أتباع رسالات إلهية ، رفعوا بشرا إلى مقام الألوهية ، وجعلوه شريكا فيها ، ومن أجل هذا كان القرآن حريصا على تأكيد بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعبوديته لربه ، دون أن يخل هذا بمقامه الشريف ، الذى يكفله له الدين من حيث كون الإيمان به والشهادة له بالرسالة مما تكمل به شهادة التوحيد ، ومن حيث الإقرار بما خصه الله تعالى به الفضل فى الدنيا والآخرة ، كعموم الرسالة والشفاعة العظمى ونحوهما ، ثم من حيث وجوب طاعته التى جعلها الله طاعة له ، ووجوب محبته أكثر من المال والأهل والولد والنفس ؛ لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم . ومع هذا فإنه يوصف فى القرآن بوصف " العبد " فى أعظم مقامات التكريم التى منحه الله إياها ، ومنها مقام نزول القرآن عليه (الفرقان : ١) ، ومقامه الرفيع ليلة الإسراء والمعراج (الإسراء : ١) وقد قال الله له فى القرآن عندما دعا على بعض المشركين « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون »(آل عمران : ١٢٨) بل أمره الله تعالى أن يقول : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضَرًا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف : ١٨٨) .

(١) لا يعنى ذلك إنكار الأسباب ، بل إنه ينبغى الاعتراف بها ، والتصرف على أساس اعتبارها ، مع اعتقاد أن الذى جعلها أسبابا ورتب عليها آثارها هو الله تعالى .

« قلْ لا أقولُ لكم عندى خزائنُ الله ، ولا أعلمُ الغيبَ ، ولا أقولُ لكم إنى ملكٌ ... » (الأنعام : ٥٠) ثم قيل له : « إنك لا تهدى من أحببت ولكنّ اللهَ يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » (القصص : ٥٦) إلى آيات أخرى .

ولقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعرف للربوبية حقها وقدرها . ولذلك كان أخشى الناس لله ، وأتقاهم له ، وأكثرهم قياما بشكره وملازمة لذكره ، ولذا كان حريصا على ألا يقع المسلمون فى مثل الغُلوّ الذى وقع فيه النصارى ، وكان يقول محذرا من ذلك : « لا تُطرُونى كما أطرت النصارى المسيحَ بن مريم ، فإنما أنا عبدٌ فقولوا : عبدُ الله ورسوله »(1) ، « وكان صلى اله عليه وسلم يحقق التوحيد ويعلمه أمته ، حتى قال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : أجعلتنى لله ندا بل ما شاء الله وحده . وقال : لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن ما شاء الله ثم شاء محمد »(2) وخطب بحضرته رجل فقال : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس خطيب القوم أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله(3) وقد سافر بعض الصحابة إلى بعض البلاد التى لم يكن قد دخلها الإسلام بعد ، فوجدوا الناس يسجدون لملوكهم أو لأساقفتهم ، فأراد بعض الصحابة أن يفعلوا مثلهم ، فنهاهم الرسول عن ذلك ، مبينا أنه لا يصلح ، البشر أن يسجد لبشر ، وأنه لو كان آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمر المرأة أن تسجد لزوجها(4) . وهذا كله كما يقول ابن كثير « صيانة وحماية لجناب التوحيد »(5) وقد كان رسول الله

---

(1) مسند أحمد ٢٤/١ ، وصحيح البخارى باختلاف يسير فى اللفظ ، فى كتاب الحدود ، باب رجم الحبلى ٢٦/٨ .

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٩٧/٣ ، ٣٩٨ وانظر الأحاديث فى مسند أحمد ٣٨٤/٥ ، ٣٩٣ ، ٣٩٨ .

(3) صحيح مسلم ، كتاب الجمعة ، باب صلاة الجمعة وخطبتها ٥٢٢/٢ ، ٥٢٣ ثم مسند أحمد ٢٥٦/٤ .

(4) انظر : الترغيب والترهيب للمنذرى ، تعليق الأستاذ مصطفى عمارة طبع قطر ١٩٨٥ جـ٥٤/٣ - ٥٦ وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٩٨/٣ .

(5) تفسير ابن كثير ١ / ٨٦ .

- مع علو مقامه - شديد التواضع ، ولهذا وصف نفسه بأنه عبد ، وبأنه يأكل كما يأكل العبد ، ويجلس كما يجلس العبد ، وبأنه ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة[1] .

وهذا كله اعتراف منه بحقيقة العبودية ، ومانع من غلو الناس فيه ، ومانع - من باب أولى - من الغلو فى غيره ممن يوصفون بالولاية والصلاح والتقوى ؛ لأنه إذا كان رسول الله مأمورا من الله تعالى أن يعلن للناس أنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، وأنه لا يعلم الغيب ، فغيره ممن هو تابع له ، لا يملك ذلك من باب أولى .

وإذا كان أهل الصلاح والتقوى ليس لهم مدخل فى التأثير فى جريان الأسباب وتصريف المقادير إلا بإذن الله تعالى ، فأهل الشر والفساد أكثر عجزا ، ولذلك قال الله تعالى عن السحرة[2] والشياطين : « ... وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » (البقرة : ١٠٢) .

ولا يصح - إذن - إسناد شىء من أفعال الله تعالى كالخلق أو الرزق ونحوهما ، إلى أحد غير الله تعالى ، فهو الفاعل الحق سواء أكان الفعل مباشرا أو من وراء الأسباب « أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ ... » « أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم

---

(١) انظر كتاب أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم لأبى محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الأصبهانى ، تحقيق أحمد محمد مرسى ، مطابع الأهرام ١٩٨١ ص٦٥ ، ٦٦ ، وانظر : ٦١ - ٦٧ .

(٢) ولذلك جعل الرسول صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر والموبقات : السحر . وإذا اعتقد الساحر أنه قادر على أن يغير قدر الله فإنه يكون مشركا ، وعلى ذلك يفهم مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة صاحب خمس : مدمن خمر ، ولا مؤمن بسحر ... » مسند أحمد : ١٤/٣ وإذا جاء إلى الساحر من يعتقد قدرته على تغيير القدر أو أنه قادر بسحره على الضر أو النفع فإنه يكون على خطر عظيم . وقد ينتقل به من إيمان إلى كفر ، وبهذا يُفهم ما جاء عن الرسول (ص) من مثل قوله : « من أتى كاهنا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، أو قوله : ليس منـــا من تطير أو تُطُيِّرَ له ... أو سحر أو سُحِر له » رواهما البزاز بإسناد جيد .

انظر الترغيب والترهيب ٣١/٤ - ٣٧ .

نحن المنزلون ... الآيات) (الواقعة : ٥٨ ، ٥٩ ، ثم ٦٢ وما بعدها إلى ٧٢) .
ويقتضى هذا أن يجتهد المسلم فى تحقيق التوحيد ، حتى لا يقع فى اعتقاد أو عمل مخالف له .

أما الجانب الثانى من جوانب التوحيد فهو توحيد الألوهية ، ومعناه أن يتوجه المؤمن بعبادته إلى الله تعالى وحده دون سواه ؛ لأنه هو - وحده - المستحق لذلك .
وهذا التوحيد لازم للنوع الأول ، وثمرة له ، فإذا كان المؤمن يعتقد اعتقادا جازما أنه لا خالق ولا رازق ، ولا محيى ولا مميت ، ولا فاعل ولا مؤثر إلا الله تعالى (وهذا هو توحيد الربوبية) فإن من الواجب عليه أن يجعل عبادته خالصة لهذا الرب وحده دون سواه (وهذا هو توحيد الألوهية) والجانبان متكاملان ، فالأول منهما يقتضى الثانى ، والثانى منهما موسس على الأول ، ومتطلَّب له .

وقد عنى القرآن بإبراز هذا التكامل والتلازم بين الجانبين ، بسبب ما لوحظ من وجود الأول منهما - عند بعض الأقوام - دون الثانى ، ومن هؤلاء مشركو العرب الذين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ، كما تدل على ذلك آيات القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى :

- « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرضَ ليقولنَّ اللهُ ، قلِ الحمدُ لله ، بل أكثرُهُم لا يعلمون » (لقمان : ٢٥) .

- « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون » (الزخرف : ٨٧) .

- « قل لِمن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكَّرون . قل من ربُّ السموات وربُّ العرش العظيم ؟ سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوتُ كلِّ شىء ، وهوَ يجيرُ ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنَّى تُسْحَرون » (المؤمنون : ٨٤ - ٨٩) إلى آيات أخرى [1] .

---

(١) انظر مثلا : يونس : ٣١ ، والعنكبوت : ٦١ ، ٦٣ ، والزخرف : ٩ .

ومع إقرارهم بتوحيد الربوبية كانوا يتوجهون ببعض أنواع العبادة إلى غير الله تعالى ، وهذا من التناقض ؛ لأن هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دون الله ليس لهم من الأمر شيء ، فلا يصح - إذن - أن يكون لهم من العبادة شيء ، وكان المشركون يحاولون تفسير هذا التناقض بأنهم اتخذوا هؤلاء الأولياء وسيلة إلى التقرب إلى الله تعالى ، وهو تفسير مرفوض ، يتنافى مع ضرورة تخليص التوحيد من كل شائبة شرك « ألا لله الدينُ الخالصُ ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار » (الزمر : ٣) وقال بعضهم : إنهم يتخذون هؤلاء الأولياء شفعاء عند الله ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون » (يونس : ١٨) وقد كشف القرآن عن تناقض هؤلاء المشركين ، عندما بين لهم أنهم عند الشدة والضراء لا يتوجهون إلى هؤلاء الوسطاء أو الشفعاء ، بل يتوجهون إلى الله تعالى ، ويجب - إذن - أن يكون التوجه إليه فى كل حال ، ولكنهم بسبب شركهم وعدم تحقق معنى التوحيد فى قلوبهم يعرضون عن الله تعالى ، بعد أن يكشف عنهم ضرهم : « وإذا مسكُم الضرُّ فى البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البرِّ أعرضتُمْ ، وكان الإنسان كفوراً » (الإسراء : ٦٧)(١) .

ولا ينفرد مشركو قريش بهذا التناقض بين العقيدة والعبادة ، بل إن ذلك وقع من أقوام بعض الأنبياء ، ومنهم قوم صالح ، الذين كذب بعضهم بنبوته ، وتطيروا به وبمن معه ، ودفعهم ذلك إلى العزم على قتله ، ثم أقسموا بالله تعالى على كتمان أمرهم إلى أن ينفذوا هذه الجريمة المنكرة ، « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، وإنا لصادقون ، ومكروا مكراً ، ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون »(النمل : ٤٨ - ٥٠)

(١) وارجع كذلك إلى ٢٢ ، ٢٣ يونس ، ٥٣ - ٥٥ من النحل ، ٦٥ ، ٦٦ من العنكبوت ، ٣٢ من سورة لقمان . وهكذا .

ولو كان هؤلاء صادقين - حقا - فى تعظيمهم لله تعالى لما أقسموا باسمه الكريم على قتل النبى الذى أرسله الله إليهم .

ولا ينجو المسلم من هذا التناقض إلا بالربط بين الاعتقاد والعمل ، حتى يكون العمل خالصا لله تعالى ، لا يتسلل إليه رياء ولا نفاق ؛ لأن ذلك مفسد للنية ، محبط للعمل « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يُشرك بعبادة ربه أحدا » (الكهف : ١١٠) « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيِّمة » (البينة : ٥) .

وقد جاء فى السنة النبوية أحاديث كثيرة فى التحذير من إرادة غير الله تعالى بالعبادة ، كالذى يصلى أو يصوم أو يتصدق ويجاهد ، لا يقصد بذلك كله وجْهَ الله تعالى ، بل يقصد به وجوه الناس ، وقد أخبر الرسول أن مثل هذا العمل مردود على صاحبه ، لا يقبل الله منه شيئا ، ومن هـذه الأحاديث ما قاله صلى الله عليه وسلم « إذا جمع الله الأولين والآخرين ، ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : مَنْ كان أشرك في عمل عمله لله أحدا ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »[1] .

وينطبق هذا الحكم على ما للقلب من عبادات ، كالخشية لله ، والإنابة إليه ، والخوف منه ، والرجاء له ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه والمحبة له ، والاستقامة على أمره ، وما أشبه ذلك من عبادات القلوب . كما ينطبق على ما يشترك فيه القلب والجوارح من الأعمال كالصلاة والصيام والحج والجهاد والنصيحة فى الدين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونحو ذلك من الأعمال . فلابد من أدائها خالصة لله ، على النحو الذى شرعه الله وأمر به ، ومن هنا يحرم القسم والنذر لغير الله ؛ لأن النذر من العبادات ، التي لا يصح أن يتجه المؤمن بها إلى غير الله تعالى . وهكذا .

---

(١) مسند أحمد ٢١٥/٤ وانظر ١٢٣/٤ - ١٢٥ ، ٤٠/٥ ، ٤٥ ، ٤٢٨ وتفسير ابن كثير ٢٠٠/٥ - ٢٠٤ .

ومن الآيات التى تتجه هذه الوجهة :

- « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب اللهِ ، والذين آمنوا أشدُّ حبا لله » (البقرة : ١٦٥) .

- « أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » (التوبة : ١٣) .

- « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين » (يونس : ١٠٦) .

- « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فإياى فارهبون » (النحل : ٥١) .

- « وسيجنبها الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تُجزى ، إلا ابتغاء وجه ربِّه الأعلى ولسوف يَرضى » (الليل : ١٧ - ٢١) .

- « إن ينصركم الله غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (آل عمران : ١٦٠) .

والآيات - فى هذا الباب - كثيرة فى القرآن ، وهى تهدف جميعا إلى أن تكون العبادة - فى سائر صورها - خالصة لله تعالى . والقدوة الحسنة في ذلك تتمثل فى الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى أمره الله أن يقول : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣) .

هـ - أسماء الله تعالى وصفاته :

تمهيد : إذا رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة فسنجد أنهما يذكران عددا كبيرا من أسماء الله تعالى وصفاته ، ويبدو ذلك واضحا فى بعض الآيات القرآنية ، وفى خواتيم عدد كبير منها(١) . ومن أكثر الآيات دلالة على ذلك آيات آخر سورة الحشر ، التى يقول الله تعالى فيها :

- « هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيبِ والشهادة ، هو الرحمنُ الرحيم ، هو اللهُ الذى لا إله إلا هو الملكُ القُدُّوسُ السلامُ المؤمنُ ، المهيمنُ ، العزيز الجبار المتكبرُ ، سبحانَ الله عما يشركون . هو الله الخالقُ البارىء المُصَوِّرُ ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (الحشر : ٢٢ - ٢٤) .

وقد جاء فى السنة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا. من أحصاها دخل الجنة »(٢) .

ثم جاء فيها ما يدل على أن الأسماء ليست محصورة في هذا العدد. ومن ذلك ما رواه ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أصاب أحدا قط هَمٌّ ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك و ابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فِيَّ حكمك ، عدلٌ فِيَّ قضاؤك : أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك أو أعلمته أحدا

---

(١) انظر مثلا الآيات : ٥٨ - ٦٦ من سورة الحج حيث يوصف الله تعالى في ثنايا هذه الآيات بما يدل على فضله وعدله وعنايته وعلمه وقدرته ، فهو ينصر المظلومين ، ويولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وبأنه الحق ، الذى ينزل من السماء ماء تخضر به الأرض ، وبأن له ما فى السموات والأرض ، وأنه يسخر للناس ما فى الأرض ، ويمسك السماء أن تقع عليها إلا بإذنه، وبأنه يحيى ويميت ، ثم يعيد الناس إلي الحياة مرة أخرى ، أما خواتيم الآيات فقد وصف فيها بأنه خير الرازقين ، وبأنه العليم الحليم ، العفو الغفور ، السميع البصير ، العلىُّ الكبير ، اللطيف الخبير ، الغنىُّ الحميد ، الرءوف الرحيم .

(٢) رواه البخارى فى مواطن متعددة ، منها كتاب التوحيد ، باب إن لله ما مائة اسم إلا واحدا ، ١٦٩/٨ ورواه مسلم فى كتاب الذكر ، باب فى أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ٥٣٥/٥ .

من خلقك أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجا »[1] .

وقد أمرنا الله تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى فقال : « ولله الأسماء الحسنى ، فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه » (الأعراف : ١٨٠) وجاء فى السنة ما يوافق ذلك ، ومنه ما أورده البخارى فى كتاب التوحيد ، حيث عقد بابا لسؤال الله تعالى بأسمائه والاستعاذة بها[2] .

وقد كان الصحابة يقرأون القرآن ويسمعونه ، ويتعلمون منه - ومن السنة - كل ما أراد الشرع تعريفهم به من أسماء الله وصفاته . ولم يثبت عنهم أو عن أحد منهم ما يدل على أن إثبات هذه الأسماء والنعوت[3] يتعارض مع إيمانهم بالتوحيد ، الذى هو أصل الدين ، ثم لم يثبت عن أحد منهم أنه أنكر اسما أو صفة ثابتة لله تعالى في القرآن والسنة ، ولم يتجه فهمهم للعقيدة فى مسألة الأسماء والصفات - ولا فى غيرها - وجهة الغلو الذي ظهر من بعد لدى بعض الطوائف من المسلمين . وإذا كان الصحابة قد اختلفوا فى بعض أحكام الفقه فإنهم « بحمد الله لم يتنازعوا فى مسألة

---

(١) مسند أحمد ٣٩١/١ ، ٤٥٢ وانظر تفسير ابن كثير ٥١٦/٣ ، ٥١٧ ، وقال ابن العربى فى شرحه للترمذى : إن بعض العلماء جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله تعالى ألف اسم . انظر تحفة الأحوذى ، أبواب الأدب ٢٨١/١٠ .

(٢) صحيح البخارى ١٦٩/٨ ، ١٧٠ .

(٣) استعمل البخارى لفظ النعوت ١٧٠/٨ ، ١٧١ واستعمل علماء الكلام - من بعد - لفظ الصفات . وقد استنكر ابن حزم إطلاق لفظ الصفات مضافا إلى الله تعالى . انظر الفصل ١٢٠/٢ ، ١٢١ . ويلاحظ أن لفظ الصفة قد جاء على لسان أحد الصحابة ، عندما فسر كثرة قراءته فى الصلاة لسورة الإخلاص بأنها صفة الرحمن . ولما علم الرسول بذلك قال : أخبروه أن الله يحبه . انظر : صحيح البخارى كتاب التوحيد ، باب ما جاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلى التوحيد ١٦٤/٨ ، ١٦٥ وصحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، فضل قراءة قل هو الله أحد ٤٦٢/٢ .

واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ، ولم يُبدوا لشيء منها إبطالا ، ولا ضربوا لها أمثالا . بل تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالإيمان والتعظيم ... وأجروها على سنن واحد ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع ، حيث جعلوها عِضِين (متفرقة) وأقروا ببعضها ، وأنكروا بعضها »[1] .

ولكن الأمر لم يستمر على ذلك ، بل بدأت الفرق فى الظهور لأسباب متعددة ، وكان من بين هذه الفرق : فرقة القدرية التى ظهرت في أواخر عهد الصحابة ، وقد انقسمت إلى فريقين : أحدهما ينكر صفة العلم الإلهى ، وينكر - بناء - علي ذلك - علم الله بالأشياء قبل وقوعها . وكان مما قالوه :« لا قَدَرَ (= علم) والأمر أُنُفٌ»[2]. وقد أراد هؤلاء أن يثبتوا حرية الإنسان فأنكروا علم الله تعالى ، علي عكس الفريق الثانى الذى أراد أن يثبت صفة العلم الإلهى ، لكنه لم يحسن فهم النصوص الشرعية ، ولذا وقع فى الجبر المطلق ، وإنكار حرية الإرادة فى جميع صورها ، ومن ثم وقعوا فى إنكار صفة أخرى من صفات الله تعالى وهى صفة العدل[3] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ظهرت آراء أخرى تنحو منحى التنزيه الغالى الذى يكاد يلغى الصفات الإلهية أو يؤول بعضها تأويلا يكاد يلغيها . وظهر هذا الاتجاه بدرجات متفاوتة لدى كثير من الفلاسفة والمعتزلة والشيعة

---

(١) ابن قيم الجوزية ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق الشيخ / محمد محيى الدين عبد الحميد . دار الفكر ط٢ / ١٩٧٧ جـ١ / ٤٩ وانظر خطط المقريزى ، طبع بولاق ٣٥٦/٢ .

(٢) انظر صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... ١٣٢,١ والأنف بضم الهمزة والنون : الجديد المستأنف ، الذى ليس أثراً لعلم سابق .

(٣) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣ / ٣٦ ، ٣٧ .

وبعض الأشاعرة(١) ، ثم ظهرت آراء أخرى تنحو نحو التشبيه الذى وصل - أحيانا - إلى حد التجسيم لدى بعض الغلاة من الخوارج والشيعة وبعض أهل الحديث(٢) .

وتباعدت الآراء عما كان عليه رأى الصحابة ، ولكن فريقا من صفوة المسلمين أعرضوا عن هذه الآراء التي لا تخلو من مخالفة لما كان عليه السلف ، حتى وإن حسنت نية أصحابها ، وبذلوا الجهد لبحث المسألة على هدي من الكتاب والسنة ، وفهم الصحابة والتابعين ، وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة ، وأهل الحديث ، وقد جاء رأيهم في الأسماء والصفات مكونا من عدد من العناصر المتكاملة ، يمكن بيانها على النحو التالى :

١ - الإثبات ، ويقصد به وصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويختلف هذا الموقف عن مواقف أخرى نفت الصفات نفيا مطلقا ؛ لأن الله - عندهم - فوق الصفات وأعلى منها ، وهذا رأى بعض الفلاسفة ، الذين رأوا أن الشيء يوصف من جهة علته ، فإذا كان الشيء علة فقط ، وليس بمعلول لشيء كان فوق الوصف ، لأن العلة الأولى لا علة لها ، فلذلك صارت لا تقع تحت

---

(١) انظر مثلا : الشفاء ، الإلهيات ، تحقيق د / محمد يوسف موسى ، د / سليمان دنيا ، والأستاذ سعيد زايد . الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية . ١٩٦ جـ٢/٣٦٧ ، ٣٦٨ وقارن إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطى ، دار الآثار ، لبنان د . ت ص١٢ ، ١٣ والملل والنحل ١/٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ . وانظر للإسماعيلية : المذاهب اليونانية الفلسفية فى العالم الإسلامى ، لسانتلانا ص١٠٧ وللإمامية منهم : عقائد الإمامية للشيخ المظفر ٤٥ ، ٤٦ . ثم انظر : أصول الدين للبغدادى ١٠٩ - ١١١ : وأساس التقديس للرازى في مواطن كثيرة . ثم قارن فى وجود مثل هذا الاتجاه قبل الإسلام : الأمد على الأبد لأبى الحسن العامرى ، بتصحيح أورت . ك . روشن ، دار الكندى بيروت ط١/١٩٧٩ ص٧٨ ، ٧٩ والفلسفة الأوربية في العصر الوسيط . للأستاذ يوسف كرم . دار المعارف مصر ط١/١٩٦٥ ص٣٤ ، ٣٥ .

(٢) انظر : الأشعرى : مقالات الإسلاميين ١/١٠٢ - ١٠٥ ، ١٦٨ ، ١٨١ ، ٢١٤ والملل والنحل بهامش الفصل ٢/١٤٨ وفتاوي ابن تيمية ٤/١٤٥ ، ١٦٦ ونقض المنطق لابن تيمية تحقيق الشيخ محمد بن عبد الرازق بن حمزة وزميله ، مكتبة السنة المحمدية ١٩٥١ ص ١١٩ .

الحس والوهم والفكر والعقل والمنطق فليست إذاً بموصوفة ، بل هى فوق الوصف ، وأعلى من الصفة(١) ثم يختلف هذا الموقف عن رأى بعض الفلاسفة والمتكلمين الذين جعلوا الصفات كلها كصفة واحدة ، ثم قالوا : إن هذه الصفات أو الصفة هى عين الذات ، وليست شيئا زائدا عليها ، ويذكر ابن سينا ذلك فيقول : « فواجب الوجود ليست إرادته مغـايرة الذات لعلمه ، .... فقد بينا أن العـلم الذى له بعينه هو الإرادة التى له »(٢) وينطبق هذا على القدرة وغيرها من الصفات ، ويختلف هذا عن موقف الذين حصروا هذه الصفات فى صفة أو صفتين أو سبع أو ثمان(٣) .

أمل أهل السنة فإنهم يثبتون لله تعالى كل ما أثبته لنفسه ، وكل ما أثبته له رسوله ، دون نفى لشىء منها ، أو إثبات لبعضها دون بعض ، أو حصرلها في عدد

---

(١) انظر : الإيضاح فى الخير المحض المنسوب لأرسطو ، وهو لابرقلس ، ضمن الأفلاطونية المحدثة عند العرب ، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوى ، نشر وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٧ ص٨ ، ٩ .

(٢) النجاة لابن سينا ، تحقيق وتقديم د. ماجد فخرى ، دار الآفاق الجديدة بيروت ط١/١٩٨٥ ص٢٨٧ وهو يفهم الصفات على أنها إضافات أو سلوك ، ومن ثم لا توجب كثرة فى الذات ، ولا زيادة عليها . انظر : الشفاء ، الإلهيات ٢/٣٦٧ ، ٣٦٨ وقارن ما نسب إلى أبى الهذيل العلاف فى أخبار العلماء .. للقفطى ١٣ وإلى واصل بن عطاء فى الملل والنحل ١/٥٧ .

(٣) الذين حصروا الصفات في صفة واحدة هى العلم أو في صفتين هما العلم والقدرة ، ثم قالوا إن هاتين الصفتين هما عين الذات هم بعض أتباع واصل بن عطاء انظر : مقالات الإسلاميين ١/٢٤٤ - ٢٤٧ والملل والنحل ١/٥٨ ، ٦٣ ومقدمة مناهج الأدلة للدكتور / محمود قاسم ص٣٨ ، ٣٩ ، ٤٧ . والذين حصروا الصفات الوجودية فى سبع أطلقوا عليها صفات المعانى هم الأشاعرة . وهذه الصفات هى الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام . انظر لرأيهم : التمهيد للباقلانى والإرشاد للجوينى ، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ونهاية الأقدام للشهرستانى إلى آخره وجعلها بعضهم ثمانية . انظر نهاية الإقدام للشهرستانى ١٠٦ ، ١٠٧ وزاد بعضهم من المتأخرين صفة الإدراك ، انظر شرح الخريدة للدردير ص ٣٣ كما زاد الماتريدية صفة التكوين . انظر التمهيد فى أصول الدين لأبى المعين النسفى (٥٠٨هـ) تحقيق د / عبد الحى قابيل ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ط١/١٩٨٧ ص٢٨ - ٣٤ . وفى المسألة تفصيلات كثيرة ؛ نكتفى - هنا - بهذه الإشارة الموجزة إليها ، ومن الممكن استيفاؤها من كتب الفرق الكلامية .

محدود ، وهذا - منهم - توقير للنصوص ، وأخذ بمدلولاتها . وإذا كان بعض المعتزلة يرون أن السمع والبصر يرجعان إلى العلم ، فإن ذلك يؤدى إلى تجاهل ما جاء من نصوص حولهما ، أو تأويلها تأويلا يخرج بالنصوص عن معانيها .

٢ - التنزيه ، ويقصد به تنزيه اللـه تعالى فيما وُصِفَ به من صفات عن مشابهة خلقه أو مشابهة خلقه له ، ويتضمن هذا أن ننفى عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه ، أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما جاء في القرآن دالا على التنزيه قوله تعالى :

- « لا يضلُّ ربِّى ولا ينسى » (طه : ٥٢) .
- « لا تأخذُه سنةٌ ولا نوْم » (البقرة : ٢٥٥) .
- « لا يعزُبُ عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .. » (سبأ : ٣) .
- « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسنا من لُغُوب » (ق : ١٣٨)(١) .
- « رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته ، هل تعلم له سميا » (مريم : ٦٥) .
- « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » (الإخلاص : ٣ ، ٤) .
- « ليس كمثله شيء » (الشورى : ١١) .

وإذا كانت هذه النصوص كلها توجب تنزيه الله تعالي عما يقع للخلق من أوجه الضعف والقصور والحاجة والحدوث وما أشبه ذلك ، فإن مما يوجب هذا التنزيه أيضا : إدراك ما في اللغة من قصور ، يجعلها عاجزة عن التعبير الدقيق ، عما يليق بالله تعالى ، من الجلال والكمال . ويترتب على هذا أن اللغة قد يأتى فيها لفظ واحد ،

---

(١) لاحظ ابن تيمية أن نفى هذه الصفات عن الله تعالى يؤدى إلى إثبات كمال له ، فَنَفْىُ السِّنة والنوم يدل على كمال الحياة والقيومية ، ونفى اللغوب يدل على كمال القدرة ، ونفى عزوب شيء عن علمه يدل على كمال العلم وهكذا . انظر الصفدية تحقيق د / محمد رشاد سالم طبع الرياض ١٩٣٦ / ١٩٧٦ جـ١ / ٩١ .

وَصْفًا لله تعالى ووصفـا لعباده ، لكن مضمون الوصف الذى اتحد لفظه لابد أن يكون مختلفا ، بحسب اختلاف حقيقة الموصوف ، فالوصف ليس أمرا ثابتا جامدا ، بل إنه يكون على قدر الموصوف . ولما كان الله تعالى لا يماثل عباده فيجب أن تكون صفاته متعالية عن المشابهة والمماثلة . وعلي سبيل المثال فإن العلم يأتى صفة لله تعالى ، ويأتى صفة لبعض عباده ، لكن مضمون العلم لابد أن يكون مختلفا ، فعلم الله تعالى ليس مسبوقا بجهل ، ولا يطرأ عليه نسيان ، وهو علم مطلق عام ليس بمحدود ، كما تدل على ذلك كثير من الآيات القرآنية[1] التى تتحدث عن شمول العلم الإلهى وإحاطته بكل شيء ، من أقطار السموات والأرض ، إلى الذرة وما دونها ، إلى خفايا النفوس ، إلى دقائق أحوال الموجودات ، ما نعلمه منها وما لا نعلمه ، على نحو لا تدركه أفهامنا ، ولا تصل إليه أوهامنا ، وهو علم يرتبط به وجود المخلوقات وحفظها ورعايتها « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » (لقمان : ٢٧) .

فهل يتطابق هذا العلم مع علم الإنسان الحادث المخلوق ، الذى يسبق علمه بجهل ، ويلحق به النسيان ، حتى فيما يحرص الإنسان على الاحتفاظ به ؟ ثم يوصف علمه بأنه جزئى نسبيٌ محدود يتضاءل بالقياس إلى المعلومات الهائلة التي يتوصل البشر إليها ، ثم يتضاءل هذا كله - مع ضخامته - بالقياس إلي علم الله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (الإسراء : ٨٥) وتنطبق هذه التفرقة نفسها على كل صفة جاءت وصفا لله تعالى ولعباده ، كالإرادة والقدرة والحياة ونحوها من الصفات ، استنادا إلى ما استقر فى العقل من تفرقة بين الخالق والمخلوق .

ومن المسلم به أن اللغة تعجز - أحيانا - عن التعبير عن مشاعر النفس الإنسانية ، لا سيما فى تجاربها الوجدانية العميقة ، أو في تجاربها الروحية أو الصوفية . وقد لاحظ بعض الفلاسفة أنه ليس من السهل أن نعبر عنها فى صورة لفظية دقيقة أو أن ننقل مضمونها للآخرين ، وذلك لارتباطها بمجالات خفية من الشعور[2] .

(١) راجع مادة علم ومشتقاتها فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٢) انظر : د/محمود زيدان : وليم جيمس ، دارالمعارف ١٩٥٨ ص١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

ومن المسلَّم به كذلك أننا نستخدم الوصف الواحد فى وصف بنى الإنسان دون أن يستلزم ذلك أن يستخدم الوصف بدرجة واحدة من الدلالة فى كل من وُصفوا به ، فلفظ شاعر أو طبيب أو نجار ونحو ذلك من الصفات والألفاظ يطلق على عدد كبير من الناس الذين قد يتفاوتون فى الإجادة والإتقان والجدارة تفاوتا كبيرا ، ومعنى ذلك أن اتحاد اللفظ لا يعنى اتحاد المضمون أو الدرجة .

ثم إن الشرع قد حدثنا عن الآخرة ، واصفا ما فيها من نعيم وعذاب مستخدما فى ذلك أسماء وصفات مما نستعمله فى لغتنا المستخدمة فى عالم الحياة الذى نعيشه الآن ، وينبغى أن يكون معلوما أن حقائق العالم الأخروى تختلف عما يمكن أن نستخلصه مما ورد من أوصافها فى لغتنا المعتادة . وقد أشار ابن عباس - رضى الله عنهما - إلى شىء من ذلك حينما قال : « ليس فى الجنة مما فى الدنيا إلا الأسماء »[1] . ثم أراد الشرع أن يعرفنا بذلك حتى لا تكون تصوراتنا المحدودة المرتبطة باللغة والبيئة قيدا على قدرة الله تعالى ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى الحديث القدسى : « أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] .

وإذا كان هذا كله صحيحا بالنسبة لنا أو بالنسبة للجنة التى هى من مخلوقات الله عز وجل فمقام الله تعالى أعلى وأجل ، وكماله وجلاله وعظمته ، وحقائق أسمائه وصفاته أعلى من أن تحيط بها اللغات والأفهام . وإذا كان من ضرورات الإيمان أن يعرفنا الله تعالى فى وحيه بشىء مما يتعلق به ؛ لأن الإنسان لا يؤمن بما هو مجهول لديه تماما - إذا كان الأمر كذلك فإن من ضرورات الإيمان - كذلك - ملاحظة جانب

---

(١) الفصل لابن حزم . وقال عن سنده : إنه فى غاية الصحة ١٠٨/٢ وتفسير ابن كثير ، طبعة الشعب ٩١/١ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة السجدة ، باب قوله : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ٢١/٦ وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٦٨٧/٥ - ٦٨٩ ومسند أحمد ٣١٣/٢ .

التنزيه ، والتفرقة بين الخالق والمخلوق ، حتى لا نحكم على الله بتصوراتنا المحدودة القاصرة[1] .

ولعل مما يتفق مع ذلك أننا نجد فى بعض حديث القرآن الكريم عن صفات الله تعالى أنه يستخدم أفعل التفضيل ، ومما ورد فى القرآن من ذلك :

- « وهو خير الناصرين » (آل عمران : ١٥٠) .
- « يقص الحق وهو خير الفاصلين » (الأنعام : ٥٧) .
- « وهو خير الحاكمين » (الأعراف : ٨٧ ، يوسف ٨) .
- « وإن الله لهو خير الرازقين » (الحج : ٥٨)

ثم يقول القرآن الكريم :

- « ومن أصدق من الله حديثا » (النساء : ٨٧) .
- « أليس الله بأعلم بالشاكرين » (الأنعام : ٥٣) .
- « ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » (الأنعام : ٦٢) .
- « ومن أوفى بعهده من الله » (التوبة : ١١١) .
- « فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون : ١٤) . إلى آيات أخرى كثيرة[2].

---

(١) انظر : التوحيد للماتريدى ص٩٣ .

(٢) وقد استخدم القرآن الكريم فى التعبير عن صفات الله تعالى - كذلك - صيغ العموم التى تدل على الشمول لكل شىء ، إذ كل شىء واقع تحت سلطان أسمائه وصفاته . ومن الأمثلة على ذلك قول الله عز وجل :

- « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا »(فاطر : ١٠) وقوله : « وكان الله بكل شىء محيطا » (النساء : ١٢٦) ، « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل » (الأنعام : ١٠٢) ، « إن ربى على كل شىء حفيظ » (هود : ٥٧) ، « وكنا بكل شىء عالمين » (الأنبياء : ٨١) ، « وكان الله على كل شىء رقيبا » (الأحزاب : ٥٢) ، « ألا إنه بكل شىء محيط » (فصلت : ٥٤) ، « ... لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » (الطلاق : ١٢) وهكذا وهكذا .

ثم نجد كثيرا من الصفات تأتى بصيغة المبالغة كالحكيم والحميد والسميع والبصير واللطيف والخبير والقهار والغفار ونحو ذلك من الأسماء والصفات .

ويمكن أن نستخلص من هذا أن الله عز وجل يوصف بأقصى ما يمكن أن تدل عليه اللغة التى يستطيع البشر فهمها ، ثم يبقى بعد ذلك أن مقام الألوهية يجب أن يكون فوق كل ما يمكن أن تدل عليه اللغة ، وفى هذا الصدد نتذكر قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى مناجاته لربه ، واستعاذته بعظمته في جوف الليل ، وهو يتهجد ، ويقول فى سجوده : " أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك "(١) .

ويتبين مما سبق أن أهل السنة يجمعون فى نظرتهم إلى الأسماء والصفات الإلهية بين أمرين : الإثبات والتنزيه ، وهذا الجمع بينهما يؤدى إلى فكرة صحيحة متوازنة ؛ لأن وجود التنزيه مع الإثبات يحول دون أن يتحول الإثبات إلى تمثيل أو تشبيه أو تجسيم ، ووجود الإثبات مع التنزيه يحول دون أن يتحول التنزيه إلى تعطيل أو إنكار للصفات الإلهية . وبهذا الجمع ينجو أهل السنة من الانحراف إلى أحد الجانبين على النحو الذى ظهر لدى بعض الفرق من أهل التشبيه والتجسيم ، مثلما نجد لدى بعض طوائف الشيعة كالهشامية أو غيرهم كالكرامية ، وبعض الخوارج ، وبعض أهل الحديث الذين استندوا إلى أحاديث ضعيفة أو موضوعة(٢) . ثم ينجون مما ظهر لدى الفلاسفة والمعتزلة و الشيعة الإسماعيلية من استغراق فى التنزيه ، إلى حد يتصادم مع اللغة ، ويؤدى إلى أن تتحول الذات الإلهية إلى شىء أشبه بالفكرة المجردة ، وفى ذلك

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال فى الركوع والسجود ٢٢٣/٢ وصحيح الترمذى ، كتاب أبواب الدعوات ، باب منه ١٨٧/٥ وقال : حسن صحيح ، ثم أخرجه فى دعاء الوتر ٢٢١/٥ ، وسنن ابن ماجة كتاب الدعاء ، باب ما تعوذ منه الرسول ١٢٦٢/٢ ، ١٢٦٣ ، ومسند أحمد ٥٨/١ ، ٩٦ ، ٥٨/٦ ومواطن أخرى .

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين ١٠٢/١ - ١٠٥ ، ١٦٨ ، ١٨١ ، ٢١٤ والملل والنحل ١٤٨/٢ وفتاوى ابن تيمية ١٤٥/٤ ، ١٦٦ . ونقض المنطق ١١٩ .

خطر شديد على العقيدة ؛ لأن الناس لا يتجهون بالولاء والحب والرضا ، ولا يصبرون على الطاعة وتكاليفها من أجل ذات لا علم لها ولا إرادة ولا قدرة ، ولا نعمة ، بل يتجهون بمشاعرهم وعبادتهم إلى من له الكمال : وجودا وعلما وقدرة « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (الأعراف : ٥٤) .

وقدكان أهل السنة بهذا الجمع المتوازن بين الجانبين يتبعون منهج القرآن الذى جمع بينهما فى آية واحدة ، فى مثل قوله تعالى : « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » (الشورى : ١١) . فالجزء الأول من الآية يدل على التنزيه ، والجزء الثانى منها يدل على الإثبات ، وبهما معا قال أهل السنة .

٣ - يطبق أهل السنة المبدأين السابقين على جميع الأسماء والصفات الثابتة فى الشرع ثبوتا صحيحا ، ومعنى ذلك أنه ينطبق على ما يسمى عند المتكلمين بالصفات الخبرية(١) ، وهى الصفات التى توهم مشابهة الله تعالى لخلقه ، وذلك كوصف الله تعالى بأن له وجها أو عينا أو يدا أو قدما(٢) أو وصفه بأن له استواء أو مجيئا أو نزولا أو هرولة أو ضحكا أو عَجَبًا أو نحو ذلك من الصفات التى جاء إثباتها فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ومما جاء فى ذلك فى القرآن :

- « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

- « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » (الطور : ٤٨) .

- « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ، ينفق كيف يشاء » (المائدة : ٦٤) .

---

(١) الصفات الخبرية عند المتكلمين هى الصفات التى تثبت بالخبر الوارد فى الشرع ، وليس للعقل مدخل فى ثبوتها . وهى غير الصفات العقلية أو المعنوية التي يقول العقل بإثباتها ، مع مجيئ الشرع بها ، وذلك كالعلم والقدرة ونحوهما .

(٢) ارجع - مثلا - إلى صحيح البخارى ، كتاب التوحيد ٨/ ١٧٠ وما بعدها .

- « الرحمن على العرش استوى » (طه : ٥) .

- « وجاء ربك والملك صفا صفا » (الفجر : ٢٢) .

ومما جاء فى السنة قوله صلى الله عليه وسلم :

- « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى ستجيب له ، ومن يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفر لى فأستغفر له » وفى رواية حتى يضىء الفجر أو حتى ينفجر الفجر[١] .

- عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلىّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة »[٢] .

- « يضحك الله إلىٰ رجلين يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة . يقاتل هذا فى سبيل الله فيقتل ، ثم يتوب الله على القاتل فيقاتل فيستشهد »[٣] .

- « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » [٤] .

وقد عقد البخارى بابا فى كتاب التوحيد الذى جعله خاتمة كتابه ذكر فيه صفات أخرى ، وسماه « باب مايذكر فى الذات والنعوت وأسامى الله » [٥] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الليل مثنى مثنى ٢/٤٠٧ - ٤٠٩ وانظر مسند أحمد ٢/٢٥٨ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، فضل الذكر والدعاء وحسن الظن بالله ٥/٥٤٢ ، وبه روايات أخرى ٥٤١ - ٥٤٣ وصحيح البخارى : كتاب التوحيد . باب قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه ... » ٨/١٧١ ، والترمذى فى كتاب : أبواب الدعوات ، باب منه ٥/٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٣) سنن النسائى ، كتاب الجهاد ، اجتماع القاتل والمقتول فى سبيل الله فى الجنة ٦/٣٨ ، ٣٩ وفى إحدى رواياته : يعجب ربك ، وسنن ابن ماجة : المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ١/٦٨ .

(٤) مسند أحمد ٤/١٥١ .

(٥) صحيح البخارى ٨/١٧٠ ، ١٧١ .

وقد افترق المسلمون فى النظر إلى هذه الصفات إلى فرق ، فمنهم من يصرفها عن ظاهرها ، ويؤولها إلى معنى آخر ، يبعد بها عن المشابهة الموهومة . فالوجه بمعنى الذات ، واليد بمعنى القدرة ، والعين بمعنى العلم أو العناية ، والاستواء بمعنى الاستيلاء . وهكذا ، وظهر هذا الاتجاه لدى المعتزلة وفريق من الأشاعرة والشيعة والإباضية (١)، ومنهم من فهمها فهما تجسيميا غليظا لا يليق بالذات الإلهية .

أما أهل السنة فقد نظروا إليها فى ضوء الإثبات والتنزيه كما سبق القول ، ولم يروا فى الإثبات بأسا ولا خطرا ؛ لأن الصفات إنما تثبت لله تعالى على معنى يليق بجلاله ، وقد كان مما اتفقوا عليه " أن حقيقة البارى تعالى غير معلومة للبشر ، ولهذا اتفقوا على ما اتفق عليه السلف من نفى المعرفة بماهيته وكيفية صفاته ، ثم جمهورهم يقول ما يقوله السلف من نفى المعرفة بالكيفية ، ويقولون : لا تجرى ماهيته فى مقال ، ولا تخطر كيفيته ببال ... فلا يحيط أحد من المخلوقين بحقيقة ذاته ، ولا يبلغ قدره غيره ، كما فى الدعاء المأثور : يامن لا يعلم ما هو إلا هو(٢) وقد كانوا حريصين على بيان أن " الصفات حكمها حكم الذات ، فكما أن ذاته - سبحانه - لا تشبه الذوات ، فصفاته لا تشبه الصفات "(٣) ثم حرصوا كذلك على أن يوضحوا أن " النقائص يجب نفيها نفيا مطلقا ، وأما صفات الكمال فيجب نفى التشبيه والتمثيل فيها"(٤) .

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة ، وتأويل مشكل الحديث لابن فورك ، والإرشاد للجوينى وأساس التقديس لفخر الدين الرازى ، وغاية المرام للآمدى . ثم انظر للإباضية : مسند الإمام الربيع بن حبيب . ضبط وتخريج محمد درويش ، مكتبة الاستقامة عمان ط١/١٩٩٥ ص٤١٤ ثم ٣٢١ وما بعدها ، ٣٣٨ - ٣٤٣ .

(٢) ابن تيمية : نقض تأسيس الجهمية ، بتصحيح وتعليق محمد عبد الرحمن بن قاسم ، طبع مكة المكرمة ١٣٩١ هـ جـ١/٦٤ .

(٣) ابن قيم الجوزية : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة تحقيق على بن محمد الدخيل الله ، مطبعة العاصمة ، الرياض ط١/١٤٠٨هـ جـ١/٢٢٩ .

(٤) نقض تأسيس الجهمية ١/٥٧ .

أما التأويل(١) الذى اتبعته بعض الفرق فى هذه المسألة وفى غيرها فقد رفضه أهل السنة لأسباب كثيرة منها :

أ - أن التأويل لم يقع على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا صحابته ، ولا فى عهد التابعين لهم بإحسان ، ولو كان صوابا أو ضروريا لفعله هؤلاء وهم أهل القدوة فى الدين ، وقد أورد الترمذى صاحب السنن بعض الأحاديث المتضمنة لمثل هذه الصفات كاليد واليمين ونحوها ، ثم قال إن غير واحد من أهل العلل قالوا : " نثبت الروايات فى هذا ، ويُؤْمَنُ بها ، ولا يتوهم ولا يقال : كيف ، هكذا روي عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث : أمِرُّوها بلا كيف . وهكذا أهل العلم من أهل السنة والجماعة "(٢) .

---

(١) للتأويل معانٍ متعددة ، منها التفسير ، ومنها المآل والعاقبة ، ومنها المعنى الذى ظهر عند الكلاميين وهو صرف اللفظ عن ظاهرة لضرورة تستلزمه ، والتأويل بالمعنيين الأولين مقبولٌ لا حرج فيه ، أما المعنى الثالث فهو موضع الخلاف ، فأهل السنة يرفضونه ، والكلاميون والفلاسفة كابن رشد يقبلونه بشروط ، والذين يقبلونه ليسوا على درجة واحدة فى قبوله ، فبعضهم يوسع نطاقه ، وبعضهم يضيقه ، ويمكن الرجوع فى هذا كله إلى : الغزالى فى قانون التأويل وإلجام العوام عن علم الكلام وتأسيس التقديس للرازى وإلى ما كتبه ابن رشد فى فصل المقال ومناهج الأدلة ، وإلى ما كتبه ابن تيمية لا سيما : درء تعارض العقل والنقل ، وارجع إلى كتاب أ . د/ محمد الجليند عن الإمام ابن تيمية وقضية التأويل ، طبع مجمع البحوث الإسلامية .

(٢) سنن الترمذى ، أبواب الزكاة ، باب ما جاء فى فضل الصدقة ٨٦/٢ ، ٨٧ ، وانظر به كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة ٣١٧/٤ ومن قبل قال أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) عن الأحاديث التى تضمنت هذه الصفات الخبرية : إنها أحاديث حق لا شك فيها ، رواها الثقات بعضهم عن بعض ، إلا أنا إذا سئلنا عن تفسير هذه الأحاديث لم نفسرها ، ولم يدرك أحد تفسيرها . انظر : طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ط١٩٨٤/٢ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ وانظر ما قاله الأوزاعى فى : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٩٦/٢ وما بعدها ، ومعالم السنن للخطابى ٣٣١/٤ والملل والنحل ١١٦/١ - ١١٨ ، ١٣٧ - ١٣٩ .

ب - أن التأويل فيه صرف لكلام الله تعالى عن دلالته ، وهذا يشبه أن يكون ردا له ؛ لأن المؤول لا يثبت دلالة اللفظ الوارد في الشرع بالمعنى القريب ، وإنما يبحث له عن معنى آخر بدعوى التنزيه ، ثم يدعى أن هذا المعنى الذى توصل إليه عن طريق التأويل هو المقصود من كلام الله أو كلام رسوله ، وهذا نوع من القول على الله ورسوله بغير برهان ، ثم إنه نوع من التحكم فيما يصح إثباته لله وما لا يصح ، ولو كان إثبات مثل هذه الصفات لله تعالى لا يليق به لما جاءت به النصوص الشرعية(١) .

جـ - أن المعرفة المبنية على التأويل معرفة ظنية ، ويدل على ذلك أن أهل التأويل اختلفوا فيه اختلافا كبيرا ، ومن أمثلة ذلك أنهم أولوا الاستواء على العرش بخمسة عشر تأويلا(٢) فأى هذه المعانى هو الصحيح ؟، وقد فسروا اليد بمعنى القدرة والنعمة ، وإذا كان التأويل ظنيا على هذا النحو ، فإنه مما يتعذر الاعتماد عليه فى مسائل العقيدة التى ينبغى أن تقوم على اليقين .

د - أن بعض النصوص الواردة فى بعض الصفات يتعذر تأويها ، ومن أمثلة ذلك النصوص الواردة فى اليد ، ويلاحظ أن اليد جاءت مفردة فى مثل قوله تعالى : « بيدك الخير » (آل عمران : ٢٦) وجاءت مثناة فى مثل قوله تعالى : « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىَّ أستكبرت أم كنت من العالين » (ص : ٧٥ وانظر آية ٦٤ من المائدة) ثم جاءت مجموعة فى قوله تعالى : « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون » (يس : ٧١) . فإذا أمكن تأويل اليد إذا جاءت مفردة بالنعمة أو القدرة ، فكيف يمكن تأويلها إذا جاءت مثناة أو مجموعة ؟؟ .

---

(١) انظر الملل والنحل فى المواضع السابقة .

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ، على الجهمية والمعطلة ، لمحمد بن الموصلى ، نشرة زكريا على يوسف ، د . ت والكتاب اختصار لكتاب ابن القيم . وابن القيم يورد هذا الرأى ويبطله . انظر ص٣٩٧ وما بعدها . فتاوى ابن تيمية ٥١٨/٥ - ٥٢٠ ، وانظر للرأى نفسه : العواصم من القواصم لابن العربى ، تحقيق د / عمار طالبى . دار الثقافة : قطر ط١٩٩٢/١ ص ٢١٤ .

ثم لا يخلو تأويل بعض النصوص من تعسف ، ومن أمثلة ذلك تأويل المعتزلة لمثل قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » (القيامة : ٢٢ ، ٢٣) فقد أولوها بما يتفق مع قولهم فى بإنكار رؤية الله فى الآخرة ، وقد أولوا : ناظرة بمعنى منتظرة أو متوقعة وقالوا إن إلى ليست هى حرف الجر المعروف وإنما هى إلى واحد الآلاء بمعنى النعمة ، ومعنى الآية على هذا أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه[1] وعندما وجد بعض المعتزلة ومن وافقهم نصوصا كثيرة تثبت الرؤية فى الآخرة للصالحين من عباد الله تعالى دون إحاطة قالوا إنه لا يستدل فى هذه المسألة بالسمع أصلا[2] .

هـ - أنه لا يوجد تحديد للنطاق الذى يستعمل التأويل فيه ، وقد وجدنا من الفرق من يستعمله فى بعض نصوص الصفات ، ثم وجدنا منهم من يستعمله فى أكثر النصوص الواردة فيها ، ثم مد بعض الفلاسفة والمتكلمين نطاقه إلى ما يتعلق بالآخرة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، وظهر من الفلاسفة (كابن سينا) من يقول إن ما جاء من وصف للجنة ونعيمها وللنار وعذابها لا حقيقة له ، وإنما سيق للترغيب والترهيب ثم امتد النطاق أكثر وأكثر حتى شمل - لدى الباطنية - أركان الشريعة الإسلامية كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ، وقد أولها هؤلاء[3] بما يخرجها عن حقيقتها التى عرفها المسلمون منذ عهد الرسول (ص) . ومعنى هذا أن التأويل فيه خطر على الشريعة ، وينبغى إغلاقه سدا للذرائع ، وإغلاقا لباب الاختلاف والفُرْقة .

٤ - تفويض العلم بحقائق الأسماء والصفات إلى الله تعالى ؛ لأنه لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه : ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب »

---

(١) انظر : الكشاف للزمخشرى : محمود بن عمر ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٢/٤ ، وانظر مثالا آخر ٥٨٢/١ . وانظر شرح الأصول الخمسة ٢٤٥ .

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق للبغدادى ص٢٩٦ وانظر : ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٣ .

(آل عمران : ٧٠) .

ثم ينبغى صرف النفس عن الخوض والتنقيب فى مثل هذه الأمور التى لا طاقة للعقل بها ، وفي مثل ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قدره ، وبعضهم يرفعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم(١) ولذلك كان الصحابة ومن أخذ بمنهجهم يؤمنون ويسلّمون بهذه الصفات كما جاءت ، وعلى هذا جاءت إجابة الإمام مالك* عندما سئل عن قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (طه : ٥) ، وقد قال - بعد طول تأمل : « الاستواء منه معلوم ، والكيف منه غير معقول ، والسؤال عن هذا بدعة ، والإيمان به واجب » ثم أمر بإخراج الرجل من مجلسه(٢) .

٥ - حرص أهل السنة على ربط العقيدة بالعمل بصفة عامة ، وينطبق ذلك على الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته ، فليس المقصود مجرد الإيمان النظرى الذى لا ثمرة له ، بل يجب استحضار آثارها فى الشعور والسلوك " فلكل صفة (منها) عبودية خاصة بها هى من موجباتها ومقتضياتها ... فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضرر والنفع ، والعطاء والمنع ، والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه . وعلمه بسمعه تعالى وبصره ، وعلمه بأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله ، وأن يجعل تعلق هذه

(١) انظر لتوثيق هذا القول : حلية الأولياء للأصبهانى ٦/٦٦ ، ٦٧ ومنتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ١/١٥٥ ، وتخريج الحافظ العراقى لأحاديث الإحياء ٤/٥٢٦ وفتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر (طبعة الريان) ١٣ / ٣٩٤ وكشف الخفاء للعجلونى ١/٣٧١ ، ٣٧٢ والمقاصد الحسنة ٢٦٠ . ٢٦١ والجامع الصغير للسيوطى ١/١٣٢ وفتح القدير للشوكانى ٥/١١٦ .

* أو شيخه ربيعة الذى كان يقال له : ربيعة الرأى .

(٢) ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك تحقيق د/أحمد بكير محمود . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر ليبيا ١٩٦٧ جـ١ / ١٧٠ ، ١٧١ والعواصم من

الأعضاء يحبه الله ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطنا ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء(١) وعلمه بأن الأمور كلها بيد الله وحده يورثه التحرر من الخوف من الخلق ، ويمنحه شعورا بالعزة التى جعل الله منها نصيبا للمؤمنين ، وعلمه بفضل الله ورحمته وإحسانه وحسن جزائه يهون عليه البلاء ، ويعينه على تحمله والصبر عليه ، وهكذا تكون الصفات الإلهية "منارات" يهتدى المؤمن بها ، وله في كل منها مدد ونور وزاد .

ويمكن لنا ونحن نختم الحديث عن هذه المسألة أن نشير إلى أنها قد كانت موضع صراع مرير بين المسلمين في عصورهم القديمة ، وتجلى ذلك فيما عرفه المسلمون في عهد المأمون (٢١٨هـ) باسم محنة خلق القرآن ، وربما سيق المسلمون إلى الجدل حول هذه المسألة ونحوها ، بحيث تتفرق جماعتهم ، وتضعف قوتهم ، ولا يصح أن تظل هذه المسألة متأججة الأوار ، بحيث يستمر تأثيرها السلبى فى حياة المسلمين ، وقد نبه إلى ذلك بعض العلماء منذ زمن بعيد ، ومنهم القاضى عياض الذى نقل عن الإمام مالك كراهته التحدث فى الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى ، وتمنى أن لو وافقه الناس على ترك الحديث بها ، وساعدوه على طيها ، لأن أكثرها ليس تحته عمل ، وقد كان السلف يكرهون الحديث إلا فيما تحته عمل ، وقد أنحى باللائمة على بعض العلماء الذين اعتمدوا فى دراسة هذه المسألة على أحاديث ضعيفة تزيد الأمر بلبلة وتزيد الحريق ضراما(٢) ونادى غيره كالعز ابن عبد السلام بأن يعذر المسلمون بعضهم بعضا في اختلافهم حول الصفات ؛ لأن الجهل بالصفات ليس جهلا بالموصوف(٣) .

---

(١) ابن قيم الجوزية ، مفتاح دار السعادة ٢/٤٩١ ، ٤٩٢ . وانظر : عز الدين بن عبد السلام قواعد الأحكام فى مصالح الأنام : دار الكتب العلمية - بيروت د . ت ١/١٧ ، ١٨ . وقد سلك الغزالى من قبل هذا المسلك وجعله من مهمات كتابه : المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى .

(٢) انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضى عياض . دار التراث . القاهرة ، د . ت ٢/٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٣) انظر : قواعد الأحكام ١/١٧٢ .

وقال أبو إسحاق الشاطبي (٧٩٠هـ) إن من أشد مسائل الخلاف بين الفرق الكلامية مسألة إثبات الصفات ، حيث نفاها من نفاها وأثبتها من أثبتها « فإنا إذا نظرنا إلى مقاصد الفريقين وجدنا كل واحد منهما حائما حول حمى التنزيه ، ونفي النقائص وسمات الحدوث ، وهو مطلوب الأدلة . وإنما وقع اختلافهم في الطريق . وذلك لا يخل بهذا القصد في الطرفين معا »[1] .

وكذلك قال ابن تيمية (٧٢٨هـ) وكأنه كان يحس بوطأة الاختلاف والخلاف في هذه المسألة ، ويحذر من المخاطر المترتبة على ذلك « وكل من أظهر الإسلام ، ولم يكن منافقا فهو مؤمن له من الإيمان بحسب ما أوتيه من ذلك . وهو ممن يخرج من النار لو كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان . **ويدخل في هذا جميع المتنازعين في الصفات والقدر على اختلاف عقائدهم .** ولو كان لا يدخل الجنة إلا من يعرف الله كما يعرفه نبيه صلى الله عليه وسلم لم تدخل أمته الجنة ؛ فإنهم - أو أكثرهم - لا يستطيعون هذه المعرفة ؛ بل يدخلونها وتكون منازلهم متفاضلة بحسب إيمانهم ومعرفتهم »[2] .

ويتفق هذا - من جهة - مع تحذير السلف من الخوض في مسألة الصفات ونحوها مما لم يقع الخوض فيه في عصر الصدر الأول من المسلمين ، ولا سيما مسألة الصفات ؛ « لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كئود ، ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة ... وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض » .

---

(١) الاعتصام ، دار عمر بن الخطاب ، د . ت ١٨٧/٢ ثم أضاف الشاطبي إلى ذلك دعوته إلى اعتبار الاختلاف في هذه المسألة مثيلا للاختلاف الواقع في مسائل الفروع التي لا يقع التكفير بالاختلاف فيها .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٥٤/٥ ، ٢٥٥ .

ومن شأن ذلك وما يتصل به من تقليد وتعصب أن يجعل طريق اليقين والخلاص مسدودا أمام الناس(١) .

ثم هو يتفق - من جهة أخرى - مع الرغبة فى تقليل حدة الخلاف ، ونزع فتيل الفرقة(٢) ، والدعوة إلى اجتماع الكلمة ، وملاحظة جانب ما يقع الاتفاق عليه وهو كثير ، والانصراف عن التركيز على ما وقع فيه الخلاف وحده ، ثم استخدامه لإثارة الجدل ، واختلاف الأهواء ، مع إعجاب كل ذى رأى برأيه ، مما يؤدى إلى تمزيق الأمة شيعا وأحزابا . وما أحوج المسلمين إلى الاتفاق والوحدة . وهم بحاجة إلى ذلك فى كل زمان ، وتزداد هذه الحاجة فى كل وقت يتجه فيه الخطر إلى الإسلام ، كما هو الحال فى هذه الأيام .

---

(١) إحياء علوم الدين ٢١٨/٤ والمخرج عنده - حينئذ - هو الاشتغال بالعمل الصالح وعدم التعرض لما هو خارج عن حد الطاقة .

(٢) انظر هنا : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ، مكتبة مدبولى ط٣ / ١٩٩١ ص٣٦٥ - ٣٦٧ .

« الإيمان باليوم الآخر »

هو أصل عظيم من أصول الدين(١) ، والتصديق به يتضمن التصديق بقدرة الله تعالى على بعث الخلائق بعد موتها ، ثم محاسبتهم على ما قاموا به من أعمال فى حياتهم الأولى أو الدنيا ، ومجازاتهم على هذه الأعمال فى الدار الآخرة التى هى دار الخلود .

ويمكن الإشارة هنا إلى ملاحظتين مهمتين :

١ - أن التفكير فى البعث ، وما يرتبط به من خلود يعد أمرا لا يمكن تجاهله ؛ لأنه يتعلق بمصير الإنسان ، وتحديد الغاية من وجوده وحياته ، وليس هذا بالأمر الهين ، بل إنه يتصل بقضية من أخطر القضايا المتعلقة بالإنسان ، وهى تستحق من الإنسان وقفة تأمل وتفكير ، تعاونه على تكوين رأيه فيها ، وتحديد موقفه منها . ومما يزيد الأمر أهمية أن التفكير فى البعث ليس مهما من الناحية النظرية أو الفلسفية فحسب ، بل إنه مهم - كذلك - لما يترتب عليه من سلوك عملى وأخلاقى فى الحياة الحاضرة للإنسان ، ويتضح هذا بالمقارنة بين شخصين : أحدهما يؤمن بأن وجوده الحاضر هو الوجود الوحيد ، وأن الحياة الدنيا هى نهاية المطاف ، وأنه لا بعث بعدها ولا حساب ، وثانيهما يؤمن بأن وجوده الحالى إنما هو وجود مؤقت وعابر ، وأنه صائر بعد الموت إلي حياة أبدية خالدة ، سيجزى فيها على ما قدمت يداه من خير أو شر . ومن المؤكد أن سلوك كل واحد منهما سيختلف عن سلوك الآخر اختلافا بينا ، من حيث غايات السلوك ، وطبيعة القيم ، ووسائل التنفيذ(٢) .

---

(١) يقول الفيلسوف الألمانى كانط إنه إذا لم يكن هناك اعتقاد فى حياة مستقبلة فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن دين .

voir : les croyanes et les rites ..... o . p . cit p . 157 .

(٢) انظر : الفلسفة القرآنية للعقاد ٢١٠ ، والإسلام يتحدى ٨٣ ، ٨٤ .

٢ - إن الاعتقاد بالبعث يقوم على أن الإنسان ليس جسدا فحسب ، ولكنه جسد وروح ، وأن هذين المبدأين أو العنصرين يختلفان فى طبيعتهما وما يعرض لكل منهما . فالجسد يدركه الموت ، ويلحق به التحلل والتفرق ، ولكن الروح ليست كذلك ؛ لأنها - بحسب النظرة الدينية - كائن علوى لا يلحقه الفناء ، منذ أن تتعلق إرادة الله تعالى وقدرته بخلقها ، فإذا أدرك الموت الجسد ، لم تمت الروح بموته ، بل إن لها حياة توصف - فى الشرع - بأنها حياة برزخية . وهى حياة وسط بين الدنيا والآخرة « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠) .

ويمكن القول بأن التفرقة بين المادة التى تتمثل فى الجسد ، والروح التى ترتبط بها كل مظاهر الحياة لهذا الجسد ، تمثل جزءا من تراث إنسانى عام ، وأن هذه التفرقة قد اتضحت فى الأديان والحضارات بصور متعددة منذ عهد قديم . ويعبر عن هذا أحد الباحثين فى الأديان فيقول : " منذ أكثر من ألفين من السنين ، ميزت الأديان الكبرى بين الطبيعة والروح ، بين المادة والنفس ، وفى اليهودية والمسيحية والمانوية والإسلام والهندوسية(١) .... تعد هذه التفرقة عنصرا أساسيا فى النظام (الدينى) »(٢) وقد ظهرت هذه التفرقة فى عديد من الفلسفات التى تؤمن بوجود الروح ، وتقدم الأدلة التى تؤيد بها هذا الإيمان .

وعلى الرغم من هذا نجد الماديين فى كل العصور ينكرون وجود ماليس بمحسوس ، ويفسرون الوجود تفسيرا ماديا يؤدى بهم إلى إنكار وجود الله تعالى ، وإنكار الغيب والوحى والآخرة ، وما يرتبط بها من وجود النفس وخلودها ، وقد حدثنا القرآن عن نموذج للماديين القدامى ، وهم الذين قالوا : « ... ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ... » (الجاثية : ٢٤) وازداد الميل إلى هذا التفسير المادى

---

(١) يلاحظ أنه يستخدم الدين بمعنى عام ، ولا يحصره فى الرسالات الإلهية .

(٢) voir : les croyances .... o . p . cit p 27 .

فى العصر الحديث ، وبخاصة فى القرن التاسع عشر . وساعد على ذلك توصل بعض العلماء إلى عدد من النظريات المتعلقة بالمادة والطاقة وعلوم الأحياء ، ومن أهم النظريات فى هذا الصدد نظرية دارون ، التى أكسبت التفسير المادى قوة وانتشارا(١) وقد وجدنا من بين هؤلاء من ينظر إلى كل ما يصدر عن الإنسان من صور السلوك والشعور والإدراك العقلى الذى يسمو عن المادة ، على أنه أثر من آثار المادة أو وظيفة من وظائفها . ومن هؤلاء الماديين من يقول : لا فكر بغير فسفور ، أو يقول : إن الفكر بالإضافة إلى الدماغ كالصفراء بالإضافة إلى الكبد(٢) .

ثانيا : مناقشة هذا الاتجاه المادى :

أدى هذا الاتجاه المادى إلى أن يُشَمِّر خصومه من المؤمنين بالله والآخرة عن سواعدهم ، وأن يقدحوا عقولهم كى يظهروا تهافته وعجزه ، على الرغم مما قد يصاحبه من أفكار مزخرفة وحجج براقة ، ثم ليقيموا الأدلة الصحيحة على أن المادة وحدها لا تكفى لتفسر الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية . ويتساءل واحد من هؤلاء قائلا : " هل يحتمل أن ما نشاهده من تصور للمعقولات ، والكشف عن الكليات ، وتفريق القضايا وتركيب القياسات ليس هو فى نفسى إلا اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ؟ وهل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة والمآخذ العميقة كالمنطق والرياضيات والإلهيات ، وما فتنت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء كانبعاث النار من اصطكاك الحجر بالحجر ؟"(٣) والنفى هو الإجابة الصحيحة على هذا التساؤل ؛ لأن المادة إذا كانت

---

(١) انظر : فرانكلين - ل - باومر : الفكر الأوربى الحديث ، ترجمة أحمد حمدى محمود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ ج٦١/٣ ، ٦٢ ، وبترو : العلم والدين فى الفلسفة الحديثة ، مرجع سابق ص ١٠٦ .

(٢) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص ٤٠٠ ، والنظرية المادية فى المعرفة لجارودى ٢٩ - ٣٣ وما بعدها .

(٣) سانتلانا : المذاهب الفلسفية ... ص٤٥ ، ٤٦ .

عاجزة عن أن تكون علة لنفسها - كما سبق القول - فإنها أعجز من باب أولى عن أن تكون علة لما هو أشرف منها وجودا ، وأعلى منها مكانا فى درجات الوجود .

ولم تقف جهود المؤمنين من هذا الاتجاه المادى المنكر لوجود النفس أو الروح عند حد التساؤل ؛ بل إنهم ساقوا عددا من الملاحظات التى تؤكد وجودها ، وشارك فى هذا الجهد فلاسفة ومفكرون ظهروا فى حضارات مختلفة ، وكانت غايتهم أن يثبتوا وجود كائن آخر فى الإنسان غير الجسد ، وهو يختلف فى خصائصه عنه ، وكان مما قالوه :

أ - أن الإنسان يحس بذاته أو ما يسمى فى علم النفس بالأنا العليا ، وهو يحس بها إحساسا مباشرا ، لا يحتاج فيه إلى واسطة ، وهو يشعر أن هذه الذات شىء آخر غير أعضاء جسده ، بل إنه يحس أن لهذه الذات سيطرة على الجسد ، وهيمنة عليه ، فالجسد قد يكون راغبا فى الطعام أو الشراب أو النوم أو غير ذلك من حاجاته ، ولكنه لا يستجيب لهذه الرغبة ، لوجود قوة أخرى فيه ، تمنعه من الاستجابة لهذه الحاجات ، وقد يختلف السبب الذى من أجله تمتنع هذه القوة عن مسايرة حاجات الجسد ، بل قد تختلف التسمية التى تعطيها لهذه القوة ، فقد تسمى نفسا أو روحا أو عقلا أو ضميرا ، ولكن المهم أنها موجودة ، ولها الهيمنة على هذا الجسد .

وقد أوضح ابن سينا (٤٢٨هـ) - الذى يمكن اعتباره واحدا من كبار المهتمين بموضوع النفس(١) - هذا المعنى فى برهان يقول فيه ابن سينا إن الإنسان يقول : " أدركت الشيء الفلانى ببصرى فاشتهيته ، أو غضبت منه ، وكذا يقول : أخذت بيدى ، ومشيت برجلى ، وتكلمت بلسانى ، وسمعت بأذنى ، وتفكرت فى كذا ، وتوهمته وتخيلته ، فنحن نعلم بالضرورة أن فى الإنسان شيئا جامعا يجمع هذه الإدراكات ، ويجمع هذه الأفعال ، ونعلم أيضا بالضرورة أنه ليس شىءٌ من أجزاء هذا البدن ، مجمعا لهذه الإدراكات والأفعال ، فإنه لا يبصر بالأذن ، ولا يسمع بالبصر ، ولا يمشى باليد ، ولا يأخذ بالرجل .. فإذن الإنسان الذى يشير إلى نفسه بـ "أنا" مغاير لجملة

(١) د/ إبراهيم مدكور : فى الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيقه . دار المعارف ط٢ /١٩٦٨ جـ١ / ١١٩ وما بعدها

أجزاء البدن ، فهو شيء وراء البدن(١) ويزداد الإحساس بهذه الذات فى لحظات الاستغراق فى التأمل والتفكير ، حتى إن الإنسان ربما يغيب عن إحساسه بجسده ومتطلباته فى أثناء هذه اللحظات ، ولكن احساسه بذاته لا يغيب ، بل إنه فى أثناء تفكيره ، وتأمله يكاد يقترب من أن يكون نفسا أو روحا خالصة ، وقد عبر ابن سينا عن هذا أيضا فى برهان سماه " الرجل الطائر "(٢) .

ب – يتصل بما سبق أن احساس الإنسان بذاته وجوهره وكينونته إحساس مستمر لا ينقطع ، منذ ولادته إلى وفاته ، وهذا على الرغم من أن جسده يخضع في كل لحظة لعمليات هدم وبناء تتغير بهما خلايا الجسد وأجزاؤه ، ولو كانت النفس من طبيعة هذا الجسد أو قوة من قواه لأصابها ما يصيبه من تغيير ، ولانعدم هذا الاحساس المستمر بالذات الإنسانية(٣) .

جـ – ويتأكد هذا الفرق بملاحظة الجانب العقلى والفكرى للإنسان ، حيث لا يرتبط هذا الجانب بالحالة التي يكون عليها الجسد ارتباطا كاملا متوافقا ، بل إنه قد يكون ارتباطا عكسيا فى بعض الأحوال . ويظهر هذا إذا تذكرنا إن الإنسان يزداد خبرة وذكاء ، وقدرة على الإدراك والابتكار والفهم ، كلما زاد عمره ، ويحدث هذا فى الوقت الذى يتجه فيه الجسد إلى الضعف والوهن عند تقدم السن ، ولو كان الاثنان من جنس واحد لكانا على حالة واحدة من الضعف أو القوة ، لكن الأمر ليس كذلك دائما ، لأن الجسم يبلغ أقصى قوته فى مراحل العمر الأولى ، على حين أن القوة العقلية تبلغ مراحل نضجها ، فيما بعد ذلك(٤) .

---

(١) ابن سينا : رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، ملحقة بكتابه : أحوال النفس . تحقيق د/أحمد فؤاد الأهوانى ، طبع عيسى البابى الحلبى ط١/١٩٥٢ ص١٨٤ .

(٢) يمكن الرجوع إليه فى كتابه الشفاء من الإلهيات ، ١/٢٨١ والإشارات والتنبيهات ، تحقيق د/ سليمان دنيا ، دار المعارف ط٣/١٩٩٢ جـ٢/٣٤٤ – ٣٤٦ ومنهج تطبيقه ١/١٤٢ .

(٣) ابن سينا ، رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٤) ابن سينا : مبحث عن القوى النفسانية ، مع كتاب أحوال النفس ١٧٥ .

د - أدى تقدم العلم إلى أن يعرف العلماء مكونات الخلية وعناصرها ، ونسبة وجود كل منهما فى الخلية ، ولكن ذلك ليس معناه خلق الحياة فى هذه الخلية ؛ لأن الخلق مرتبط بنظام يعجز العلماء عن التوصل إليه .

ولقد يدل على هذا أن حبة القمح تتعرض للطحن أو الحرارة فلا تصلح للإثمار مرة أخرى ، على الرغم من ثبات كميتها وعناصرها . ولكن ما أودع فيها من قوة الحياة قد تحلل بما تعرضت له ، ومعنى ذلك أن سر الخلق أو النظام المودع فيها شىء آخر غير المادة المعروفة لنا ، وإذا كان الأمر كذلك فى حبة القمح فإنه ينطبق على النفس والبدن من باب أولى .

- « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (الإسراء : ٨٥) وبسبب هذه الروح تتحول قبضة الطين إلي كائن علوى مكرم :

وتزعم أنك جرم صغير .. وفيك نطوى العالم الأكبر

ثالثا : البعث ممكن :

وللنفس - إذن - وجودها الذى تتميز به عن البدن . ومن أوجه هذا التميز أنها لا تموت بموته ، بل إن لها وجودا مستمرا بعده ، وإن يكن فى صورة غير الصورة المألوفة ، وعندئذ يمكن أن نتساءل : هل البعث ممكن ؟ وهل توجد أدلة على ذلك ؟

ولا ريب أن الماديين سيجيبون على هذين السؤالين بالنفى ؛ لأنهم لا يعترفون بوجود النفس أصلا ، فكيف يعترفون بخلودها وبعثها ؟ .

والدهريون الذين تحدث القرآن عنهم كانوا يحتجون بأنهم لم يشاهدوا أحدا من الموتى قد عاد إلى الحياة[1] لتكون عودته برهانا عمليا على البعث « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » (الجاثية : ٢٥) .

---

(١) ستأتى إشارة إلى وقوع هذا فى عصور ونبوات مختلفة .

والمشركون الذين شهدوا مبعث الإسلام كانوا فى شك من أمر البعث . وقد عرض القرآن رأيهم هذا فى آيات كثيرة منه ، وذكر وصفهم للبعث بأنه من أساطير الأولين[1] وكان بعضهم يستبعد وقوعه ، ويتعجب منه ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى بيان رأيهم « أئذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد » ؟ (ق : ٣) وكانوا يسخرون ممن يذكر لهم ذلك ، ويصفون قوله بأنه سحر مبين « بل عجبت ويسخرون ، وإذا ذكروا لا يذكرون ، وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ (الصافات : ١٢ - ١٧) .

ويلغ من سخريتهم واستهزائهم أن أحدهم[2] جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده عظم رميم ، " وهو يفتته ويذريه فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : نعم ، يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار "(١١) .

واتهموا الرسول بالكذب والجنون بسبب قوله هذا : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم : إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة » ؟ . سبأ : ٧ ، ٨) .

ومن أجل ذلك عنى الإسلام بالبعث واليوم الآخر ،ورد على المستهزئين بهما ، والمنكرين لهما ، وجاءت هذه العناية متفقة مع أهمية هذه العقيدة بين أصول الدين[3] .

---

(١) انظر - مثلا - ٨١ - ٨٣ سورة : المؤمنون ، ٦٦ - ٦٨ من سورة النمل .

(٢) هو أبىّ بن خلف ، أو العاصى بن وائل . انظر تفسير ابن كثير ٥٧٩/٦ ، ٥٨٠ .

(٣) المذاهب - بصفة عامة - فى البعث بعد الموت ، خمسة :

١ - القول بثبوت المعاد الجسمانى وحده . وهو قول بعض المتكلمين .

٢ - القول بثبوت المعاد الروحانى وحده . وهو قول كثير من الفلاسفة الإلهيين .

٣ - القول بثبوت المعاد الروحانى والجسماني جميعا . وهو قول جميع الإسلاميين .

٤ - القول بإنكار المعاد جملة . وهو قول قدماء الفلاسفة الطبيعيين (وهو قول الماديين فى كل عصر) .

٥ - التوقف فى أمر المعاد ، دون قطع بإثباته وإنكاره . وهو قول الشكاك اللاأدريين ، انظر : فخر الدين الرازى ، الأربعين فى أصول الدين، مكتبة الكليات الأزهرية ، الجزء الثانى١٩٨٩ ص٥٥.

وقد أوضح القرآن أن الإيمان باليوم الآخر وما بعده ليس أمرا ينفرد به الإسلام ، وإنما هو أمر عام تضمنه الوحي الإلهي إلى كل رسول ، وفي ذلك يقول اللــه تعالى : « يلقى الروح من أمره ، على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون ، لا يخفى على الله منهم شيءٌ . لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار » غافر : ١٥ ، ١٦) ثم يذكر ذلك في ثنايا حديثه عن بعض الأنبياء ، ومنهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى عليهم السلام[1] .

ولم يكتف القرآن بالمطالبة بالإيمان باليوم الآخر ، بل تضمن - كشأنه في مسائل العقيدة - عددا من الأدلة التي توضح أن البعث أمر ممكن ، وهي تتميز - كما تميزت أدلة القرآن على الإيمان بالله تعالى وتوحيده - بالمقدمات الواضحة التي توصل إلى اليقين من أقرب طريق .

وقد جاء عدد من الأدلة في الآيات الأخيرة من سورة يس وهي قوله تعالى :

- « وضرب لنا مثلا - ونسي خلقه - قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن

---

(١) انظر لنوح : ١٧ ، ١٨ من سورة نوح ، ولإبراهيم : ٨٢ من سورة الشعراء ، ولموسى : الأعراف ١٥٦ ، ١٥٩ ، والأنبياء : ٤٨ ، ٤٩ ، وغافر : ٢٧ وقد جاء ذلك على لسان السحرة الذين آمنوا بدعوى موسى : طه : ٧٢ - ٧٦ ، ولعيسى : المائدة : ٧٢ ، ١١٦ - ١١٩ ، ٣٣ من سورة مريم ، وقد كان الإيمان بالبعث مما أوحاه الله إلى آدم عليه السلام . انظر الآيات ٣٨ ، ٣٩ من سورة البقرة ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه ، ويذكر الفيلسوف الألماني كانط إن اليهودية ربما فقدت مذهبها الأصلي الذي يتضمن جنة ونارا ، لأن المشرعين لهذا الشعب رغبوا في أن يؤسسوا دولة سياسية ، لا جماعة أخلاقية . وترتب على ذلك أنه أمكن الحديث ، لا عن ثواب وعقاب أخروي ، لكن عن هذا الذي يمكن أن يرى في الأرض ومن قبله قال ابن حزم : " وأما التوراة التي بأيدي اليهود فليس (فيها) ذكر لنعيم الآخرة أصلا ولا لجزاء بعد الموت " .

voir : les croyances ... o . p . cit p . 108

والفصل لابن حزم ١٠٩/٢ وانظر : قصة الحضارة لديورانت مجلد ١ جـ٢ / ٣٤٥ .

يخلق مثلهم ، بلى ، وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » (يس : ٧٨ - ٨٣) .

وتتضمن هذه الآيات ثلاثة من الأدلة :

١ - يستدل القرآن بالخلق الأول الذى تحقق فى الوجود على إمكان وقوع الخلق الثانى الذى يُنْتظر وقوعه ، وقد أقام القرآن الدليل على أن خالق العالم والإنسان هو الله تعالى ، وأنه لا خالق غيره ، ولا رب سواه ، ومادام الله عز وجل هو الذى فعل ذلك أول مرة فإنه لا يعجزه أن يعيد خلقه مرة ثانية ، لأن من الأمور الواضحة البدهية لدى العقل أن إعادة الشىء أيسر وأهون من إنشائه وإيجاده فى المرة الأولى ، خاصة وأن هذا الخالق موصوف بالعلم الذى لا يغيب عنه شىء ، وبالقدرة التى لا يعجزها شىء ، ولذلك يقول الله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (الروم : ٢٧) وقد تكرر[١] التذكير فى القرآن بهذه الحقيقة البدهية الواضحة لما تتميز به من سهولة الفهم ، وقوة الإقناع .

٢ - يشير القرآن فى الدليل الثانى إلى مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى ، وهو القدرة على أن يخرج للناس من الشجر الأخضر نارا ، ومعني ذلك القدرة على إخراج الأشياء من أضدادها ، أو تعاقب الأضداد على الشىء الواحد ، فالشجر الأخضر يتصف بالرطوبة والبرودة بسبب ما فيه من ماء ، ولكنه يتحول من هذه الحالة إلى نار حارة جافة ساخنة ، وهذا أمر مشاهد ، وخاصة فيما يحدث من حرائق الغابات التى تتحول فيها الأشجار الخضراء إلى كتل ملتهبة . والذى يفعل ذلك لا يعجز قدرته أن يأتى بالحياة بعد الموت كما حدث فى الخلق الأول ، وأن يأتى بالموت بعد الحياة كما يحدث عند الموت ، ثم لا يعجزه كذلك أن يأتى بالحياة الثانية الدائمة الباقية عند القيامة والبعث ، ولذلك وصف الله عز وجل بأنه يخرج الحى من الميت ،

---

(١) انظر مثلا : الإسراء : ٥١ ، والأنبياء : ١٠٤ .

ويخرج الميت من الحى[1] ، وهذا مثل لإخراج الأشياء من أضدادها . وهو من دلائل القدرة التى يعيد الله تعالى بها الخلائق مرة أخرى ، وقد جعل الله الدلائل على ذلك ملموسة محسوسة ، حتي يستدل الناس بما وقع أمامهم على ما سيقع فى المستقبل من بعث الله تعالى للأجساد .

٣ - أما الدليل الثالث فإنه يستند إلى أمر مستقر فى فطرة العقل ، وهو أن الذى يستطيع أن يخلق ما هو كبير عظيم ضخم من المخلوقات قادر على أن يخلق ما هو صغير منها ؛ لأن أمر الصغير أيسر من الكبير ، وقد خلق الله تعالى السموات والأرض على ما فيهما من ضخامة وعظمة واتساع واتقان ، وهما أعظم فى الخلقة من الإنسان ، كما هو مشاهد ملموس « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (غافر : ٥٧) ومادام الأمر كذلك فإن خالقهما قادر علي خلق الإنسان وإعادته ، دون مشقة ولا عسر ، وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل فى آيات أخرى من القرآن[2] .

وقد ختم القرآن الحديث عن هذه الأدلة الثلاثة مذكرا بأن قدرة الله لا يعجزها شىء ، وأن أمره نافذ لا مرد له ، وأنه لا تستعصى عليه الخلائق ولا طبيعتها ، وإنما هى خاضعة لأمره ، منفذة لحكمه ، لأن بيده ملكوت كل شىء ، ومقاليد كل شىء ، وهذا كله يجعل البعث أمرا ممكنا لا استحالة فيه « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » (يس : ٨٢ ، ٨٣) .

وقد تناول الفيلسوف الكندى هذه الآيات ، واستخرج ما فيها من أدلة معجزة ، واعترف بسمو أدلة الشرع على ما يمكن للعقول البشرية أن تتوصل إليه " فأى بشر يقدر بفلسفة البشر أن يجمع فى قول بقدر حروف هذه الآيات ، ما جمع الله - جل وتعالى - إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فيها ، من إيضاح أن العظام تحيا ، بعد أن تصير رميما ، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ، وأن الشىء يكون من نقيضه

---

(١) انظر مثلا : آل عمران : ٢٧ ، يونس : ٣١ ، الروم : ١٩ .

(٢) انظر مثلا : الإسراء : ٩٩ ، والأحقاف : ٣٣ .

كَلَّتْ عن مثل ذلك الألسن المنطقية ... وقصرت عن مثله نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية "(١) .

٤ - يوجه القرآن الإنسان إلى ظاهرة من الظواهر الطبيعية المحسوسة وهى ظاهرة تجدد الحياة فى الأرض المقفرة الجرداء ، فالأرض تكون خامدة هامدة ، بسبب الجفاف الذى يصيبها ، لعدم نزول المطر عليها ، فيموت ما فيها من زرع ، ويضطر الإنسان إلى الهجرة بما معه من حيوان ؛ بحثا عن الماء ، الذى به قوام الحياة ، وهى عندئذ أشبه شىء بأن تكون ميتة ؛ لأنه ليس فيها من مظاهر الحياة شىء ، وبينما هى على هذه الحال ، إذا بالمطر ينزل عليها ، فتستعيد حياتها وخضرتها وبهجتها ، ثم تتحرك أحشاؤها بالثمر النضيج ، وتهتز تربتها بحركة النبات فيها ، فإذا هي حية بعد موت ، متحركة بعد خمود . وهذه الظاهرة تقع فى مناطق كثيرة من الأرض ، وفى أزمان كثيرة متعددة ، وهى جديرة بأن تقرِّب أمر الحياة بعد الموت ، « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ومن أجل ذلك يتكرر الحديث عنها فى القرآن(٢) « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير »(فصلت : ٣٩) .

وقد جاء فى السنة أن أبا رزين العقيلى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال (الرسول) : أما مررت بوادى أهلك محلا (جدبا) ؟ قال : بلى . قال : أما مررت به يهتز خَضِرا ؟ قال : قلت : بلى . قال : فكذلك يحيى الله الموتى ، وذلك آيته فى خلقه »(٣) .

٥ - يوجه القرآن النظر - كذلك - إلى ظاهرة تتعلق بالإنسان نفسه ، وهى ظاهرة النوم واليقظة ، التى يخضع لها البشر جميعا ، ولا شك أن النائم يفقد كثيرا

---

(١) رسائل الكندى ، ١/ ٣٧٦ .

(٢) انظر مثلا : الآية ٥٧ من سورة الأعراف ، و٥ - ٧ من سورة الحج و ٩ من سورة فاطر ، ٩ - ١١ من سورة : ق .

(٣) مسند أحمد ٤ / ١١ ، ١٣ .

من الإحساس بالوجود من حوله ، كما تقل قدرته على الحركة العاقلة ، والاستجابة الواعية لما يعرض له ؛ لأن عقله وحواسه لا يعملان بالطريقة المعتادة له فى حالة اليقظة ، ومن هنا قيل : إن النوم شبيه الموت ، فإذا استيقظ الإنسان من نومه فكأنما عاد إلى الحياة مرة أخرى ، ولا غرابة - إذن - فى أن يعود الإنسان من الموت الحقيقى إلى البعث الحقيقى ؛ لأنه يعيش تجربة الموت والحياة فى كل يوم ، ومن حديث القرآن عن هذا المعنى قوله تعالى :

- « وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ، وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » (الأنعام : ٦٠ ، ٦١) .

- « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[١] (الزمر : ٤٢) .

ومن أجل هذا الارتباط بين النوم والموت كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه ، يقول : « اللهم باسمك أحيا وأموت . وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » وكان يوصى بأن يقول المسلم عند نومه « باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين[٢] .

---

(١) أعلن باحث أمريكى كبير إسلامه وتسمى باسم عبد الله أليسون ، وذلك فى مؤتمر طبى عقد بالقاهرة ١٩٨٥ ، وقد كان يدرس علاقة الموت بالنوم ، وكانت هذه الآية من أسباب إسلامه ، لما رأى فيها من دقة وإعجاز . انظر : الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها فى القرآن الكريم للدكتور سليمان عمر قوش ، دار الحرمين ، الدوحة ط١/ ١٩٨٧ ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب التوحيد ، باب السؤال بأسماء الله والاستعاذة بها ٨ / ١٦٩ .

٦ - إذا كانت الأدلة السابقة كلها تخاطب العقل ، وتوقظ الفكر ، وتدفعه إلى الاعتبار بما يشاهده من الظواهر فى نفسه وفى الطبيعة من حوله ، فإن القرآن قد أضاف إلى ذلك دليلا آخر مستخلصا من " وقائع " متعددة ، بعث الله تعالى فيها بعض الموتى فى هذه الدنيا ، لتكون دليلا عيانيا شاهدا على قدرة الله تعالى على البعث العام الذى يكون للخلائق كلها .

وقد ذكر القرآن نماذج كثيرة لهذا الإحياء ، منها : إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام (آية ٢٦٠ من سورة البقرة) وإحياء هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم (البقرة : ٢٤٣) ومنها - أخْذ فريق من بنى اسرائيل بالصاعقة ثم إحياء الله لهم بعد ذلك (البقرة : ٥٥ ، ٥٦) ثم إحياء الله لقتيل بنى اسرائيل بعد ضربه بجزء من بقرة مذبوحة ، وهى التى وردت فى قصة البقرة التى أمرهم الله بذبحها (البقرة : ٦٧ - ٧٣) . ثم إحياء الله لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . فتعجب أن تعود إلى الحياة بعد موتها . فأماته الله مائة عام . ثم أحياه بعد موته ، وأراه الحياة وهى تعود إلى حماره الذى كان قد مات معه (البقرة : ٢٥٩) .

وقد تحدث القرآن عن إحياء الله تعالى للموتى - بإذنه وقدرته - على يد عيسى عليه السلام (آل عمران : ٤٩ ، والمائدة : ١١٠) وكذلك تحدث عن أهل الكهف الذين لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين ثم ازدادوا تسعا ، لا يأكلون ولا يشربون ، ثم بعثهم الله تعالى مرة أخرى ، ليعلم الناس أن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها (الكهف ٩ - ٢٦ وخاصة ٢١) .

ويلاحظ أن التصديق بهذه الوقائع كلها مبنى على الإيمان بصدق خبر الله كما جاء في القرآن وغيره من الكتب الإلهية التى أنزلها الله على الأنبياء ، وعلى ذلك ينتقل البعث من كونه أمرا ممكن الوقوع ، إلى كونه أمرا قد وقع فعلا ، وهذا أقوى فى الدلالة ؛ لأنه ليس الخبر كالعيان[1] .

---

(١) انظر : درء تعارض ٣٧٥/٧ - ٣٧٧ .

رابعا : البعث ضرورة :

إذا كان البعث - بحسب الأدلة السابقة وما يشبهها - أمرا ممكنا أو واقعا فهل ثمت ضرورة تدعو إليه ؟

ويمكن لنا أن نجيب بالإيجاب والإثبات فى ضوء الأسباب والملاحظات الآتية :

١ - يتفق الإيمان بالبعث مع وصف الله تعالى بالحكمة والعدل ، وتنزيه فعله تعالى عن العبث . وقد خلق الإنسان ، وجعله خليفة فى الأرض ابتلاء وامتحانا له :

- « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (الكهف : ٧) .

- « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (الأنعام : ١٦٥) .

أ - ولو لم يحاسب الناس على أعمالهم لما كان للابتلاء معنى ، ولما كان للتكليف حكمة ، ولكان الأمر كله نوعا من العبث الذى يتنزه فعل الله تعالى عنه ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق » (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) ويقول : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » (القيامة : ٣٦) .

ولو لم يحاسب الناس على أعمالهم لتساوى أهل الكفر وأهل الإيمان ، وأهل الشر وأهل الخير ، وهذا يتنافى مع عدل الله تعالى الذى لا يظلم مثقال ذرة[1] « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » (الأنبياء : ٤٧) وقد أوضح القرآن ذلك فى آيات كثيرة ، ليكون الناس على بينة من الأمر ، « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة » (الأنفال : ٤٢) ولئلا ينساقوا وراء الأوهام ، « أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما

(١) لهذا كان من أسماء القيامة : يوم الفصل . انظر : آية ٢١ من الصافات ، ٤٠ من الدخان ، ٣٨ من المرسلات .

يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » (الجاثية : ٢١ ، ٢٢) .

ب - وتتأكد الحاجة إلى العدل كلما تأملنا فى واقع المجتمعات الإنسانية التي لا يمكن أن يتحقق فيها العدل بصفة مطلقة ، بسبب قصور القوانين البشرية وخضوعها للهوى أحيانا ، وبسبب العجز عن تطبيق القوانين أو الالتفاف من حولها ، وخداع القائمين عليها أحيانا أخرى ، ويترتب على ذلك أن يعاقَبَ الأبرياء الذين لم يرتكبوا شيئا يستحقون العقاب عليه ، وأن ينجو بعض المجرمين مما يستحقونه من عقاب ، وقد تكون جرائمهم من البشاعة والقسوة والشمول بحيث لا يكفى فيها عقاب دنيوى مهما كانت شدته . ويزداد الظلم فداحة إذا كان الظالمون في موقع يتيح لهم أن يستروا مظالمهم ، وأن يتظاهروا بأنهم أهل حق وعدالة ، وأن يتخذوا من هذا كله وسيلة للتنكيل بالأبرياء من أهل الصلاح والتقى « إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ، أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين » (آل عمران : ٢١ ، ٢٢) .

ولقد يدلنا النظر فى أحوال البشر أن كثيرا من الأشرار الذين يستهينون بالفضائل والمثل العليا يعيشون عيشة مترفة ، لا تتلاءم مع ما يستحقونه من ازدراء واحتقار وعقاب ، على حين أن أصحاب الحق ودعاة الفضيلة يعيشون عيشة قاسية معذبة . ولو لم يكن لدينا إلا هذه الحياة لكان الأشرار أسعد الناس حظا بها ، ولكان الأخيار أكثر الناس شقاء وبؤسا . وقد تنبه أفلاطون إلى مثل هذا المعنى فيما يعرف لديه بالبرهان الخلقى الذى جعله دليلا على خلود النفس وما يستلزمه من نقاء وطهر أخلاقى(١) .

---

(١) محاورات أفلاطون ، ترجمة د/ زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٤ ص٢٨٢ ، ٢٨٣ .

جـ - يضاف إلى هذا كله أن بعض أعمال الإنسان لا تنتهى آثارها بموته ، بل يظل تأثيرها موصولا بعده ، ويقتضى العدل أن ينال الإنسان جزاء على مثل هذه الأعمال : خيرا كانت أم شرا :

- « إنا نحن نحيى الموتى ، ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » (يس : ١٢) .

- ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فَعُمِلَ بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء »[١] .

ولهذا كله كان ينبغى أن يوجد عالم آخر ، تتحقق فيه العدالة المطلقة ، التى تتلاءم مع حكمة الله وعدله ، وينال بمقتضاها كل إنسان ما يستحقه ، بغير وزر ولا بهتان ، ولا ظلم ولا عدوان .

- « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (الزلزلة : ٧ ، ٨) وهذا هو عالم الآخرة الذى يعد القول به ضرورة أخلاقية ، جعلت العقل البشرى ذاته يتصوره ويهفو إليه .

د - يعد الإيمان بالآخرة وما فيها من حساب عاملا مهما فى إضفاء طابع خلقى على الحياة الأولى أو الحاضرة ، حيث يعتقد الإنسان أنه محاسب على كل شىء يفعله ، وهذا الاعتقاد يكبح كثيرا من نزواته وشهواته ، ولذلك يأتى الحديث عن الآخرة تذكيرا بهذا الوازع ، وتخويفا من إهماله :

- « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » (المطففين : ١- ٦) .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ٥٣١/٥ ، وانظر كذلك ٥٣٢/٥ . وأورده أحمد بنحوه فى المسند ٣٥٧/٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

- « إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ... »

(النبأ : ٣٩ ، ٤٠) .

- « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتي يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعا .. » (المعارج : ٤٢ ، ٤٣) .

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وحسابها فإنهم يستغرقون فى ملذاتهم :

- « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم »

(محمد : ١٢) .

٢ - إذا كان الإيمان بالآخرة يعد استجابة لضرورة أخلاقية ، فإنه يعد - كذلك - استجابة لحاجة نفسية حيث إن القول بأن الحياة تنتهى نهاية أبدية بالموت لا يقدم أى عزاء أو سلوى لطوائف كثيرة من البشر ، كالمظلومين الذين لا يستطيعون دفع الظلم عن أنفسهم ، والبائسين الذين لا يقدرون على إزالة بؤسهم ، والمرضى الذين لا علاج لهم ، والذين لديهم عاهات لا يجدون ما يعوضهم عنها . ولا شك أن الإيمان بالله واليوم الآخر يمنح هؤلاء وأمثالهم طاقات من الصبر والتحمل ، ويمنحهم الأمل فى عوَض يتناسب مع حرمانهم وآلامهم . وإذا علم هؤلاء أن الله سيعوضهم عما يلاقونه من ضر ، مهما كان يسيرا فإن ذلك يخفف عنهم مرارة المعاناة وقسوتها ، ويتفق هذا مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة » وقوله : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن ، حتي الهم يهمه ، إلا كُفِّرَ به من سيآته »[1] .

أما إذا فقد هؤلاء هذا الإيمان فإنهم يصابون باليأس والقنوط الذى قد يدفع بهم إلى التخلص من الحياة ذاتها .

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر والصدقة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك . ٤٣٦/٥ ، ٤٣٧ .

وليس هؤلاء وحدهم هم الذين يشعرون بهذه المشاعر القاتمة الكئيبة ، بل يشاركهم فيها طوائف من البشر الذين يعتنقون الفكر المادى الذي يحصر الوجود في اللحظة الحاضرة ، ويجعل الفناء والعدم قرينا للمستقبل . إن هؤلاء يتجرعون كؤوس الحسرة واليأس ، ويستغرقهم الإحباط والتشاؤم ، وهذا أحدهم يقول : " القبر ينهى حياة الإنسان ، ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى ، إن هذه المجهودات الطويلة ، والتضحيات والأفكار الجميلة ، والبطولات العبقرية كلها ستدفن إلى الأبد ، مع فناء النظام الشمسى ، إن الكفاح الإنسانى كله سوف يدفن حتما مع الأرض ، تحت أنقاض الكون "(١) ولا شك أن هذه النظرة السوداوية لم تكن لتكون على هذا النحو لو كان صاحبها يؤمن بالبعث الذى ينقل الحياة إلى مستوى أعظم وأرقى وأخلد « ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » (النحل : ٣٠) .

خامسا : تعقيب :

وهكذا تتضافر الأدلة العقلية بمقدماتها البدهية والحسية ، مع الأدلة التاريخية ، والأخلاقية والنفسية على تأييد عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، ويبقى أن بعض العقول تستبعد وقوع هذا الحدث الكونى الذي تتبدل به صورة الحياة الحاضرة ، لتأخذ شكلا جديدا هو عالم الآخرة .

ويمكن القول بأن الاستبعاد - فى ذاته - لا يكفى ليكون دليلا . فكم من أشياء كانت أشبه بالخيال ، ثم حققها تقدم العلم الإنسانى ؟ فهل كان الناس يتوقعون - إلى عهد قريب(٢) - أن يخرج الإنسان من نطاق الجاذبية الأرضية ، وأن يجوب آفاق الفضاء وأن يمشى على القمر ، وأن يرسل السفن الفضائية إلي كواكب أخرى بيننا وبينها مئات الملايين من الأميال وأكثر ؟ وهذا مثال واحد من أمثلة كثيرة يمكن استحضارها .

(١) الإسلام يتحدى ٥٦ .

(٢) إلا فى قصص الخيال العلمى .

ولعل التأمل الدقيق في هذا العالم الذى نعيشه يُقرِّب إلى العقل حدوث القيامة ، إننا نرى ونسمع عن زلازل هائلة ، وبراكين مدمرة ، وفيضانات عارمة ، تؤدى إلى هلاك مئات الآلاف ، وربما الملايين فى لحظات قليلة ، ونري كيف تزول من على الخريطة مدن كاملة بسكانها وعمائرها وكل صورة الحياة فيها . أفليست هذه صورة تقريبية لما يمكن أن يكون فى يوم آت لا ريب فيه ؟ ؟

إن هذا النظام الذى يخضع له الكون بمجراته وأفلاكه يخضع لعلم الله وقدرته وعنايته(١) ، فإذا أريد لهذا النظام أن يأخذ صورة أخرى فلا مشقة على من وضعه أن يغيره ، وهل من المستبعد تغيير هذا النظام بالنسبة لكوكبنا الأرضى ، ونحن نعلم أنه يحمل في أحشائه كتلا من اللهب التي تبدو لعيوننا عندما تقذفها البراكين ، يقول أحد علماء الجغرافيا " إن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ، ومدننا الحضارية المكتظّة بالسكان . وبكلمة أخرى : نحن واقفون على ظهر لغم : ديناميت عظيم ، ومن الممكن أن ينفجر فى أى وقت ليدمر النظام الأرضى بأكمله "(٢) .

وينطبق هذا على ما لا يمكن إحصاؤه من الكواكب والنجوم ، التى لا يعد اصطدامها أمرا غريبا ، بل إن الغريب كما يلاحظ العلماء هو أنها لا تصطدم(٣) ولعل هذا يفسر لنا شيئا مما جاء فى القرآن عن القيامة من انفطار السماء وتشققها ، وتناثر الكواكب ، وانطماس النجوم وانكدارها ، وزلزلة الأرض ، ونسف الجبال وتفجر البحار وغليانها ، وبعثرة القبور وما فيها ، وحشر الوحوش ، وتعطل العشار عن

---

(١) يقول الله تعالى : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم » (الحج : ٦٥) وانظر الآية ٤١ من سورة فاطر .

(٢) الإسلام يتحدى ص ١١٤ .

(٣) السابق ١١٥ .

النتـاج[1] ، ولعل هذا يفسر لنا أن من أسماء القيامة الحاقة والقارعة والطامة والصاخة ، وليس انفراط عقد النظام الكونى - فى صورته الحالية[2] - بالأمر الغريب أو البعيد .

وإذا كان بعض الناس يستبعدون أن تحصى عليهم أعمالهم ، فلقد بين الله لهم أنه يسجل عليهم هذه الأعمال قولا وكتابة :

- « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » (ق : ١٨) .

- « وكلَّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (الإسراء : ١٣ ، ١٤) .

وحدثنا القرآن أن الله يجعل الأعضاء تنطق وتشهد على أصحابها بما فعلت .

- « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (النور : ٢٤) .

- « حتى إذا ما جاءوها (النار) شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » (فصلت : ٢٠) إلى آيات أخرى .

وإذا كان البشر لا يتصورون كيفية هذا التسجيل ، فإن عجزهم عن هذا التصور ليس دليلا على عدم وجوده أو إمكانه ، ولقد رأى الناس فى عصورهم الأخيرة ما يقرب إليهم المسألة ، عن طريق تطور أجهزة التسجيل السمعية والبصرية التى تجعلنا نستحضر وقائع وأحاديث مات أصحابها منذ زمن بعيد ، وإذا كان هذا مما توصل إليه عقل البشر فكيف بالله الذى خلق الوجود كله ؟! .

---

(١) انظر : أوائل سور المرسلات والتكوير والانفطار وغيرها .

(٢) لم يقل القرآن الكريم إن الكون ينعدم تماما ؛ بل قال إنه يتبدل : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار » (إبراهيم : ٤٨) .

ولقد كان المشركون يستغربون أن يعيدهم الله إلى الحياة ، بعد أن تتبدد أجزاؤهم ، وتتفرق أعضاؤهم ، وكان الرد الإلهى عليهم :

- « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ » (ق : ٤) .

- « يأيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير »
(لقمان : ٣٣ ، ٣٤) .

الإيمان بالملائكة : أصل من أصـول الدين[1] ، وهو قـسم من الإيمان بالغـيب الذى جعله الله من صفات المتقين ، بل أول صفاتهم فى قوله تعالى :

– « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين : الذين يؤمنون بالغيب .. » (البقرة : ٢ ، ٣) والإيمان بهم – إذن – يعـد تصديقـا لله عـز وجل ولرسـوله صلى الله عليـه وسلم فيما أخبر به عنهم .

وقد تضمن القرآن والسنة كثيرا من الصفات والحقائق المتعلقة بهم وبأعـمالهم ، سواء ما تعلق منها بالله عز وجل أو بعباده ، أو بالوجود بصفة عامة .

أ – ويدلنا ما جاء فيهما على أن الملائكة لهم طبيعة تختلف عن طبيعة البشر من حيث الخلق ومن حيث التكليف .

– فـمن حيث الخلق يقـول الرسـول صلى الله عليـه وسلم : « خلقت الملائكة من نور[2] ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »[3] .

وقـد كانوا أسبق وجـودا من آدم عليـه السـلام ، كمـا تدل على ذلك الآيات التى تحدثت عن خلق آدم ولا سيما آيات سورة البقرة (٣٠ وما بعدها) .

ويحدثنا القرآن الكريم والسنة بما يفيد أن لهم القدرة على الظهور والتشكل بصور مختلفة ، من بينها الصورة الآدمية ، وقد وقع ذلك لإبراهيم عليه السلام عندما ذهبوا إليه على هذه الصورة ليبشروه بمولد إسحاق عليه السلام ، كما تروى ذلك سور عديدة

---

(١) يأتى ذكرهم بعد الإيمان بالله تعالى أحيانا مثل آية ٢٨٥ من البقـرة ، ١٣٦ من النسـاء ومثل حديث جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ويأتى ذكرهم بعد الإيمان باليوم الآخر مثل آية البر المشهورة (١٧٧ من سورة البقرة وهى التى جرينا عليها فى الترتيب) .

(٢) وصف المشركون الملائكة بأنهم إناث . ورد القرآن عليهم قـولهم فى آيات كـثيـرة . انظر ١٤٩ – ١٥٧ من الصافات ، ١٦ – ٢٠ من الزخرف .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الزهد ٨٤٢/٥ وانظر مسند أحمد ١٥٣/٦ .

من القرآن كسورة هود والحِجْر والذاريات ، ووقع ذلك لنبى الله لوط عليه السلام ، حينما أعلموه بعذاب الله لقومه إلا المؤمنين منهم ، وقد خاطب الملائكة زكريا عليه السلام ويشروه بيحيى نبيا من الصالحين ، وتمثل الملك لمريم بشرا سويا ، وقال لها : إنه رسول ربها إليها ليهبها الله غلاما زكيا ، وقد ظهر جبريل عليه السلام للرسول صلى الله عليه وسلم فى صورة بشرية ، كما جاء ذلك فى حديث الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة ، الذى قال الرسول فى نهايته : « إنه جبريل ، أتاكم يعلمكم أمر دينكم » وجاء فى حديث آخر أن أقرب الصحابة شبها به هو دحية الكلبى[1] .

ولكن هذه الصور التى يتشكلون بها لا تقيدهم ، ولاتمنع حركتهم الطليقة فى النزول والعروج ما بين السماء والأرض ، بإذن الله تعالى ، كى ينقلوا أمره ، أو يبلغوا وحيه ، أو ينفذوا قدره ، ومما جاء فى ذلك قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (المعارج : ٤) .

وقد كان لبعضهم خلقة عظيمة جدا ، ومنهم جبريل عليه السلام الذى ظهر للرسول على صورته الحقيقية فسد الأفق أو سد ما بين الأفق[2] .

وقد جاء فى بعض الأحاديث أنهم يستحون ، وأنهم يتأذون مما يتأذى منه بنو آدم .

– وأما من حيث تكليفهم فإنه يختلف عن تكليف البشر ، الذين خلقهم الله تعالى ، واختبرهم بالتكليف ، وآذنهم بالحساب فى الآخرة ، وجعل الجنة مآلا لأهل طاعته ، والنار لأهل معصيته ، لكن الملائكة ليس من بينهم عصاة بل كلهم طائعون ، عابدون لله تعالى ، كما تحدث القرآن :

---

(١) صحيح مسلم . كتاب الإيمان ، باب الإسراء والمعراج ١/٤٠٦ ، ٤٠٧ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين وبه روايات متعددة عن بعض الصحابة ٤ / ٨٣ ، ٨٤ .

- « وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون » ثم قال عنهم : « بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون » (الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٦ - ٢٨)(١) .

ب - وللملائكة علاقة وثيقة ببنى الإنسان ، وهي علاقة تبدأ منذ بداية وجود الإنسان ، ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد . ثم ينفخ فيه الروح .. »(٢) .

ثم تمتد هذه العلاقة إلي نهاية وجود الإنسان فى الدنيا وفى ذلك يقول الله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » (السجدة : ١١ وانظر آية ٦١ من الأنعام) .

وتتسع هذه العلاقة ، فيما بين الحياة والموت لتشمل أعمالا كثيرة يقوم بها الملائكة ، ومنها تسجيل أعمال بنى آدم عليهم « وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » (الانفطار : ١٠ - ١٢) وهؤلاء يتعاقبون على الناس بالليل والنهار كما جاء فى الحديث .

وإذا كان تدوين الأعمال أمرا يعم بنى آدم كلهم ، فإن صلة الملائكة - بعد ذلك - بالبشر تتوقف على طبيعة أعمالهم ، فالملائكة أولياء المتقين الصالحين ، وهم عون لهم على الخير والهدى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .. » (فصلت : ٣٠ ، ٣١) .

---

(١) وارجع إلى آية ٢٠٦ من الأعراف ، ٥٠ من النحل ، ٣٨ من سورة فصلت ... إلخ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ٧٨/٤ . ورواه مسلم بنحوه فى كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه ... ٤٩٦/٥ - ٤٩٨ .

ويندرج تحت هذه الولاية صور وأعمال كثيرة ، منها :

– أن الله وملائكته يصلون على المؤمنين ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، مع مزيد من الخصوصية للنبى صلى الله عليه وسلم (الأحزاب : ٤٣ ، ٥٦) .

– أنهم يستغفرون للمؤمنين ، ويدعون الله تعالى لهم أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم جنات عدن ، وأن يقيهم السيآت (غافر : ٧ - ٩ ، وانظر آية ٥ من الشورى) .

– أن الله تعالى يجعلهم أسبابا لنصر المؤمنين على أعدائهم . ومن هذا ما تحدث به القرآن عن إمداد الله لرسوله بالملائكة فى غزوة بدر ، فى سورة الأنفال ، وفى غزوة أحد كما جاء فى سورة آل عمران .

– أن من الملائكة سياحين فى الأرض ، " فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى قالوا : هلموا إلى بغيتكم"(١) وهم يحفون مجالس القرآن التى تعقد لتلاوته ومدارسته(٢) .

– وجاء فى الأحاديث أنهم يقفون على أبواب المساجد يوم الجمعة يكتبون المصلين ، وأنهم يحضرون الصلاة ويُؤَمِّنون مع الإمام ، وأن من وافق تأمينه تأمينهم غفر له ، ويؤمنون على من يدعو لأخيه المسلم ، ويقولون له : ولك بمثله . وأنهم يدعون للذين يصلون فى الصفوف الأولى أو على ميامنها ، كما أنهم يصلون على معلمى الناس الخير ، وعلى من يفطر الصائمين ، وعلى من يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويصلون على المصلى ما دام فى مصلاه ، وأنهم يضعون أجنحتهم لطالب العلم رضا بما يصنع ، ويدعون بالبركة والعوض للمنفقين الأسخياء ، وهكذا(٣) .

فإذا جاء أجل أهل الخير والتقوى حضرتهم ملائكة الرحمة ، وقبضت أرواحهم برفق ، وبشرتهم برحمة الله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام

---

(١) مسند أحمد ١٥١/٢ ، ٢٥٢ .

(٢) مسند أحمد ٤٠٧/٢ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة وما يليه ٧٨/٤ - ٨٣ .

عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » (النحل : ٣٢) فإذا قامت القيامة وصار هؤلاء إلى الجنة فإنهم يكونون موضع حفاوة الملائكة « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

وليس للكافرين من هذه الولاية نصيب ، ولذلك لا ينالون من جانبهم دعاء ولا استغفارا ولا بشرى ؛ لأنهم أعداء الله ورسله ، وحزب الضلال والشيطان ، فإذا حضروا لقبض أرواحهم قبضوها مقرونة بمظاهر التحقير والازدراء « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » (الأنفال : ٥٠ ، ٥١) بل إن الكافرين ليدركون هول المصير الذى يقدمون عليه ، وهم في هذه اللحظات الكئيبة ، إذ يطالَبُونَ بأن يتولوا إخراج أنفسهم من أجسادهم ليزدادوا عذابا وألما « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم ، أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » (الأنعام : ٩٣) .

فإذا ذهبوا إلى النار تلقاهم خزنتها ، وأذاقوهم من ويلاتها ما يستحقونه جزاء كفرهم ، فإذا طلبوا منهم التخفيف للعذاب لم يستجيبوا لهم (غافر : ٤٩ ، ٥٠) وإذا رغبوا فى الموت لم يجابوا إلى رغبتهم ؛ لأن الآخرة هى دار الخلود « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ماكثون » (الزخرف : ٧٧ ، ٧٨ وانظر ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر ، ٢٨ من سورة فصلت) .

- وللملائكة أعمال تتعلق بأهل الكبائر والمعاصى ، فقد ورد أنهم يلعنون من يشير على أخيه بحديدة يقصد إيذائه وإخافته والاعتداء عليه ، ويدعون علي الممسك البخيل أن يتلف الله ماله ، جزاء بخله بحق الله وحق ذوى الحاجات ، وأنهم لا يُصَلُّون على النائحة ، وأنهم يردون على من يسب أخاه ، أو يتطاول عليه مادام أخوه صابرا عليه ، ويتباعدون عن المسلم إذا كذب . وهكذا[1] .

---

(١) البخارى ، الموضع السابق .

- ولعل أهم أعمال الملائكة فيما يتعلق بالإنسان أنهم يحملون وحى الله إليه ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » (الشورى : ٥١) ويقول : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وإذا كان الملائكة يقومون بهذه الأعمال كلها ، وبغيرها من الأعمال المتعلقة بالله تعالى أو بالكون أو بالإنسان(١) فإنهم أولا وقبل كل شىء عباد لله تعالى ، لا يعلمون إلا ما علمهم الله « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت علام الغيوب » (البقرة : ٣٢) ولا ينزلون بالوحى إلا بأمر الله تعالى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ قال : فنزلت : « وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا(٢) وما بين ذلك وما كان ربك نسيا » (مريم : ٦٤) .

ولا يصح لأحد من العباد أن يتوجه بالعبادة لهم ، لأن العبادة لا تكون لأحد إلا لله تعالى ، ولذلك ينفى الله تعالى عن أنبيائه أن يأمروا أحدا بعبادتهم أو عبادة الملائكة من دونه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » (آل عمران : ٨٠) . وقد أخبر الله تعالى بأن الملائكة سيتبرأون يوم القيامة ممن يعبدونهم من دون الله (سبأ : ٤٠ ، ٤١) .

وبهذا يكون التوحيد خالصا من كل شائبة ، لتكون العبادة لله وحده لا شريك له .

وما دام الإيمان بالملائكة قسما من الإيمان بالغيب - كما سبق القول - فإنه يجب الوقوف فى شأنه عند ما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله ، دون زيادة ولا نقصان ، بعيدا عن الخيالات والأوهام .

---

(١) من الملائكة حملة العرش ، ومن يطوفون بالبيت المعمور ، ومنهم من يحرس مكة والمدينة حتى لا يدخلهما الدجال ، ومنهم خزنة الجنة والنار ، إلى غير ذلك من الأعمال . وقد خصص السيوطى لهذا كله كتابا سماه : الحبائك فى أخبار الملائك .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ٤/ ٨٠ .

« الإيمان بالوحي والكتب الإلهية »

١ - الوحي لغة وشرعا:

وردت كلمة الوحي في اللغة بمعان متعددة منها : الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي ، والأمر والإيماء والإسرار . وذكر بعض علماء اللغة أن أصل معاني الكلمة يرجع إلى الإعلام في خفاء وسرعة[١] .

وقد استعملت الكلمة بكثير من هذه المعاني في القرآن الكريم ، ولم يأت استعمالها فيه مقصورا على الوحي بمعناه الشرعي الذي يختص الله تعالى به الأنبياء والرسل عليهم السلام[٢] ، بل جاءت الكلمة بمعنى الأمر ، الذي قد يوجه إلى الجماد ، ومنه قوله تعالي في الحديث عن زلزلة الأرض يوم القيامة « وقال الإنسان مالها ؟ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » وقد تأتى الكلمة بمعنى الإلهام ، الذي يتسع مداه ليشمل أنواعا من الخلائق غير الإنسان ، ومنها النحل الذي يقول الله عنه : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات ... » (النحل ٦٨ ، ٦٩) وقد يكون لغير الأنبياء نصيب من هذا الإلهام ، مثلما تحدث القرآن عن أم موسى (القصص ٧) وعن الحواريين المؤمنين بعيسى عليه السلام (المائدة : ١١١) .

أما الوحي بمعناه الشرعي فإنه يمكن التعبير عنه بأنه « إعلام الله تعالى لرسله بشرعه وأمره ، على نحو يصحبه اليقين بأن ذلك الإعلام وارد إليهم من قِبَلِ الله تعالى » .

وينبغي التنبيه إلى أن هذا الوحي - الذي هو أساس النبوة والرسالة ومصدرها - يكون مصحوبا بالبراهين الدالة على صدقه ، وذلك بما يمد الله تعالى به الأنبياء من الآيات

---

(١) انظر مادة : وحى بلسان العرب ، والقاموس المحيط .

(٢) راجع مادة وحى في المعجم المفهرس لألفظ القرآن الكريم ، وارجع إلى تفسيرها في كتب التفسير .

والمعجزات التى لا تكون مستطاعة للبشر ، وبذلك يتميز الأنبياء الصادقون من المتنبئين الأدعياء ، ويفترق الوحى عن الخواطر النفسية والآراء والأفكار التى تكون ثمرة من ثمرات العبقرية ، وكذا أنواع الفراسة التي تكون لبعض أصحاب النفوس الذكية ، أو المتمرسة بالتجارب العملية ، ثم يتميز الوحى - كذلك - عما يقول به بعض الفلاسفة كالفارابى وابن سينا وأمثالهما ، من " فيض " يكون ثمرة للاتصال بالعقل الفعال ، الذى يزعمون أنه عقل سماوى يشرف على ما تحت فلك القمر(١) .

صُوَر الوحــى :

وللوحى بهذا المعنى الشرعى الدينى صور متعددة منها :

- ما جاء فى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » (الشورى : ٥١) .

أ - وقد جاء التعبير عن الصورة الأولى بالوحى ، وهو الإلقاء المباشر في القلب ، وقد يكون ذلك من الله تعالى ، كحديث الله لآدم عليه السلام ، وتعليمه إياه الأسماء كلها ، ثم تفضله عليه بالتوبة بعد المعصية « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » (البقرة : ٣٧) وكحديث الله لموسى عليه السلام عندما ذهب لميقات ربه وقال له : « رب أنى أنظر إليك قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرَّ مكانه فسوف ترانى ... » (الأعراف : ١٤٣ ، ١٤٤) وحديث الله عز وجل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج ، حينما أراه من آياته الكبرى ، وفرض عليه الصلاة ، ورفعه إلى مستوى لم يصل إليه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

وهذه الصورة من صور الوحى هى أشد أنواعه ؛ لأن القوى البشرية لا تقوى على تحملها إلا بمعونة من الله تعالي ، ومما يوضح ذلك أن الله عز وجل عندما تجلى للجبل فى قصة موسى تدكدك الجبل ، وخر موسى صعقا ، ويوضحه كذلك قوله صلى الله

(١) انظر مثلا : آراء أهل المدينة الفاضلة ، مكتبة صبيح ط٢ / ١٩٤٨ ٦٢ - ٦٦ ، والنجاة لابن سينا مرجع سابق ٢٣١ ، ٣١٤ .

عليه وسلم « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلّم أخذت السموات منه رجفة - أو قال رِعدة - شديدة من خوف الله تعالى . فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ... »[1] وقوله : « إذا قضى الله تعالى الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ... »[2] .

وربما كان الإلقاء فى القلب من الملك (بفتح اللام) كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ... »[3] .

ب - أما الصورة الثانية فهى الوحى " من وراء حجاب " ، ومنها حديث الله لموسى عليه السلام عند اصطفائه للرسالة ، عندما نودى « من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين »(القصص : ٣٠) .

ويختلف خطاب الله لموسى فى هذه الصورة عنه فى الصورة السابقة فهو - هنا - لم يكن له علم بالنبوة ، ولا دراية له بها ، ولم يكن خطاب الله معروفا له من قبل ، لا من حيث موعده ، ولا من حيث مضمونه ولا طبيعته ، بل جاءه مباغتا مفاجئا . أما الصورة السابقة فإن تكليم الله تعالى قد خلا من المفاجأة لأنه كان على علم بالنبوة ومقتضياتها ومهماتها . ثم إنه كان على موعد وميقات حدده الله تعالى لمكالمته ،

---

(١) رواه الطبرى فى تفسير الآية ٢٣ من سورة سبأ . تفسير الطبرى ٢٢/ ٦٢ وتفسير ابن كثير ٦/٥٠٤ .

(٢) صحيح البخارى كتاب التفسير ، تفسير سورة سبأ ٦/٢٨ ، ٢٩ وقد أخرجه كذلك فى كتاب التفسير ، تفسير سورة الحجر ٥/٢٢١ وفي كتاب التوحيد باب قوله : ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ٨/١٩٤ ، ١٩٥ ورواه الترمذى فى كتاب التفسير ، تفسير سورة سبأ وقال : هذا حديث حسن صحيح ٥/٤٠ وسنن ابن ماجة ، المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ١/٦٩ ، ٧٠ .

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية ١/٢٧ وانظر تفسير ابن كثير فى تفسير الآية ٥١ من سورة الشورى ٧/٢٠٣ ، ٢٠٤ ، وقال إنه فى صحيح ابن حبان وكشف الخفاء ١/٢٦٨ ، ٢٦٩ .

وهيأه الله جل وعلا له (الأعراف : ١٤٢ ، ١٤٣) .

جـ - وتأتي الإشارة في قوله تعالى : « أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » إلى الصورة الثالثة التى ينزل فيها ملك الوحى إلى الرسل عليهم السلام بما يأمرهم الله تعالى بإبلاغه إليهم ، ومن ذلك قوله تعالى عن القرآن : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وليس بلازم أن يأتى الملك على صورة واحدة ، بل قد يأتى على صور متعددة . وقد سئل الرسول عن ذلك فقال :

« أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على - فيفصم عنى ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى فأعى ما يقول » قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : " ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه (أى يتركه ويدعه) وإن جبينه ليتفصَّد عرقا :(١) ، وربما جاء جبريل عليه السلام إلى الرسول فى صورته ، ولكن ذلك لم يتكرر كثيرا ، بل إن ذلك لم يحدث إلا مرتين(٢) .

د - ومن صور الوحى صورة أخرى لم تتضمنها الآية السابقة وهي الرؤيا الصادقة التى كانت أول ما بدئ به الرسول من الوحى ، كما تقول السيدة عائشة " فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح(٣) ومن هذه الرؤى الصادقة التى حدثت له بعد الوحى بشارة الله تعالى له - وهو فى المدينة بعد الهجرة - بدخول المسجد الحرام فى مكة ، ومعه الصحابة ، آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون »(الفتح : ٢٧) . وقد وقع مثل ذلك لبعض الأنبياء السابقين ، ومنهم إبراهيم عليه السلام حينما أمره الله تعالى

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب بدء الوحى ٢/١ .

(٢) انظر صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة والنجم ٥٠/٦ وتفسير ابن كثير ٤١٩/٧ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب بدء الوحى ٣/١ .

فى المنـام أن يذبح ولده ، فامتثل لأمر ربه ، هو وولده إسماعيل (الصافّات : ١٠٢ ، ١٠٣) ؛ لأن رؤيا الأنبياء حق ، وهم محفوظون بحفظ الله لهم ظاهرا وباطنا ، يقظة ومناما ، ومن هنا كانت الرؤيا وحيا صادقا ، ولم تكن من قبيل أضغاث الأحلام .

الإيمـان بالكتـب الإلهيــة :

يفترق المسلمون عن غيرهم من أتباع الأنبياء السابقين بأنهم مطالبون - بحسب أصول عقيدتهم - بالإيمان بجميع ما أنزل الله تعالى على جميع الأنبياء السابقين .

وهذا الإيمان يتضمن أمرين :

أولهما : الإيمان بما ذكره الله تعالى من هذه الكتب على وجه التعيين والتحديد ، مثل حديث القرآن عن صحف إبراهيم وتوراة موسى ، وكتاب داود وإنجيل عيسى والقرآن الذى أنزله الله على محمد (ص) . وفى ذلك يقول الله تعالى :

- « إن هـذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى »

(الأعلى : ١٨ ، ١٩) .

- « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ... » (المائدة : ٤٤) .

- « وآتينا داود زبورا » (النساء : ١٦٣) .

- « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ... » (المائدة : ٤٦) .

- « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن .. »

(يوسف : ٣) .

أما الأمر الثانى الذى يتضمنه الإيمان بالكتب الإلهية فهو الإيمان العام بكل ما أنزله الله تعالى على أنبيائه ورسله ؛ لأن كتب الله تعالى ليست محصورة في هذه الكتب السابقة ، بل إنها أكثر من ذلك بكثير ؛ لأن الله عز وجل قد بعث فى كل أمة رسولا ، وجعل لكل قوم هاديا ، وأرسل إلى كل أمة نذيرا ، وأعطى لهؤلاء الهداة والرسل والنذر ما يكون سبيلا لهداية أقوامهم .

وفى مثل هذا الإيمان العام يقول الله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته ورسله . » (البقرة : ٢٨٥) ويقول : « يأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ... » (النساء : ١٣٦) .

ومما يسترعى الانتباه أن القرآن الكريم قد عبر بلفظ الكتاب عن هذه الكتب التي لا نعرف أسماء أصحابها ، كما عبر باللفظ نفسه عن الكتب التى علمنا من نزلت عليهم من الرسل . كالتوراة والإنجيل والقرآن . وفى ذلك يقول الله تعالى :

- « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا » (الإسراء : ٢) .
- « قال(١) إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا » (مريم : ٣٠) .
- « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلي عليهم » (العنكبوت : ٥١)

ولعل فى استعمال لفظ الكتاب للدلالة علي النوعين السابقين ما يشير إلى وحدة مصدر التنزيل والوحى ، وإلى وحدة الغايات المرجوة من هذه الكتب .

فأما وحدة مصدر التنزيل والوحى فيقصد بها أن هذه الكتب جميعا ترجع فى أصلها ومصدرها إلي الله تعالى ، فهو المتفضل بها وبما فيها من الخير والهدى على عباده : كرما وبرا ، وأما وحدة الغاية فهي هداية البشرية إلي ما فيه صلاحها ، ومعاونتها على أداء حقوق العبودية لله الذى خلقها ، وطالبها بعبادته عرفانا وشكرا « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦) .

وقد ترتب على وحدة المصدر والغاية أن هذه الكتب وما اقترن بها من الرسالات والنبوات ، قد اتفقت فى أصول العقيدة ، وإن تفاوتت فيما شرعه الله فى كل منها من الشرائع والأحكام .

---

(١) أي عيسى عليه السلام .

- « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .. » (الشورى : ١٣) .

ومن أهم الأصول التى اتفقت عليها هذه الكتب :

* الدعوة إلي توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة ، دون سواه مما اتجهت البشرية - فى كثير من عصورها - إلى عبادته من البشر أو الجماد أو الحيوان أو الظواهر الطبيعية . ويشير القرآن إلى ذلك فيقول : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (الأنبياء : ٢٥) ويقول : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » (الزخرف : ٤٥) .

* الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر وما يرتبط به من بعث بعد الموت ، ومن ثواب وعقاب ، ونعيم وعذاب ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

- « رفيع الدرجات ذو العرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ... »

(غافر : ١٥ ، ١٦) .

* الهداية العامة إلى خير الدين والدنيا ، وصلاح الحال والمآل . وهذا أمر يتبين بالنظر فى وصايا الأنبياء ، وما جاءوا به من العلم والهدى . والنظرة المنصفة البريئة من التعصب والهوى تقر بأن ما جاء به الأنبياء إلى أقوامهم من الوصايا والأخلاق والشرائع كان أفضل مما كان عليه أقوامهم ، وأن هذا الذى جاءوا به إليهم - دون أن يطلبوا منهم أجرا أو يأخذوا منهم عوضًا - كان دعوة إلى سمو العقل ، وطهارة النفس ، وصلاح المجتمع ، ويمكن التحقق من هذا عن طريق المقارنة الموضوعية المنصفة بين ما كان عليه أقوام هؤلاء الأنبياء ، وما جاء الرسل لدعوتهم إليه .

ومما يدل على ذلك من القرآن قوله تعالى فى وصف التوراة :

- « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » (الأنعام : ١٥٤) .

وقوله في وصف الإنجيل :

- « ولما جاء عيسى بالبينات قال جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون » (الزخرف : ٦٣) .

وقد وصف الله ما أنزله من الكتب بمثل ذلك حيث يقول :

- « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ... » (الحديد : ٢٥) .

وإذا كان القرآن يصف الكتب الإلهية عامة بهذه الصفات فإنه قد تكرر وصف القرآن بذلك ، ومما جاء فى هذا المعنى قوله تعالى :

- « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (إبراهيم : ١) .

- « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (المائدة : ١٥ ، ١٦) . إلى آيات كثيرة أخرى .

القرآن كلام الله تعالى ووحيه :

ليس الهدف من هذه الفقرة أن نعيد إلى الأذهان ذكرى المحنة الأليمة التى وقعت فى عهد الخليفة العباسى المأمون (ت ٢١٨هـ) ابن هارون الرشيد ، ووقع الخلاف فيها بين المعتزلة بزعامة أحمد بن أبى دؤاد ، وبين علماء أهل السنة والحديث ، وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه (ت ٢٤١هـ) ، وذلك لأن هذه المحنة أو الفتنة حول كلام الله تعالى وحول القرآن الكريم كانت بدعة ابتدعها المعتزلة ، وانتهوا فيها - بسبب منهجهم الجدلى القائم على التأويل - إلى نتائج لم تكن مألوفة لدى علماء الأمة قبل هذه المحنة ، وقد أدى الخلاف حول هذه المسألة إلى إيذاء كثير من علماء المسلمين الذين ثبتوا فى المحنة ، وتعرض بعضهم بسببها للقتل أو السجن

والتعذيب ، أو الاحتجاب عن مجالس العلم ؛ لزوم الصمت وخشية الأذى[1] ، ثم إن الحديث عن هذه المسألة - دون ضرورة ملحة - يثير فى الأذهان شبهات ، ويوقع فى تفرق وانقسام لا مصلحة للمسلمين فيه ، والأفضل أن تطوى صفحة هذا الخلاف ، أو ينحصر الحديث عنه فى دوائر ضيقة عند تناوله من الناحية التاريخية ، إن دعت إلى ذلك حاجة منهجية أو تعليمية ، مع البعد - عندئذ - عن الجدل العقيم الذي نهى عنه القرآن الكريم والسنة النبوية .

أما الذى نقصد إليه هنا فهو شأن هام من شئون العقيدة ، ينبغى العلم به ، والفهم له ، ومعرفة البراهين الصحيحة الدالة عليه ، وهو إثبات أن القرآن كلام الله عز وجل ، وأنه ليس من كلام البشر ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس له فيه إلا التلقى عن الله عز وجل ، ثم إبلاغه إلى الناس كما نزل عليه[2] وأنه لم يكن له - ولا لأحد غيره ، من باب أولى - أن يزيد فيه ولا ينقص منه ، ولا أن يحرف أو يغير شيئا منه ، بل لم يكن له - بسبب عصمة اله تعالى له - أن ينسى شيئا منه ، أو يقصر فى إبلاغه إلى الناس ، لأى سبب من الأسباب .

وقد عنى القرآن الكريم نفسه ببيان هذه الحقيقة والبرهنة عليها ، والرد على مخالفيها ؛ لأن المشركين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد وصفوا القرآن بأنه إفك مفترى ، وأنه أساطير الأولين ، وأن الرسول عليه السلام قد تعلّمه من بعض معاصريه ممن كان لهم علم بالكتب السابقة . وقد سجل القرآن الكريم نفسه هذه الدعاوى فقال :

- « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » (الفرقان : ٣ - ٥) .

- « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ... ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... » (النحل : ١٠١ ، ١٠٣) .

---

(١) ارجع إلى تاريخ الطبرى وابن الأثير وابن كثير والذهبى وأمثالهم لمعرفة وقائع وأحداث هذه المحنة الأليمة التى وقعت فى عهد المأمون . ثم استمرت من بعده ، أيضا .

(٢) مع الإيضاح والبيان له . (انظر مثلا : الآية ٤٤ من سورة النحل) .

ولم يكتف القرآن بترديد هذه الادعاءات التى قالوها ، بل إنه رد عليها ، مبينا للمشركين ومذكرا لهم بأن الرسول لم يكن قارئا للكتب ، ولا عالمًا بها ، وأنه لم يذهب إلى المعروفين بعلم الكتب ليتعلم منهم حقائق الإيمان والإسلام ، وأن أمر محمد لم يكن خافيا عليهم ، لأنه كان يعيش بينهم ، وأن هؤلاء الذين ادعوا أنه يذهب إليهم ليتعلم منهم لا يمكن أن يكونوا هم الذين أوحوا إليه بهذا القرآن ، لأنهم كانوا من الأعاجم الذين يعجزون عن الوصول إلي مستوى البيان القرآنى المعجز ، خصوصا وقد عجز العرب أنفسهم عن الارتقاء إلي هذا المستوى .

ومن آيات القرآن الدالة على هذه المعانى :

- « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون » (العنكبوت : ١٨) .

- « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن اتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون » (يونس : ١٥ ، ١٦) .

- « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » (النحل : ١٠٣) .

إلى آيات أخرى كثيرة فى القرآن ، تتضافر جميعها على رد تلك الفرية التى افتراها المشركون ، ليفسروا ظاهرة الوحى التى نتج عنها هذا القرآن ، ولقد كان مما تدل عليه الآية الأخيرة أن التعلم لا يتأتى فى جلسة واحدة ، بل إنه يحتاج إلى أزمنة متطاولة ، ومدد كثيرة ، وهو لا يتم - عندئذ - فى الخفاء ، بل إن القائمين به مضطرون إلى إظهاره ، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر بين الناس أن محمدا يأتى أصحاب العلوم ليتعلم منهم .

وكان مما تدل عليه الآية - كذلك - أن العلوم الموجودة فى القرآن كثيرة ، وهى لا تتأتى إلا إذا كان صاحبها على غاية من العلم والفضل والإحاطة والتحقيق ، ولو وجد - فى مكة - من أهلها أو من غيرها من وصل إلى هذه الدرجة فى العلم والفضل لكان معروفا لهم جميعا بهذه الصفات الكاملة ، ولكان - عندئذ - جديرا بأن ينشر فى الناس علمه ، دون أن يلقنه لرجل آخر ، يظفر بالفضل والمكانة والذكر الذى هو مستحق له ، ولكان - كذلك - جديرا بأن يذيع على الناس أنه هو الذى علم محمدا صلى الله عليه وسلم هذه العلوم(١) .

وقد جاء المستشرقون فرددوا هذه المقالة التى سبق إليها المشركون ، ولذلك نجدها شائعة بينهم ، ولقد كان من وسائلهم إلى تثبيتها وتأكيدها أن ينسب الإسلام نفسه إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيوصف الإسلام بأنه : الدين المحمدى ، ويوصف المسلمون بأنهم محمديون ، وذلك - كما يقول موريس بوكاى - دليل على الرغبة فى أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأى الخاطئ القائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل . ويلاحظ بوكاى أن كثيرا من المثقفين المعاصرين فى الغرب « يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية فى الإسلام ، دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامى بصورة خاصة ، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويرون من البديهيات أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد اعتمد على ما سبقه ، وذلك بقصد استبعاد قضية الوحى منذ البدء »(٢) .

وقد كان جولد زيهر من أكثر هؤلاء المستشرقين اهتماما بتأكيد بشرية القرآن ، والحاحا عليها ، وجمعا للشواهد المؤكدة - من وجهة نظره - لها . غير أنه يمكن القول إن نصوص القرآن وملابسات نزوله ، وواقع أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم تنفى هذه الدعوى ، وتؤكد أن القرآن من وحى الله تعالى إلى رسوله ، وأن الرسول لم يكن

---

(١) انظر : تفسير الفخر الرازى ، طبعة بولاق ١٢٨٩هـ مجلد ٤ / ١٨٦ وهو يذكر معانى أخرى تتضمنها هذه الآية وهى ١٠٣ من سورة النحل .

(٢) موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، طبع دار المعارف ١٩٧٩ ص٦ .

له من عمـل فيه إلا التلقى ثم البـلاغ والبيـــان ، ويدل على ذلك أدلة كثيرة منها ما يأتى :

أ - يتحدث القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه عبد الله ورسوله ، وأنه خاضع لأمر الله وشرعه ، لا يملك له ردا ولا رفضا ، وقد تكررت فى القرآن صيغ الأمر إليـه بتقـوى الله وتلاوة كتابه والاستـقـامـة على أمره ، والعدل بين عبـاده ، والمخالفة للكافرين والمنافقين ، والصبر على آذاهم ، ونحو ذلك من الأوامر ، وجاء ذلك فى صيغ كثيرة ، أشهرها صيغة " قل " التى تكررت فى القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة(١) وتأتى هذه الأوامر شاملة لأصول العقيدة ، ولكثير من أحكام الشريعة ، كما تأتى ردا على التسـاؤلات التى كـانت توجه إلى الرسـول صلى الله عليـه وسلم من المؤمنين ومن غيرهم .

ويلفت النظر فى بعض الأوامر التى وردت بصيغة قل أن بعضها يتعلق بالرسول نفسه ، وهو يؤمر فيها بأن يبين للناس أنه لا يعلم الغيب ، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ، ولا يعرف متى تقوم الساعة ، وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأنه ليس على الناس بوكيل ، كما أنه ليس عليهم بمسيطر ، بل إنه ليس له من الأمر شىء ؛ لأن الأمر كله لله ، وأنه لا يدرى ما يُفْعَل به ولا بغيره ، وأنه لن يجيره من الله أحد ، ولن يجد من دونه ملتحدا ، وأنه إن ضل فإنما يضل على نفسه ، وإن اهتدى فبما يوحى به إليه ربه ، وأنه لا يملك للناس ضرا ولا رشدا ، وأنه لا يستطيع أن يهدى من أحبَّ لأن أمر الهـدى إلى الله وحده ، وقد وردت فى ذلك كله آيات كثيرة لا يمكن إيرادها جميعا ، وإنما يمكن الاكتفاء ببعضها ، ومنها :

- « قل لا أقـول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ... » (الأنعام : ٥٠) .

---

(١) راجع : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة قال : صيغة قل ، حيث يذكر العدد ٣٣٢ وتكاد تكون كلها موجهة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بحيث يندر جدا من بينها ما ليس موجها إليه . ومن أمثلة هذا النادر الآية ٢٩ من سورة المؤمنون والآية ٨ من سورة الزمر .

- « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »
(الأعراف : ١٨٨) .

- « قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم »
(الأحقاف : ٩) .

- « قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدا » (الجن : ٢١ ، ٢٢) .

ثم إنه يؤمر في القرآن بأن يقول عن نفسه :

- « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » (الحاقة : ٤٤ - ٤٧) .

- « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون »
(آل عمران : ١٢٨) .

وهذه الآيات وأمثالها تدل دلالة واضحة على أن الآمر بذلك ليس هو الرسول ، بل إن الآمر به قوة أعلى منه ، وأن لها من السلطان والهيمنة ما يتيح لها أن تأمره ، وأنه لا يملك إزاءها إلا الامتثال والطاعة ، وليس القرآن - إذن - من كلام محمد صلى الله عليه وسلم - وإنما هو موحى إليه .

ب - تدلنا أسباب نزول بعض الآيات على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يُسْأَلُ - أحيانا - عن الحكم فى بعض الوقائع ، فيجيب بأنه لا يعلم من أمرها شيئا ، وينتظر من الله تعالى الإجابة والبيان ، ويظل على ذلك حتى ينزل عليه الوحى معلما ومبينا ، ومن أمثلة ذلك ما جاء فى تشريع حكم اللعان ، بعد ما نزل حكم الله عز وجل بجلد من يقذف أعراض المسلمين والمسلمات ثمانين جلدة ، والحكم بفسقه وعدم قبول شهادته ، إذا لم يتحقق النصاب الذى حدَّد الشرع لقبول هذا القذف ، وهو الحكم الذى تضمنته الآيتان الرابعة والخامسة من أول سورة النور ، وعندما نزلتا فهم منهما بعض

الصحابة معنى العموم ، بحيث تطبق فى كل الأحوال حتى فى علاقة الأزواج بعضهم ببعض ، وخشوا أن يطالَبَ الزوج - مثلا - بإشهاد أربعة من الشهود على امرأته إذا وقعت فى الفاحشة ، وإلا عرض نفسه للفسق والجلد ، وقد شكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وازداد الأمر حرجا عندما وقعت واقعة من هذا النوع « فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به (هلال بن أمية) واشتد عليه . فقال سعد ابن عبادة : (الذى كان قد تعجب من الحكم بسبب غيرته) : الآن يَضْرِب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال بن أمية ، ويبطل شهادته فى المسلمين ! فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجا ... فوالله إن رسول لله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه ، إذ نزل عليه الوحى ، وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك فى تربد جلده ، فأمسكوا عنه ، حتى فرغ من الوحى ، فنزلت آيات اللعان(١) وتكرر ذلك في حكم الظهار الذى نزلت أحكامه فى أول سورة المجادلة(٢) بل إنه تكرر فيما هو أشد وأقسى حين تحدث أهل الإفك بما ينال الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه فى عرض أهله ، وشرف زوجه السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق ، حيث تحدث أهل الإفك بذلك حتى بلغ الأمر الرسول ، وهو يجد لذلك حرجا وضيقا وكرها ، وإنه ليستشير بعض كبار الصحابة مع علمه ببراءة أهله ، ولكنه لا يقطع فى الأمر بشىء بل إنه ليقول للسيدة عائشة : « ... يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه » ، ويستمر الأمر على ذلك شهرا كاملا ، وأهل النفاق يخوضون فى عرض الرسول وأهله ، ولكنه لا يملك من الأمر شيئا ، ويظل الحال على ذلك « حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء ، حتى إنه

---

(١) النيسابورى (أبو الحسن على بن أحمد) : ٢٣٧ ، ٢٣٨ وانظر صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، سورة النور ، باب قوله عز وجل : والذين يرمون أزواجهم ... وما يليه ٣/٦ ، ٤ حيث يورد روايات أخرى .

(٢) انظر أسباب النزول : ٣٠٤ - ٣٠٦ .

ليتحدر منه مثل الجُمَان من العرق ، وهو فى يوم شات ، من ثقل القول الذي ينزل عليه ، فأنزل الله براءتها ، فقالت لها أمها : « قومى إليه (أى لتشكريه) قالت : فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل[1] » ولو كان أمر الوحى والقرآن لمحمد صلى الله عليه وسلم لما صبر على الأذى شهرا كاملا ، ولو كان أمر الوحى والقرآن إليه لشكرته السيدة عائشة ، ولكنها عرفت الحق لأهله ، ولم تشكر إلا الله تعالى الذى أنزل براءتها ، وإنها لقادرة بما تعرفه من أخلاقه وأحواله على أن تفرق بين ما هو من قوله ، وبين ما يوحى إليه ، وإنها لتستشهد علي ذلك بما كان يقع له من تغير جسمانى مصاحب لتنزل الوحى عليه ، وهو أمر شهد به الصحابة فيما نقلناه عنهم فى الحديث عن حكم اللعان ، وهذا كله وما أشبهه من شهادات الصحابة فى وقائع أخرى[2] يدل على أن الوحى ليس شيئا ذاتيا داخليا ، ولكنه وارد إليه ، ونازل عليه من مصدر خارجى أسمى وأعلى ، وهو لا يملك للوحى طلبا ولا ردا : « وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا » (مريم : ٦٤) بل إنه لا يملك له استعجالا ، وإنه ليبطئ عنه أحيانا ، وهو شديد الحاجة إليه فلا يملك له تنزيلا[3] وعن هذا الوحى جاء القرآن ، على عكس ما يرى جولد زيهر وغيره .

---

(1) صحيح البخارى : كتاب التفسير ، سورة النور ، باب لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون ... الآية ، ٥/٦ - ٩ والنص من ٩/٦ . وانظر أسباب النزول ٢٣٨ - ٢٤٣ وقد جاء فى آخر الرواية فيه ، والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى ، هو الذى برأنى ص ٢٤٣ .

(2) انظر مثلا صحيح البخارى : باب كيف كان بدء الوحى ٣/١ ، ٤ ، ثم كتاب الصلاة باب ما يذكر فى الفخذ ١/ ٩٧ ومسند أحمد ، ٢/ ٥٣٨ ، ٣٢٧/٥ ، ١٠٣/٦ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ومواطن أخرى .

(3) انظر صحيح البخارى ، كتاب التعبير ، أول ما بدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة ٦٧/٨ ، ٦٨ .

جـ - ويتأكد ذلك بما نجده فى القرآن من وقائع ، جاء الحكم فيها مخالفا لاجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ، فلقد كانت تقع الحوادث أحيانا ، دون أن يكون لدى الرسول فيها وحي منزل ، فيجتهد الرسول عليه السلام فى تبين حكمها. وقد ينزل القرآن أحيانا ليبين له أن اجتهاده لم يوافق مراد الله عز وجل فيها ، كموقفه من أسارى بدر حين قبل منهم الفداء ، عملا بمشورة بعض أصحابه ، ثم نزل القرآن بحكم آخر دلت عليه آيات من سورة الأنفال (آية ٦٧ وما بعدها) وموقفه من عبد الله بن أم مكتوم الذى عاتبه الله عليه كما تدل على ذلك الآيات الأول من سورة عبس ، وإذنه لبعض المنافقين بالتخلف عن الخروج إلي الجهاد فى غزوة تبوك ، وهو الذي عاتبه القرآن عليه فى بعض الآيات من سورة التوبة (٤٣ وما بعدها) . وقد يبلغ الأمر فى العتاب مبلغا لا يمكن أن يكون صادرا من الإنسان عن نفسه ، لأنه يكشف من دخيلته ما لا يحب للناس أن يعلموه عنه ، ومن ذلك قول الله تعالي عنه فى قصة زواجه من زينب بنت جحش رضى الله عنها : « ... وتُخْفِى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ... » (الأحزاب : ٣٧) وهى التى تقول عنها السيدة عائشة رضى الله عنها : « لو كتم محمد (ص) شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله لكتمها »(١) ويقرب من هذا ما تحدث به القرآن عن الرسول حين حرم على نفسه ما أحل الله له ، مرضاة لأزواجه ، فعاتبه الله على ذلك فى الآيات الأولى من سورة التحريم (الآية الأولى وما بعدها) . وهذه الوقائع وما أشبهها تكشف عن أن محمدا ليس هو الذى ألف هذا القرآن من عند نفسه ، وإلا لما جعل فيه هذه الآيات التى تعاتبه ، وتظهر من أمره ما لا يود الإنسان إظهاره .

د - ثم يأتى إعجاز القرآن ليكون من أعظم الأدلة على إبطال فكرة بشرية القرآن . وللإعجاز جوانب متعددة يطول الحديث عنها ، ومن جوانب هذا الإعجاز ما يتعلق بما ورد فى القرآن من أخبار بدء الخلق وأخبار الأمم الماضية التى لم يكن للرسول ولا لقومه

---

(١) تفسير ابن كثير طبعة الشعب بتصرف يسير جدا فى اللفظ مجلد ٦/ ٤٢٠ .

علم بها ؛ لأنها أخبار أمم بعيدة عنهم ؛ ولأنهم كانوا أمة أمية لا تتجه همتها إلى التعرف على أخبار غيرها .

ولقد كان القرآن يحكى أخبار الأمم وقصص الأنبياء ، ثم يعقب عليها بما يدل على أن ذلك من الغيب الذى ليس للرسول ولا لقومه علم به .

« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ... » (هود : ٤٩) .

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (يوسف : ١٠٢) إلى آيات أخرى(١) .

ولا يمكن تفسير العلم بهذه الأخبار بأنه أثر من آثار الخيال ؛ لأن الخيال لا يستطيع أن يكتشف حوادث الماضى الموغلة فى القدم ، ولا أن يتحدث عن دقائقها وتفصيلاتها التى تتضح به صورتها حية متميزة كما وردت في القرآن ، وقد يستطيع الخيال تركيب نسق أو صور ليس لها وجود في دنيا الواقع ، وقد يستطيع تفسير بعض الحوادث الواقعية بافتراض علل أو أسباب لها ، لكنه لا يستطيع مهما أوتي من البراعة والقوة أن ينشئ تاريخا صادقا ، لوقائع لم يشهدها ولم يعاصرها ، أو لم يرد إليه علم مكتوب بشأنها من معاصرين لها .

ثم لا يمكن تفسير العلم بهذه الأخبار بأنه أثر من آثار العلم بكتب أهل الكتاب لأسباب عديدة ، منها أن بعض الأحداث التى وردت فى القرآن وهى لا تتفق فى تفصيلاتها وجزئياتها مع ما ورد بشأنها في التوراة أو الإنجيل ، ومن الأمثلة التى وقعت فيها المخالفة :

- ما تذكر التوراة من أن الأرض ملعونة بسبب خطيئة آدم(٢) .
- تذكر التوراة أن الحية هى التى أغرت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة ، وكان

(١) راجع مثلا الآية ٤٤ من سورة آل عمران ، والآيات ٤٤ - ٤٦ من سورة القصص .

(٢) سفر التكوين : اصحاح ٣ فقرة ١٧ .

ذلك سببا من أسباب لعنتها[1] ولا يتحدث القرآن عن لعنة الأرض ، ولا يرد فيه شيء عن إغراء الحية لحواء .

- تتحدث التوراة عن أن امرأة نوح وكل أبنائه كانوا معه في السفينة[2] ، على حين يتحدث القرآن عن أن امرأته وأحد أبنائه لم يكونا معه بسبب إصرارهما على الكفر . (انظر : الآية ٤٠ وما بعدها من سورة هود) .

- تذكر التوراة أن إبراهيم - عليه السلام - ذبح عجلا للرجال الذين جاءوه فأكلوا منه[3] على حين يذكر القرآن أن أيدى هؤلاء لم تصل إلى الطعام ، وسياق الحديث فيهما عن الملائكة الذين جاءوا إلى إبراهيم على هيئة بشرية .

- تتحدث التوراة عن أن عصا هارون هي التى أكلت ثعابين السحرة[4] بينما يذكر القرآن أن الذى فعل ذلك هو عصا موسى عليه السلام الذى اصطفاه الله لرسالته ، وأيده بآياته .

- تذكر التوراة أن هارون - عليه السلام - هو الذى صنع العجل الذهبى لبنى إسرائيل[5] بينما يذكر القرآن أن الذى فعل ذلك هو السامرى (طه : ٨٧ - ٩٦) ، وأن هارون أنكر عليهم ذلك فآذوه ؛ لأنه لا يعقل أن يدعو أحد الأنبياء إلى الشرك ؛ لأن أهم ما جاء به الأنبياء هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى .

- تذكر التوراة أن الله تعالى يفتقد إثم الآباء في الأبناء ، في الجيل الثالث والرابع من مبغضيه[6] على حين أن القرآن يذكر أنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وهذا قليل من كثير ، وهو كاف في الدلالة على أن ما جاء في القرآن من أخبار الماضين

---

(١) السابق فقرة من ١٣ - ١٥ .

(٢) التكوين : اصحاح ١٨/٦ ، واصحاح ١/٧ ، ١٣ .

(٣) التكوين : اصحاح ٦/١٨ - ٨ .

(٤) الخروج : اصحاح ٩/٧ ، ١٢ .

(٥) الخروج : اصحاح ١/٣٢ - ٤ ، ٢١ - ٢٤ ، ٣٥ .

(٦) الخروج : اصحاح ٥/٢٠ ، واصحاح ٧/٣٤ .

ليس مأخوذا من كتب أهل الكتاب ، بل هو مأخوذ من مصدر مستقل هو وحى الله تعالى إليه ، لأنه ما كان يقرأ الكتاب ولا يخطه بيمينه ، ولأن قومه لم يكونوا على علم بهذا الذى يذكره لهم .

ومن جوانب إعجاز القرآن - كذلك - ما يتعلق بالغيب الذي يَنْصَبُّ على المستقبل ، حيث ذكر القرآن نبوءات تحققت ، منها : بشارة الله تعالى له وللمسلمين بأن يدخلو المسجد الحرام بعد أن منعوا من ذلك ، وبأن يعجل الله لهم دخول مكة فاتحين ، مع أنهم كانوا قد عقدوا صلحا مع أهل مكة فى العام السادس للهجرة ، كانت مدته عشر سنوات ، ولكن الفتح تم بعد عامين فقط من عقد الصلح ، ولذلك قال الله تعالي فى سياق الحديث عن هذه البشارة « ... فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » (الفتح : ٢٧) .

وكان من إخبار القرآن بالغيب المتعلق بالمستقبل ما ذكره من غلبة الروم للفرس ، بعد أن ذاقت الروم الهزيمة على يديها ، وقد جاء النصر على غير توقع ، لأن الدلائل لم تكن تدل عليه أو توحى به ، حيث كانت الروم قد بلغت مبلغا عظيما من الضعف ، وصل إلي حد أن غزيت فى عقر دارها ، ولكن النصر تم فى بضع سنين كما ذكر القرآن(١) .

يضاف إلى ما سبق من وجوه الإعجاز ، ذلك المستوى الذى لا يقارب من حيث البلاغة والإعجاز البيانى ، وهو المستوى الذى عجز العرب ، وهم فرسان الفصاحة ، عن مواجهته ، والإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو حتى بسورة واحدة مثله أو من مثله ، ولقد كانت بلاغة القرآن تدهشهم ، وتصيبهم بالحيرة حتى لقد وصفوه بأنه سحر أو كالسحر لشدة تأثيره فى نفوس سامعيه ، وقد كان تحدِّى القرآن لهم ، وتنزله فى هذا التحدى جديرا بأن يستثير فى نفوسهم كل طاقاتها ، ولكنهم أسلموا إليه قيادهم ،

---

(١) انظر : د. محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم ، طبع ١٩٥٧ (دون بيانات أخرى) ص٤٥ - ٤٧ وانظر به وجوها من الإعجاز فى تعبير القرآن : بضع سنين . وانظر كذلك : تالبوت رايس : فارس وبيزنطة ، مقال ترجمه د/ محمد كفافى ، ونشر ضمن : تراث فارس بإشراف آربرى طبع دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

واعترفوا له بأنه من مستوى يفوق إمكاناتهم . وأقروا بما يقوله القرآن من أنه كلام الله وليس من كلام بشر[١] .

على أن مما ينبغى ملاحظته أن الإعجاز البيانى ليس هو الوجه الوحيد لإعجاز القرآن ، لأن القرآن لم ينزل إلى العرب وحدهم ، وإنما جاء بدعوة شاملة للعرب ولغيرهم ، ولذلك جعل الله فيه من أوجه الإعجاز المتعددة ما يجعله أهلا لإثبات صفته الإلهية فى كل العصور ، ومن أجل ذلك تتجدد أوجه الإعجاز وتتعدد ، لكى تحقق له صفة الدوام ، بوصفه مصدرا لهذا الدين الخاتم الذى ختم الله به الرسالات ، ولقد يساعد على تأكيد هذه الفكرة أن نشير - فى إيجاز - إلى ما أصبح موضع العناية فى العقود الأخيرة ، من حيث إبراز بعض الحقائق العلمية التى أشار القرآن إليها .

ولا شك أن تضمن القرآن لبعض هذه الحقائق يدل على أن القرآن ليس من كلام البشر ؛ لأن هذه الحقائق لم تكن معلومة لأحد من الناس فى عهد نزول القرآن ، لا من العرب ولا من غيرهم من الشعوب التى كانت تعد من أهل السبق على العرب فى مجال العلوم الطبيعية والكونية وغيرها ، وبعض هذه الحقائق لم يتوصل الناس إليه إلا فى عهد قريب . فكيف - إذن - سبق القرآن إلى الإشارة إليها ؟! .

إن التفسير المقبول لذلك هو أن القرآن قد تضمن مثل هذه الحقائق لتدفع العقل البشرى إلى بذل الجهد فى معرفة ما أودعه الله فى الكون والإنسان من الأسرار والمعارف والقوانين ، ومحاولة كشفها والانتفاع بها ، ثم لكى تكون حججه متجددة تكشف عن نفسها بتجدد الزمان ، وتَقَدُّمِ المعرفة البشرية ؛ لتوضح للعقل أن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) عنى علماء المسلمين قديما وحديثا بإبراز هذا الجانب من جوانب إعجاز القرآن ، وكان إثبات هذا الإعجاز من الموضوعات التى تناولها الكلاميون والبلاغيون والمفسرون . ويمكن أن نشير فى هذا المقام إلى ما كتبه الباقلانى والقاضى عبد الجبار عن إعجاز القرآن وكذلك ما كتبه الرمانى والخطابى وعبد القاهر الجرجانى (راجع : ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، تحقيق الأستاذ محمد خلف الله أحمد ود/ محمد زغلول سلام طبع دار المعارف ط٣ / ١٩٧٦) ومن أفضل الكتب الحديثة التى تناولت هذ الموضوع كتاب د/ دراز المشار إليه فى الهامش السابق ، وكتاب مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

ومن الأمثلة التى يمكن الإشارة إليها ، هنا ، ما جاء فى الآيات الآتية :

- « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حَرَجًا كأنما يصَّعَّدُ فى السماء » (الأنعام : ١٢٥) .

- « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه » (الحجر : ٢٢) .

- « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الذاريات : ٤٧ - ٤٩) .

- « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيىء حى ، أفلا يؤمنون » (الأنبياء : ٣٠) .

- « سبحان الذى خلق الأواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (يس : ٣٦ - ٤٠) .

- « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث .. » (الزمر : ٦) ، وهكذا وهكذا.

وإنه لمن اللافت للنظر أن القرآن الكريم قد وردت به إشارات كثيرة فى موضوعات متنوعة ، فهى تتعلق ببدء الخلق ، وعلم الفلك ، وعلوم الحيوان والنبات والإنسان وغيرها وهى تقدم معلومات لم تكن معلومة فى عصر نزول القرآن ، وهو عصر كان يمثل فترة من فترات الركود العلمى ، ولم يكن مستطاعا للرسول أن يعرفها من أحد من معاصريه عربا أو غير عرب ، وإنه لمن المذهل كما يقول بوكاى أن هذه المعلومات مطابقة للمفاهيم التى نعرفها اليوم عن هذه الظواهر ، وإن ذلك ليدفع إلى التساؤل حول مصدر هذه المعلومات ، ويجيب بأن الأمر لا يحتاج إلى صعوبة فى الإجابة « إذ

ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية ، فيما يخص بعض الموضوعات »[1] .

وهذا وجه من وجوه الإعجاز لا ينبغى إغفاله ، ما دامت قد تيسرت أسبابه ووسائله ، وإن كان الأخذ به يقتضى مزيدا من التثبت والحيطة ؛ حرصا على القرآن الكريم نفسه من أن يستخلص من نصوصه ما لا تدل عليه ، أو أن يفسر فى ضوء اجتهادات ، لم تصل إلى الحد المقبول من اليقين العلمى ؛ لأن ذلك يضع أهل القرآن فى حرج ما كان أغناهم عنه ، خاصة وأن القرآن الكريم هو - فى المقام الأول - كتاب هداية وتشريع ، وأن ما جاء به فى هذا الصدد يعد من وجوه إعجازه ، ولا داعى - إذن - للحديث عما يسمى « بالإعجاز العلمى » لأدنى ملابسة ، كما يحدث فى بعض الأحيان .

نظرة على الكتب السابقة :

إذا كان الإسلام يطلب من أتباعه الإيمان بكل الكتب التى أنزلها الله تعالى على هؤلاء الذين اصطفاهم لوحيه فإنه قد أعلمهم أنه لم يبق شىء من هذه الكتب كلها محفوظا إلا القرآن الكريم[2] ، أما ما سواه فهو إما أنه ليس بأيدى الناس كصحف إبراهيم ، وما أنزله الله من الوحى على غيره من الأنبياء كنوح ويونس وهود وأمثالهم ممن لا نعرف كتبهم ، وإما أنه بأيدى الناس ، ولكن لحقه قليل أو كثير من التحريف والتبديل الذى يجعله مختلفا عما أنزله الله على من نزل عليه من الأنبياء ، وينطبق هذا على التوراة التى أنزلها الله على موسى ، وعلى الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى . وقد جابه القرآن أصحاب هذين الكتابين بذلك ، ونسب إليهم كتابة الكتاب

---

(١) انظر موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، دار المعارف ١٩٧٩ ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ .

(٢) راجع ما سبق من حديث عن خصائص العقيدة الإسلامية .

بأيديهم ثم نسبته إلى الله ، كما نسب إليهم إخفاء بعض ما نزل إليهم أو نسيانه أو تحريفه وتبديله ، ومما قاله القرآن فى ذلك :

- « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » (البقرة : ٧٩) .

- « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا ، يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » (المائدة : ١٥) .

- « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به » (المائدة : ١٣) .

- « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم .. » (البقرة : ٥٩ ، وانظر ١٦٢ من الأعراف) .

وقد وصفهم القرآن بأنهم يلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم يعلمون (انظر آل عمران ٧١ وكذا البقرة : ٤٢) كما اتهمهم بالكذب على الله ونبذ الكتاب وراء ظهورهم ، ونقضهم ميثاق الله تعالى ، وتحريف شريعته والتحايل عليها ، بل وصفهم بالكفر ببعضها .

ولم يكن ما ذكره القرآن من هذا كله ادعاء عليهم ، بل إنه حق يتأيد بالنظر فى هذه الكتب كما هى عند أصحابها ؛ لأنها - بوضعها التى هى عليه - دليل ساطع على صدق ما نسبه القرآن الكريم إليها وإليهم .

وسنشير - فى إيجاز شديد - إلى بعض ما يتعلق بالتوراة التى هى معظمة عند أهل الكتاب جميعا ، على اختلاف فرقهم وطوائفهم : يهودا ونصارى .

والتوراة هى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم[1] ، وقد تطلق على العهد

---

(١) يتكون العهد القديم من مجموع الكتب التى نزلت على موسى ومَنْ بعده من أنبياء بنى إسرائيل قبل عيسى عليه السلام ، أما العهد الجديد فهو المنسوب إلى عيسى والمنتسبين إليه من الحواريين والرسل كما يُسَمُّونهم أما التوراة فهى الأسفار الخمسة : التكوين والخروج وسفر اللاويين والعدد والتثنية .

القديم كله مجازا . وتنسب الأسفار الخمسة إلى موسى عليه السلام . ويمكن القول بأن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك الذى تدعو إليه دواع كثيرة ، بل إن كثيرا من المهتمين بدراسة هذا الموضوع ، سواء من الغربيين أو من الشرقيين قد أصبحوا على مثل اليقين بأن هذه الأسفار كما هى عليه الآن لا يمكن نسبتها نسبة تامة إلى موسى ، لأسباب كثيرة ، منها ما يتعلق بالسند ، ومنها ما يتعلق بالمتن .

اولا - ما يتعلق بالسند :

١ - يدل النظر فى هذه الأسفار على وجود فجوة تاريخية كبيرة ، وانقطاع فى السند بينها وبين موسى عليه السلام ، ومما يدل على هذا ما جاء فى بعض أسفارها عن موت موسى ودفنه ، وفقد أثره . ومما قيل فى ذلك فى التوراة نفسها « فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب ... ولم يعرف إنسان قبره إلي هذا اليوم ... ولم يقم بَعْدُ نبى فى إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه ... »[1] ومعنى ذلك أن موسى ليس هو الذى كتب التوراة ، ويؤكد هذا ما جاء فيها مرات تعد بالمئات من الكلام عنه بضمير الغائب مثل وقال موسى ، وقال الرب لموسى ، ومعنى ذلك أيضا أن كتابتها تأخرت بعده زمنا كثيرا كان يسمح بإجراء هذه المقارنة بينه وبين غيره من أنبياء بنى إسرائيل الذين ظهروا من بعده فيهم .

٢ - تدل بعض الدراسات المتعلقة بتاريخ العهد القديم أن أقدم أجزائه كتب بعد خمسمائة سنة من وفاة موسى ، وينطبق ذلك على معظم ما جاء فى سفرى التكوين والخروج ، وأن بعضها مثل سفر التثنية كتب بعد سبعمائة سنة من وفاته ، أما سفر العدد واللاويين فقد كتبا بعد وفاته بحوالى ألف سنة ، ومعني هذا أن الاعتماد كان

---

(١) سفر التثنية : اصحاح ٣٤ / ٥ ، ٦ ، ١٠ .

قائما على الرواية الشفهية ، التى تتيح المجال واسعا أمام الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل[1] .

ومما زاد الأمر خطورة على التوراة أن بنى إسرائيل لم يعتصموا بهذا الكتاب ، بل إنهم قد ارتدوا عنه ، وكفروا به ، وكان ذلك يمتد لسنوات طويلة ، وقد وصل الأمر إلى حد البحث عن النسخة الوحيدة المتوارثة عند اليهود لدى واحد من سلالة هارون عليه السلام ، وإحراقها على يد أحد ملوكهم[2] .

٣ - يقول اليهود إن عزرا قام بعد موسى بمئات السنين بإملاء التوراة من حفظه ، وكان ذلك سببا فى انتشارها[3] وعندما تحولت المحافظة على التوراة من الرواية الشفهية إلى الكتابة لم يقم كاتب واحد بكتابة التوراة ، بل تولى كتابتها عدد كبير من النساخ والكتبة الذين كانوا ينتسبون إلى عصور تاريخية طويلة وظروف ثقافية واجتماعية مختلفة ، وقد كان هذا يترك أثره فيما يكتبون ، وفى هذا تقول دائرة المعارف الأمريكية « لم تصلنا أى نسخة بخط المؤلف الأصلى (كذا) لكتب العهد القديم . أما النصوص التى بين أيدينا ، فقد نقلتها إلينا أجيال عديدة من الكتبة والنساخ » [4] .

---

(١) د / على عبد الواحد وافى : الأسفار المقدسة .. ص ١٦ ، التوراة : تاريخها وغاياتها ، ترجمة سهيل ديب ، دار النفائس ، بيروت ط ١٩٨٤/٥ ص ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٩ والقرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص ٢٠ ، ٢١ وإظهار الحق لرحمة الله الهندى تحقيق الأستاذ عمر الدسوقى ، طبع قطر ١٩٨٠ ، جـ١ / ٦١ ، وقصة الحضارة لديورانت مجلد ١ جـ٢ / ٣٦٦ وما بعدها . إلى مراجع أخرى .

(٢) الفصل لابن حزم ١٨٩/١ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .

(٣) التوراة : تاريخها وغاياتها : ٤٧ ، وانظر : الفصل لابن حزم ١٩٧/١ .

(٤) راجع : اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس . لواء أحمد عبد الوهاب مكتبة وهبة ط ١ / ١٩٨٧ ص ١٩ .

ثانيا - ما يتعلق بالنص ذاته أو المتن :

١ - لا يوجد نص واحد للتوراة ، بل توجد نصوص ثلاثة : النص العبرى ، والنص اليونانى أو الترجمة السبعينية(١) والنص السامرى ، وتوجد بين هذه النصوص الثلاثة اختلافات كثيرة من حيث الأسفار والموضوعات والتواريخ(٢) ويعد هذا الاختلاف ثمرة طبيعية لامتداد الفترة التى وقع فيها تدوين الأسفار ، ولكثرة الكتبة والنساخ « ولدينا شواهد وفيرة تبين أن الكتبة قد غيروا بقصد أو بدون قصد الوثائق والأسفار التى كان عملهم الرئيسى هو كتابتها أو نقلها » ويرجع هذا إلي الخطأ فى القراءة أو فى هجاء بعض الكلمات أو فى نسيان بعض الكلمات أو بعض الفقرات ، وربما يرجع التغيير إلى رغبة بعض هؤلاء فى تصحيح ما كانوا يتصورون أنه قد كتب خطأ ، ومن هنا كانوا يغيرون قصدا أو عمدا فقرات بأكملها بغية تصحيحها ، كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفقرات أو يزيدون على النص الأصلى فقرات توضيحية(٣) ، وقد يرجع الاختلاف إلي اختلاف الترجمات ، التى كانت تمس فى بعض الأحيان بناء العقيدة وأساسيات الإيمان(٤) .

٢ - ذكر بعض الدارسين لنص العهد القديم أنه منذ البداية لم يكن هناك نص واحد بل هناك تعدد فى النصوص ، وقد بذلت محاولات لتوحيد النص الأصلى للتوراة ، وكان ذلك فى القرن الأول قبل الميلاد أى بعد موسى بأكثر من ألف وأربعمائة عام . وعلى الرغم من هذه المحاولات المستميتة تمكن أحد الباحثين من التوصل إلى " وجود نصين " جنبا إلى جنب في سفر التكوين ، يحتوى كل منهما على خاصية مختلفة فى

---

(١) راجع د/ سلوى ناظم : الترجمة السبعينية للعهد القديم بين الواقع والأسطورة ، مطابع المستقبل ١٩٨٨ ص ٣ ، ١٧ وما بعدها .

(٢) راجع : التوراة ، د / بدران محمد بدران ، دار الأنصار ط١ / ١٩٧٩ ص ٢٢ - ٣١ ، والمرجعان السابقان .

(٣) اختلافات فى تراجم ... ص ١٩ ، ٢٠ .

(٤) السابق ص ٣ وانظر نماذج لذلك فى ص ٢٧ وما بعدها إلى ٣٨ .

تسمية الرب ، إذ يسميه أحدهما : يَهْوَهْ ، ويسميه الثانى : ألوهيم . ثم جاء باحث آخر واكتشف وجود ذلك بالنسبة للكتب الأربعة الأخرى (= الخروج واللاويين والعدد والتثنية) . ثم لاحظ باحث ثالث أن النص الذى يسمى فيه الرب ألوهيم ينقسم هو أيضا إلى قسمين ، وبهذا تفتت - تماما - كتاب أسفار موسى الخمسة[1] ثم قدم باحث آخر ما يدل على وجود روايتين متوازيتين ومتداخلتين فى الأسفار الخمسة ، وقدم نماذج كثيرة تؤكد ذلك[2] .

ثالثا - تحريف التوراة :

ليس غريبا - بعد كل ما سبق - أن تكون التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى هدى ونورا ، وفرقانا وضياء وإماما ورحمة ، وجعل فيها تفصيل كل شىء[3] - قد أصابها التحريف والتبديل ، ووصل التحريف إلى صلب العقيدة التى جاء بها موسى ، وإلى جوهر شريعته ، ويدل على ذلك أدلة كثيرة منها :

١ - ما تضمنته التوراة من حديث عن الله تعالى ، وهو حديث يتنافى كثير منه مع ما يجب لله تعالى من التعظيم والإجلال ، والتنزيه عن كل ما لا يليق بكماله .

ومن ذلك أنهم وصفوا الله بأنه استراح يوم السبت ؛ بعد أن خلق الخلائق على مدار ستة أيام « تكوين ٢ : ٣ »[4] ، وعندما أكل آدم وحواء من الشجرة المحرمة كُشفت عورتهما ، وتصور التوراة رب العزة - جل جلاله - وهو يمشى في الجنة بحثا عنهما ؛ لأنه لا يعرف مكانهما حتى إنه اضطر أن ينادى عليهما ليعرف مكانهما « تكوين ٨/٣ - ١٠ » وتفسر التوراة سبب إخراج آدم من الجنة بأن آدم لما أكل من

---

(١) موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة ... ص٢٨ .

(٢) السابق ٣٠ - ٣٣ .

(٣) كما وصفت بهذا فى القرآن الكريم . انظر مثلا : الآيات ٤٣ ، ٤٤ من المائدة ٩١ ، ١٥٤ من الأنعام ، ١٤٥ من الأعراف ، ٤٨ من الأنبياء ، ١٢ من الأحقاف ، إلى آيات أخرى .

(٤) قال الله تعالى فى القرآن الكريم : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » (ق : ٣٨) .

الشجرة « صار كواحد منا فى معرفة الخير والشر ، والآن كيلا يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ، ويأكل ويحيا إلى الدهر طرده الله من جنات عدن » (تكوين ٣/٢٢) . وتذكر التوراة أن الله ندم بعد خلقه لآدم ، بعد وقوع الصراع بين ابنيه : قابيل وهابيل ، وكثرة شرور الإنسان فى الأرض " فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه ، فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته .. لأنى حزنت أنى عملتهم " (تكوين ٦/٦ ، ٧) . !!!

وبعد الطوفان قدَّم نوح للرب القرابين من البهائم والطيور ، فلما صعد دخان الشواء تنسم الرب (تعالى عن ذلك) رائحة الرضا ، وندم على أنه فكر فى القضاء على الإنسان بسبب شروره " وقال الرب في قلبه : لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان .. ولا أعود أيضا أميت كل حى كما فعلت " (تكوين ٨/٢٠ ، ٢١) وندم الرب (تعالى) مرة أخرى بعد أن غضب على بنى إسرائيل لما عبدوا العجل ، وأراد أن ينزل بهم الفناء ، فتضرع إليه موسى وقال له : ارجع عن غضبك ، واندم على ما تريد أن تفعله بشعبك . فندم الرب على الشر الذى أراد أن ينزله بهم . (خروج : ٣٢ /٧ - ١٤) . !!!

وتصف التوراة الله (تعالى) بأنه ظهر ظهورا حسيا لإبراهيم وأنه أمر إبراهيم أن يسير أمامه (تكوين ١٧ / ١)[١] ثم تصفه بما هو أشد من ذلك حين تقول إن الرب (جل جلاله) ظهر فى صورة إنسان وأن يعقوب النبى صارعه (وحاشا لله) حتى طلوع الفجر دون أن يتمكن من هزيمته ، وكل ما فعله فيه أنه ضربه على حق فخذه فانخلع ، ويعقوب ممسك به ، والرب يقول أطلقنى ، لأنه قد طلع الفجر فيقول يعقوب : لا أطلقك إن لم تباركنى . فباركه وسمَّاه منذ هذه الليلة إسرائيل (انظر تكوين : ٣٢ / ٢٤ - ٣١) .

(١) على حين يذكر القرآن الكريم أن الذين ظهروا لإبراهيم عليه السلام هم ملائكة الله تعالى ، كما جاء فى آيات كثيرة منها : الآية ٦٩ وما بعدها من سورة هود ، والآية ٥١ وما بعدها من سورة الحجر والآية ٢٤ وما بعدها من سورة الذاريات .

ثم تذكر التوراة أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن تقوم نساء بنى إسرائيل فى مصر بسرقة وسلب الحلى والثياب والأمتعة من النساء المصريات (خروج ٣/ ٢١، ٢٢) ثم أوصى بنى إسرائيل بأن يذبحوا الذبائح ، وأن يأخذوا من دمها شيئا يضعونه على أبوابهم كالعلامة ، ثم أمرتهم أن يلزموا بيوتهم بالليل ولا يخرجوا منها ؛ لأن الرب سيجتاز ليضرب المصريين ، فإذا رأى الدم على الأبواب عرف أنها أبواب بنى إسرائيل فلا يمسها بسوء (خروج ١٢ /٢١ - ٢٤) وعند خروج بنى إسرائيل من مصر مع موسى كان الرب (جل جلاله وتعالى عن ذلك) يسير أمامهم نهارا فى عمود سحاب ليهديهم الطريق ، ويسير ليلا فى عمود نار ليضيء لهم . (خروج ١٣ / ٢١ - ٢٣) وهكذا وهكذا وهكذا .

وإن وصفا واحدا من هذه الأوصاف ليقطع بتحريف التوراة التي بأيدى الناس ، ويدل على أنها ليست هى التوراة التى أنزلها الله على موسى .

٢ - ولا يقل حديث التوراة عن الأنبياء - سقوطا وشناعة وتطاولا - عن حديثهم عن الألوهية ، ويكشف حديثهم عن الأنبياء عن نزعة عدوانية تجاه هذه الصفوة من الخلق ، وهم الذين وصفهم اللـه فى القرآن الكريم بأكرم الصفات فى مثل قوله : « وإنهم عندنا لمن المصطفَيْنَ الأخيار » (ص : ٤٧) وقوله : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » ويقول : « ... أولئك الذين هداهم اللـه فبهداهم اقتده » (الأنعام : ٨٩ ، ٩٠) ، وقوله : « وكلا جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات ... » (الأنبياء : ٧٢ ، ٧٣ إلي آيات أخرى كثيرة) .

أما التوراة فإنها تصفهم بأقبح الصفات ، ويبدو أن اليهود قد حقدوا على الأنبياء هذه المكانة الرفيعة التى يتعذر على أمثالهم تصورها والتصديق بها ، فوضعوا الأنبياء بما تنضح به نفوسهم من السوء والضلال ، وها هى التوراة تصف نوحا بأنه سكر حتى فقد وعيه ، فانكشفت عورته فرآه أحد أبنائه وهو على هذه الحال ، فلما أفاق وعلم ذلك دعا عليه وعلى ذريته أن يكونوا عبيداً لإخوتهم (تكوين ٩/ ٢٠ - ٢٧)

وتصف إبراهيم بأنه لما أراد أن يدخل مصر قال لزوجته سارة : إنك امرأة حسنة المنظر ، فإذا رآك المصريون قالوا : إنك زوجتى فيقتلوننى ، ولذا أوصاها بأن تقول إنها أخته ليكون له خير بسببها . فلما دخلا إلى مصر شاهد الناس جمالها ، ووصفوها لفرعون ، فأخذها إلى بيته واتخذها زوجة ، وأعطى إبراهيم غنما وبقرا وحميرا وإماء وعبيدا وجمالا ، وغضب الرب لهذا ، وأنزل بفرعون عذابا وبلاء ، وعندئذ استدعى إبراهيم فعلم منه الحقيقة ، فأنبه لأنه لم يخبره بالحقيقة ، ولو أخبره لما اتخذها زوجة له[1] (تكوين ١٢/١٠ - ١٩) ثم نسبوا مثل هذا التصرف تماما إلى نبى الله اسحاق (تكوين ٢٦/٦ - ١٠) .

ثم يزداد إثم كتبة التوراة فيكتبون عن لوط عليه السلام أن ابنتيه تآمرتا عليه ، وسقتاه خمرا ، ثم ضاجعته كل منهما ، واحدة وراء الأخرى حتى لا ينقطع نسل أبيهما ، وحملت كلتاهما منه ، وولدتا ذكرين ، أصبح كل واحد منهما - فيما بعد - أبا لقبيلة أو سبط من بنى إسرائيل (تكوين : ١٩ /٣٠ - ٣٨) وقد وصفوا يعقوب بالخديعة والتآمر ليأخذ البركة لنفسه من أبيه إسحق ، بدلا من أخيه الأكبر عيسو الحبيب إلى أبيه ، ولذلك يتخفى فى زى أخيه ، ويطلب من أبيه أن يدعو له ، فيدعو له أبوه ، معتقدا أنه عيسو ، لكن البركة تناله هو ، ويحرم منها من هو مستحق لها ، ولا يكتفى هؤلاء بأن يوقعوا إسحاق في شرك الخديعة ، بل إنهم يصفون الله تعالى بذلك أيضا ؛ لأنه ألحق البركة بيعقوب بدلا من أخيه ، ولا تخلو القصة من مكر وكيد وكذب تلحقه بيعقوب ، وكان من المكر أنه سقى أباه خمرا . ثم تذكر أن عيسو جاء ليطلب البركة التى كان قد اتفق من قبل مع أبيه عليها ، ولكن أباه قال له : قد جاء أخوك

---

(١) روى البخارى بسنده إلى أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هاجر إبراهيم بسارة ، دخل بها قرية ، فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فأرسل إليه أن أرسل إلىّ بها ، فقام إليها ، فقامت توضأ وتصلى . فقالت : اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك فلا تسلّط علىّ الكافر . فَغُطّ حتى ركض برجليه » كتاب الإكراه باب : إذا استكرهت المرأة ... ٥٨/٨ وقارن كتاب التوحيد باب قول الله : لما خلقت بيدى ٧٢/٨ .

وأخذ بركتك ، فعزم على قتل أخيه يعقوب ، لولا هربه . ولم يحل هذا كله من أن يعاود اسحاق مباركة يعقوب (انظر تكوين ١٧ / ١ - ٤٦ ، ٢٨ / ١ - ٥) .

ومن العجيب الغريب أن تهمة الزنا تكاد تكون أمرا معتادا فى حديثهم عن أنبيائهم ، وإذا كانت القيم التى يدين بها كاتبو التوراة تسمح بأن يزنى لوط ببناته ، فليس غريبا بعد ذلك أن يزنى أبناء الأنبياء بنساء آبائهم (تكوين : ٣٥ / ٢٢) أو بنساء أبنائهم . ويُسْألُ أحدهم عن عقوبة الزنا ، فيقول : إنها الرجم والحرق ، فيقولون له : إن امرأة ابنك زنت ، فيثور طالبا إقامة الحد عليها ، فتأتى له بما يدل على أنه هو الذى زنى بها . فأسقط فى يده ، وقال : هى أبر منى ؟!! (تكوين ٣٨ / ٦ - ٣٠) أو الزِّنا بنساء قوادهم الذين يرسلونهم إلى الحروب ليتمكنوا من مضاجعة نسائهم ، كما ينسب إلي داود عليه السلام (صموئيل الثانى: اصحاح ١١ ، ٦٢) ... وهكذا وهكذا وهكذا .

وقد وصفت التوراة بعض الأنبياء بأنهم كانوا عونا على الشرك بالله تعالى أو بأنهم عبدوا الأوثان ، فهارون يوصف عندهم بأنه هو الذى صنع العجل الذهبى لبنى إسرائيل ، عندما ذهب موسى لمناجاة ربه ، وسجد له بنو إسرائيل وقالوا : إن هذا العجل هو الذى أنقذ بنى إسرائيل من ظلم فرعون وما لقوه من الشقاء فى مصر (خروج ٣٢ / ١ - ٥ ، ٢١ وما بعدها إلي ٣٥) ووصفوا سليمان بأنه بنى بيت الأوثان لنسائه ، وقَرَّبَ القرابين للأوثان (سفر الملوك الأول اصحاح ١١) ، فهل يفعل الأنبياء هذا ، وهم دعاة التوحيد ؟! .

٣ - يدلنا النظر في التوراة على وقوع التحريف فى العقائد والشرائع التى جاء بها موسى ، ومن ذلك أنها تخلو من ذكر الآخرة وما يتعلق بها من الثواب والعقاب[١] ، ثم إنها تبيح للهيودى أن يتعامل مع غير اليهودى بالربا ، على حين تحرمه فى التعامل بين اليهود أنفسهم ، بل إنها تبيح لليهودى أن يسلب من غير

---

(١) انظر : الفصل ٢ / ١٠٩ .

اليهودى ماله ، وأن يتعامل معه بأشنع أنواع الربا وأفحشه (التثنية : ٢٣ / ١٩ ، ٢٠)(١) وقد ورد فى التوراة وصايا تفيض قسوة ووحشية ودموية ، وتكشف عن رغبة عارمة فى الانتقام ، وهى تدعو إلى قتل الذكور صغارا وكبارا ، وقتل الكبار من النساء ، وسبى الصغيرات إلا من أرادوا اتخاذه منهم أو منهن عبيدا أو إماء (اللاويين ٢٤ / ٤٤ - ٤٦ ، والتثنية ٧ / ١ ، ١٦) بل تدعو أحيانا إلى استئصال الجميع وعدم الإبقاء على أحد منهم مطلقا (انظر التثنية ٢٠ / ١٠ - ١٨ وكذا تثنية ١٢ / ٢ ، ٣)(٢) وهكذا وهكذا .

٤ - وقعت فى التوراة أخطاء تاريخية ، منها : ما قالوه من أن السنوات التى انقضت منذ دخول يعقوب وبنيه إلي مصر أثناء هيمنة يوسف عليه السلام على بيت المال فيها إلى أن خرج منها موسى ومعه بنو إسرائيل - تبلغ أربعمائة وثلاثين سنة ، وقد أثبت ابن حزم بالرجوع إلى التوراة نفسها أن هذه السنوات لا تزيد عن مائتين وسبعة عشر عاما (٣) .

وقد جاء فى التوراة أن عدد من دخلوا إلي مصر مع يعقوب كانوا سبعين فردا(٤) وأن الذين خرجوا مع موسى كانوا نحو ستمائة ألف مقاتل من الرجال ، عدا الأولاد (والنساء طبعا) . ومعنى ذلك أن العدد يقارب المليونين . فهل يمكن أن تصل نسبة التوالد إلي هذه الكثرة فى مائتى عام ، وإذا كانوا بهذه الكثرة فلم خرجوا من مصر ؟ وكيف تم خروجهم سراً بليْل ومن وراء ظهر فرعون وجنده ، الذين لم يشعروا بهم إلا

---

(١) واللاويين ٢٥ / ٣٥ - ٣٨ .

(٢) وهم ينسبون إلى داود عليه السلام الذي يعتبرونه ملكا أكثر منه نبيا أنه دخل إلي إحدى القرى غازيا " وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد ، وأمرَّهُم فى أتون الآجرّ . وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون » !! . صموئيل الثانى ١٢ / ٣١ .

(٣) الفصل ١/١٥٨ ، ١٥٩ وقارن التوراة : الخروج ١٢/٤٠ ، ٤١ .

(٤) يوجد خطأ فى الحساب إذا لاحظنا فقرتين متتابعتين فى سفر التكوين ٤٦ / ٢٦ ، ٢٧ .

بعد خروجهم؟ (١) . ومما يدل على عدم صحة هذا الخبر أن بنى إسرائيل لم تبلغ جيوشهم فى أعظم أوقات سيادتهم فى عهد سليمان إلا إلى اثنى عشر ألف مقاتل ، فكيف يصلون إلي هذا العدد فى أوقات ضعفهم ، بل لم يصل إلى هذا العدد جيوش دول كبرى كدولة الفرس ، التى كان ملكها أعظم جدا من ملك بنى إسرائيل ، بدليل أنهم دخلوا إلي القدس ، وحطموا الهيكل وأخذوا بنى إسرائيل أسرى فى عهد بختنصر ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس أثناء جهاد المسلمين لهم إلي مثل هذا العدد أو قريب منه لأنهم كانوا ستين ألفا أو مائتى ألف على أكثر تقدير ، وهذه الأسباب كلها تدعو إلى التوقف في قبول مثل هذه الأخبار إن لم نقل إنها مبالغ فيها ، أو كاذبة(٢) .

وهكذا تتضافر الأدلة المستخلصة من النظر في سند التوراة ومتنها على أن التوراة فى صورتها التى بأيدى الناس قد لحقها الكثير من التحريف والتبديل ، وأن فيها كثيرا مما لا يمكن نسبته إلي الله تعالى أو إلى موسى عليه السلام . وإذا وقع مثل هذا فى التوراة التى هى أقدس النصوص عند اليهود والنصارى ، فإن ما هو أقل منها قداسة عندهم ليس بأحسن حظا منها ، وينطبق ذلك - من باب أولى - على بقية كتب العهد القديم ثم كتب العهد الجديد .

ومن أجل هذا كله كان القرآن « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » (المائدة : ٤٨) وإنما كانت له هذه الهيمنة لأنه محفوظ بحفظ الله تعالى : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (فصلت : ٤١ ، ٤٢) .

---

(١) ناقش ابن حزم هذا الإدعاء مناقشة مفصلة يمكن الرجوع إليها فى الفصل ١٦٥/١ - ١٧٣ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ، طبعة الشعب ١٢ ، ١٣ وانظر الفصل لابن حزم ١٦٥/١ - ١٧٣ .

« الإيمان بأنبياء الله ورسله »

الإيمان بأنبياء الله ورسله أصل من أصول العقيدة الإسلامية[1] ؛ لأنهم هم الواسطة التى عرف الناس عن طريقها وحى الله تعالى وكتبه وشرائعه ، وسائر ما جاء عن الله تعالى من العقائد والأخلاق وأحكام الحلال والحرام .

وقد جاء هذا الأصل فى الترتيب الخامس فى بعض النصوص الشرعية كآية البر فى سورة البقرة (١٧٧) كما جاء رابعا فى بعضها الآخر كالآية رقم (٢٨٥) من سورة البقرة ، ويوافقه ما جاء فى حديث جبريل عليه السلام الذى سأل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان . كما جاء فى بعض الآيات القرآنية فى الترتيب الثانى بعد الإيمان بالله تعالى مما يدل على عظم المكانة التى يستحقها بين أصول الإيمان ، ومن هذه الآيات قوله تعالى :

- « والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما » (النساء : ١٥٢) .
- « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون » (الحديد : ١٩) .

وقد ورد فى القرآن والسنة أسماء عدد من الأنبياء والرسل ، كآدم[2] ونوح وإدريس وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون واليسع

---

(١) النبوة فى اللغة : مأخوذة من النبأ أى الخبر أو من النبء والنبوء والنَّبْوَة أى الرفعة والظهور ، وأصلها : النبوءة ، وقد أبدلت الهمزة واوا ثم أدغمت فى الواو ، والنبى (والنبىء) هو الذى يتلقى الخبر والعلم من الله تعالى ، مع وجود الدليل على ذلك ، فإن لم يوجد دليل على صدقه فى دعوى النبوة فهو متنبئ وليس بنبى ، ومن معانى النبوءة : الإخبار عن الشىء قبل حدوثه على سبيل التخمين ، وهو من المعانى المحدثة في اللغة العربية . راجع : المعجم الوسيط ، مادة نبأ وإذا قام النبى بتبليغ الوحى الذى تلقاه عن الله تعالى إلى غيره بتكليف من الله تعالى فهو نبى بحسب التلقى ، ورسول بحسب التبليغ ، والرسول الصادق لابد أن يكون نبيا .

(٢) انظر مسند أحمد ٥/٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وداود وسليمان ويونس وأيوب وإلياس وشعيب وصالح وهود وزكريا ويحيى وعيسى ، ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين . وقد وردت أسماء ثمانية عشر منهم فى بعض الآيات من سورة الأنعام (٨٣ - ٨٦) ويجب الإيمان بنبوة هؤلاء دون توقف ولا تردد ؛ لأن القرآن - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - قد شهد لهم بالنبوة أو الرسالة ؛ ولذا كان الإيمان واجبا دون تفريق بينهم ؛ لأن التفريق بينهم يخرج بصاحبه من الإيمان إلي الكفر ، لأنه تفريق بين الله ورسله ، وتفريق بين الرسل بعضهم وبعض ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

- « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (النساء : ١٥٠ ، ١٥١) وَوُصف المؤمنون بأنهم لا يفرقون بين الرسل من حيث الإيمان بهم :

- « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ... » (البقرة : ٢٨٥) .

ولكن الإيمان بالأنبياء والرسل ليس مقصورا على الإيمان بهؤلاء الأنبياء المعينين المحددين ، بل إنه - بمقتضى العقيدة الإسلامية - يجب الإيمان بنبوة كل نبى اجتباه الله تعالى واصطفاه لهذا المقام العظيم ، حتى ولو لم نعرف اسمه تحديدا ؛ لأن المسلمين مطالبون بالإيمان بالنبوة عموما ، وقد جاء فى القرآن الكريم ما يبين أن النبوة ليست محصورة فى هؤلاء الذين عرفنا أسماءهم ، وأن هناك أنبياء غيرهم لم يحددهم الله لنا ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى بعد أن أورد أسماء بعضهم : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » (النساء : ١٦٤ وارجع كذلك إلى الآية ٧٨ من سورة غافر) .

النبوة اصطفاء واجتباء :

ليست النبوة مذهبا فلسفيا يُنَال بالتفكر والتأمل ونضج الملكة العقلية ، وبذل

الجهد فى تحصيل المعارف والعلوم الإنسانية ، وإنعام النظر فيها بالنقد والتقويم . وليست النبوة - كذلك - خبرة تجريبية مكتسبة كتلك التي يحصل عليها أصحاب التخصص فى الجوانب التطبيقية العملية ، ثم إن النبوة ليست ثمرة خيال متوقد ، ولا شعور متوهج ، ولا أثرا من آثار العبقرية ، ولا غوصا فى أعماق الشعور واللا شعور ، إنها ليست شيئا من ذلك كله ، ولا أثرا لشيء من ذلك كله ، وإنما هى اصطفاء واجتباء من الله عز وجل لهؤلاء " الصفوة " الذين يختارهم الله تعالى لحمل أمانته ، وتبليغ رسالته ، وقد كان القرآن الكريم حريصا على توضيح هذا المعنى فى كثير من آياته ، ومنها قوله تعالى :

- « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » (الحج : ٧٥) .
- « وإنهم عندنا لمن المصطفَيْنَ الأخيار » (ص : ٤٧) .
- « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » (آل عمران : ٣٣) .

وقال عن إبراهيم عليه السلام : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » (البقرة : ١٣٠) .

وقال عن موسى عليه السلام : « قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » (الأعراف : ١٤٤) .

وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » (العنكبوت : ٤٨) وقال : وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين »(القصص : ٨٦) .

والنبوة - إذن - هى ثمرة من ثمرات الاصطفاء الإلهى ، مقترنة بالوحى الذي يتصل فيه النبى بمصدر خارجى عنه ، ذى وجود يقينى ، يلقى إليه العلم بطريقة مؤكدة تبعده عن الوهم والخيال والتأمل الذاتى ، والاستغراق الباطنى فى عالم الخفايا والأسرار . وهذا الوحى يصله بالله عز وجل بطريق مباشر ، أو يصله بالملك الذى ينقل إليه أمر الله تعالى ، على النحو الذى سبق بيانه عند الحديث عن صور الوحى .

من خصائص الأنبيـــاء وصفاتهم :

وما دام الأنبياء بهذه المثابة من حيث الاصطفاء والاجتباء الإلهى فإن الله عز وجل يجعل فيهم من الخصائص والخصال والأخلاق ما يجعلهم جديرين بالقيام بهذه المهمة العظمى التى اختارهم الله تعالى لها ، وهى تَلَقِّى الوحى الإلهى وإبلاغه إلى الناس ، والارتقاء إلي مقام القدوة والأسوة الكاملة ، التي يتحقق فيها المثل الأعلى فى الإيمان والطاعة وكمال الأخلاق . وفى مثل ذلك يقول الله تعالى :

- « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (الأنعام : ١٢٤) .

ومن أخص مـا يتـصف به هؤلاء المصطفـون أن علمـهم هبـة من الله تعـالى ، وحكمتهم أثر من اثار فضله ، وهو علم لا ترقى إليه العقول البشرية باجتهادها ؛ لأنه من مقام رفيع لا تبلغه مداركها ، وقد ذكر القرآن ذلك في ثنايا حديثه عن كثير من الأنبياء ، ومن ذلك :

- « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ... » (الأنعام : ٨٣) .
- « ولوطا آتيناه حكما وعلما ... » (الأنبياء : ٧٤) .
- « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث » (يوسف : ١٠١) .
- « ولما بلغ أشده (موسى) واستوى آتيناه حكما وعلما » (القصص : ١٤) .

ويقول القرآن الكريم فى الحديث عن محمد (ص) :

- « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما » (النساء : ١١٣) إلى آيات كثيرة أخرى .

ويثمر الاصطفاء - كذلك - أن يكون هؤلاء الأنبياء الذين هم فى مقام القدوة والأسوة - أئمة فى الطاعة والهدى والمسارعة فى الخيرات ، وقد وصفهم الله بذلك فى القرآن الكريم فقال عن نوح عليه السلام : « إنه كان عبدا شكورا » (الإسراء : ٣) وقال عن إبراهيم عليه السلام : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مسقيم » (النحل : ١٢٠ ، ١٢١)

وقيل عن طائفة من الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأو حينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (الأنبياء : ٧٣) وقيل عن محمد صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » (ن : ٤) إلى آيات كثيرة .

والأنبياء - إذن - أئمة في العلم والهدى ، ومن الطبيعى أن يكونوا دعاة إصلاح فكرى ، وأخلاقى ، يعيد للإنسان كرامته ، التى تتلاءم مع استخلافه فى هذه الأرض ، وهو استخلاف يقتضى أن تسمو مداركه العقلية ، وأن تتهذب نوازعه وبواعثه الأخلاقية ، وقد سلك الأنبياء عليهم السلام إلى ذلك كل السبل الممكنة ، وتسلحوا لذلك بالصبر الطويل ، والعمل الدءوب ، واحتمال الأذى ، ومقاومة عوامل اليأس الناشئة عن إعراض أقوامهم عنهم ، واتهامهم لهم بأنهم سحرة أو مجانين « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (الذاريات : ٥٣) أو بأن دعوتهم لا يستجيب لها إلا ضعفاء الناس وفقراؤهم وأراذلهم[1] أو بأن الأنبياء لا يصلحون أن يكونوا حملة وحى الله تعالى لأنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، ولا يتميزون عن الناس بشيء يجعلهم - من وجهة نظرهم - أهلا لهذا الوحى[2] .

ولعل من النماذج البارزة لهذا الصبر الطويل ما وقع لنوح عليه السلام مع قومه ، وهو ما يحكى القرآن طرفا منه فى قوله تعالى : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ... »

---

(١) انظر مثلا : الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة هود .

(٢) انظر آية ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧ من سورة " المؤمنون " ٧ من الفرقان ، ١٤ من سورة فصلت ، ٥٣ من الزخرف . إلى آيات كثيرة .

(نوح : ٥ - ١٠ وانظر ما بعدها من الآيات) ومن نماذجه كذلك ما وقع للرسول (ص) فى دعوته إلى الله تعالى ، وما لقيه من عناء شديد ، من أهل مكة الذين آذوه - هو وأصحابه وأصموا آذانهم وأغلقوا عقولهم عن قبول دعوته ، حتى لقد مات بعض أصحابه من التعذيب ، واضطروا إلي مفارقة بلدهم ، والهجرة منه إلى الحبشة مرة ومرة ، ثم الهجرة بعد ذلك إلي المدينة ، ثم اضطروا إلي الجهاد ؛ دفعا للأذى ، ونشرا للدعوة ، وإعلاء لكلمة الله ، ولم ينج نبى من الأنبياء من التكذيب والاستهزاء والأذى ، وقد عبر عن ذلك "ورقة بن نوفل " عندما شرح له الرسول صلى الله عليه وسلم ما رآه في غار حراء ، حين قال له : « ... ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجيَّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى .. »(١) . وقد وصل الأمر أحيانا إلي حد قتل بعض الأنبياء ، ووقع مثل هذا فى بنى إسرائيل الذين قال الله عنهم : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم : فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » (المائدة : ٧٠ وانظر كذلك الآية ٨٧ من سورة البقرة) .

ولقد كان من أعظم ما دفع الأنبياء إلي الصبر على الأذى ، والاستمرار فى إبلاغ الدعوة إلي الناس أنهم كانوا حريصين على الوفاء بحقوق هذه الأمانة التى كلفهم الله تعالى إياها ، فما كان لأحد منهم أن يكتم ما تلقاه من الله تعالى ، ولو كان فى ذلك قتله ؛ بل إنهم وقفوا فى ذلك مواقف مشهودة تكشف عن جانب مهم من أخلاقهم وخصالهم النفسية . ويتمثل هذا الجانب فى ثقتهم المطلقة بالله تعالى ، ويقينهم الكامل بعونه ونصرته لهم ، كما يتمثل فى هذه الشجاعة النفسية العظيمة التى لا تضعف أمام الباطل ، ولا تلين أمام الكثرة الكافرة ، بل إنها تتصدى لها ، وتستعلى عليها بقوة الحق واليقين والإيمان .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب بدء الوحى ١/ ٣ ، ٤ ومسند أحمد ٦ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

ويذكر القرآن شيئا من ذلك فى حديثه عن بعض الأنبياء ، ومنهم نوح عليه السلام الذى قال لقومه حين أصروا على الكفر « يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ، فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » (يونس : ٧١ ، ٧٢) وإنه ليطالبهم – فى الآية الأولى – بأن يجمعوا كلمتهم ، ويوحدوا قوتهم ، ويبلغوا أقصى ما يستطيعون الوصول إليه من قوة وكيد وتدبير ، ثم يوجهوا ذلك كله إليه ، دون انتظار أو تأخير ، لأنه لن يرهبهم ، ولن يخافهم ، ولن يتراجع عما جاء به من الحق ؛ لأنه متوكل على الله ، واثق فى نصره وحمايته وعونه ، وقد تكرر ذلك فى موقف هود ، عليه السلام – من قومه حين أصروا على الشرك ، واتهموه بما يشبه اختلال العقل وسوء التقدير ، الذى حدث له من نقمة آلهتهم عليه . فقال لهم : « إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » (هود : ٥٤ – ٥٦) وقد ورد مثل هذا عن محمد عليه الصلاة والسلام (الأعراف : ١٩٤ – ١٩٦) .

ثم تأتى صفة **الأمانة** لتنضم إلى قائمة الصفات الرفيعة التى يتصف بها الأنبياء ، وهى ذات جوانب كثيرة متشعبة ، أهمها الأمانة في تبليغ وحى الله تعالى إلى الناس ، دون كتمان لشىء منه ، أو تغيير لشىء فيه ، أو زيادة شىء عليه . ولقد أعلن الأنبياء ذلك لأقوامهم حتى يكونوا على ثقة من قيامهم بمهمتهم ، ونجد ذلك فى سورة الأعراف على لسان نوح عليه السلام (الأعراف : ٦٨) وتكرر ذلك على لسان عدد من الأنبياء فى سورة الشعراء ، حيث كان كل منهم يقول لقومه : « إنى لكم رسول أمين »[١] .

---

(١) انظر مثلا : الآيات : ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٧٨ من الشعراء ، وانظر كذلك : الآية ١٨ من سورة الدخان .

وقد كان من دلائل هذه الأمانة أنها كانت صفة لبعضهم قبل النبوة . ومن هؤلاء موسى عليه السلام ، الذى وصفته بذلك ابنتا شعيب حين رأتا من سلوكه وأفعاله ما يدل على كرم أخلاقه ، وكمال نفسه ، حين أعانهما على أمرهما ، وقام بذلك بدلا منهما ، ودفع هذا المسلك النبيل إحدى ابنتيه أن تقول لأبيها : « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » (القصص : ٢٦) وقدكانت هذه الصفة من صفات محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، فكان يلقب بالأمين ، حتى إن قريشا كانت - على الرغم من عداوتها له ، ومعاندتها للدين الذى جاء به - تضع عنده ودائعها ، ثقة منها فى أمانته وحفظه للحقوق . ووُصف بذلك - من قبل - يوسف عليه السلام ، حين استحضره ملك مصر ، وأخرجه من السجن ، بعد أن أظهر الله تعالى براءته ، ونجاه من كيد امرأة العزيز : « وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » (يوسف : ٥٤) .

وإذا كانت الأمانة - التى تستلزم الصدق - من صفات هؤلاء الأنبياء مع الخلائق التى لا تعلم الغيب ، ولا تطلع على الخفايا ، ولا يملك بعضها لبعض نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فإن اتصافهم بالأمانة المتعلقة بوحى الله تعالى يكون أكثر لزوما لهم . وبذلك استدل بعض الملوك المعاصرين لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته ، حين بلغتهم دعوته . وحدث هذا من هرقل ملك الروم حين التقى بسفيان بن حرب ، قبل إسلامه ، وكان من بين أسئلته له : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا " فعلق قائلا " وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت : أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله "[1] وقد وُصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أمين من فى السماء ، فيما يأتيه من خبرها صباحا ومساء[2] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب بدء الوحى ١ / ٤ - ٧ ، والنص من ٥ ، ٦ .

(٢) مسند أحمد ٣ / ٤ .

وهكذا يكون الأنبياء على هذا المستوى الذى يليق بهم رفعة وكمالا ، ويتفق مع كونهم موضع الاصطفاء والاجتباء(١) .

دلائــل النبـــوة :

حفل التاريخ قديما وحديثا بكثير من الأدعياء والمتنبئين الذين ادعوا أنهم أنبياء ، وطالبوا الناس باتباعهم والإذعان لهم ، وربما كان هؤلاء من أهل الحذق والمهارة والقدرة على التلبيس والخداع ، ولعل هذا يوقع الأغرار وضعاف العقول فى شراكهم وحيلهم ، ويجعلهم أسرى لهؤلاء الكذابين المخادعين ، الذين يفرضون عليهم من الأعمال ما يؤدى إلي كثير من الشرور والفساد .

ثم إن منصب النبوة فى ذاته منصب رفيع القدر ، عظيم الخطر ، لأن صاحبه يكون هو الواسطة فى تعـريف الناس بمراد الله منهم ، وتكليـفـاته لهم . وتأتى فى ذلك تشريعات وتوجيهات تتطرق إلى صميم حياة البشر فى أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، وسائر مصالحهم ، وقد اقتضى هذا كله أن يكون لمقام النبوة من الدلائل المصدِّقة لهم ما يغلق الباب أمام الأدعياء .

ويتحقق هذا لهم بأن يمد الله تعالى هؤلاء الأنبياء والرسل بالآيات(٢) التى تؤيدهم فيما جاءوا به من النبوة ، وما تتضمنه من الأوامر والنواهى .

ومن أهم ما تتصف به هذه الآيات أن تكون - فى مستواها - فوق قدرة البشر ، بحيث لا يستطيع البشر الإتيان بمثلها ، فيكون هذا العجز عن الإتيان بمثلها دليلا واضحا أمام العقل على أن النبى لم يأت بها من عند نفسه ، وأن ظهورها منه أو على يديه ليس راجعا إلي مهارة أو خبرة أو قوى ذاتية غير عادية فيه ، ومن ثم يكون هذا

---

(١) قارن هذا بما سبق من حديث عن أوصاف الأنبياء فى التوراة التي بأيدى الناس .

(٢) هى التى يعبر عنها علماء الكلام بالمعجزات ، ولكن القرآن قد استعمل لفظ الآية فى حديثه عن دلائل نبوة الأنبياء .

الأمر الذى هو فوق القدرة البشرية المعتادة - راجعا إلى قدرة الله ، الذى اصطفى هذا النبى لإبلاغ وحيه ورسالته[1] .

ويمكن القول بأن هذه الآيات - أو خوارق العادات كما يقول المتكلمون - تعد حجة يقيمها الله تعالى على من ينكرون النبوة ، فلا يكون لهم - بعدها - عذر فى إنكارهم لها ؛ لأن عجز البشر المطالبين بالإيمان بالنبوة عن الإتيان بمثلها دليل حاسم على صدق النبى ، الذى أظهر الله هذه الآية أو المعجزة على يديه ، ومن ثم يجب التسليم له ، والإيمان بما جاء به ، فإذا لم يتم الإيمان فإن هذا المنكرَ لهذه الآيات والدلائل يستحق أن يوصف بالجحود ، وقد وصف القرآن بهذا بعض أقوام الأنبياء . ومن ذلك قوله عن هؤلاء الذين لم يؤمنوا برسالة موسى عليه السلام " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا " (النمل : ١٤) وقال للرسول صلى الله عليه وسلم ، مواسيا له ، ومهونا عليه تكذيب المشركين من قومه له " قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " (الأنعام : ٣٣) .

وإذا كان بعض الناس قد يصل بهم الجحود إلي إنكار هذه الخوارق التي ينبغى على العقل أن يستسلم لها فإن من الناس من قد يؤمن بالنبوة دون حاجة إلى هذه الخوارق ، فبعضهم يستدل على صدق النبى من معرفته بأخلاقه وأحواله قبل النبوة ، ويرى فيها من الكمال ما يدعو إلى تصديقه والدخول فى دعوته واتباعه . ويصدق هذا على السيدة خديجة رضى الله عنها حين جاء إليها الرسول صلى الله عليه وسلم يرتجف مما حدث له فى غار حراء ، وقد خشى على نفسه أن يكون قد أصابه سوء ، فلما قص

---

(١) يعرّف المتكلمون المعجزة بأنها أمر خارق للعادة مقارن لدعوى النبوة ، مقرون بالتحدى ، وقد وضعوا لها شروطا تفرق بينها وبين ما يمكن ظهوره من خوارق العادات على أيدى غير الأنبياء كالأولياء وغيرهم ، كما فرقوا بينها وبين السحر من حيث طبيعة ومضمون كل منهما ، ويمكن الرجوع إلى حديثهم عن المعجزة فى : أصول الدين للبغدادى والمغنى للقاضى عبد الجبار جـ١٥ وتثبيت دلائل النبوة له والإرشاد للجوينى ، وغاية المرام لسيف الدين الآمدى ، والمحصل لفخر الدين الرازى ، والمواقف لعضد الدين الأيجى إلخ .

عليها الخبر قالت له " كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ...(١) " فالسيدة خديجة لم تنتظر حتي ترى آية أو معجزة لكى تؤمن به ، بل إنها بادرت إلي تصديقه ، وطمأنينته إلى أنه على الحق ، وأنه مؤيد محفوظ بحفظ الله ، مصون من الشر والسوء ، لما يتصف به من هذه الخلائق الكريمة .

ويصدق ذلك على أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، فلم يكن محتاجا في تصديقه للرسول (ص) إلي معجزة أو آية غير معتادة ، لأن علمه بأحوال الرسول وأخلاقه قبل بعثته كان خير باعث له على تصديقه . ولذلك سارع إلي الإسلام حين دعاه الرسول إليه ، ونصر الرسول (ص) بنفسه وماله ، وصدّقه فى أكثر المواقف حرجا ، ومنها تصديقه له صلى الله عليه وسلم فى حادثة الإسراء والمعراج دون حاجة إلي برهان قائلا للمشركين : " والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله ، من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . فهذا أبعد مما تعجبون "(٢) ولقد كان علم معاصريه ، (ص) بأحواله وأخلاقه خير باعث لهم علي اتباعه ، على الرغم مما كان ينالهم من الأذى ، ويتضح ذلك في حديث جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه أمام النجاشى حين جاء إليه أهل مكة يحرضونه على طرد المسلمين من الحبشة التى كانوا قد هاجروا إليها فرارا بدينهم " . كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ... فكنا على ذلك ، حتي بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده »(٣) وهكذا .

(١) صحيح البخارى ، باب بدء الوحى ١ / ٣ .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ١ / ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(٣) السابق ١ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

وقد يستدل بعض الناس - ممن ليست لهم معرفة مباشرة بالنبي - على نبوته بالنظر فى أصول دعوته ، وما تتضمنه من علم وهدى ، وما تدعو إليه من مكارم الأخلاق ، فيستنبطون مما فيها من الكمال ما يدل على صدق الداعى إليها ، دون أن ينتظروا آية أو معجزة . ومن هذا الباب أسلم بعض العرب لسماعهم بعض آيات القرآن كقوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (النحل : ٩٠) . وقد قال بعضهم لقومه عند سماعها " إنى قد أراه يأمر مكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها . فكونوا فى هذا الأمر رءوسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا "(١) . ومن ذلك قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون » (الطور : ٣٥ ، ٣٦) فقد استمع جبير بن مطعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة الطور فلما بلغ هذه الآية كاد قلبه أن يطير(٢) .

ولم يكن الأمر مقصورا على سماع القرآن وحده ، بل كان يحدث - كذلك - عند سماع بعضهم لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا . وتوجد وقائع كثيرة فى السنة والسيرة تدل على ذلك . ومن هذه الوقائع ما جاء فى قصة إسلام رجل من أهل البادية وقد جاء هذا الرجل وهو ضمام بن ثعلبة إلي الرسول وهو بين أصحابه فقال : أيكم محمد ؟ فدلوه عليه . فقام له ضمام : « إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة ، فلا تجد علىَّ فى نفسك فقال : سل عما بدا لك . فقال : أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : اللهم نعم : قال : أنشدك بالله . آلله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة ؟ قال : اللهم نعم » ثم سأله عن الصوم

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٥١٥ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب التفسير ، تفسير سورة والطور ٦ / ٤٩ ، ٥٠ ، وتفسير ابن كثير ٧ / ٤١٢ .

والصدقة ، ثم قال للرسول عليه الصلاة والسلام « آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة »[1] .

وقد كان بعض الناس يأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيري فى وجهه دلائل الصدق فيكون ذلك من أسباب دخوله فى الإسلام ، مضافا إلى ما يستقر فى القلب ، بسبب عظمة الأخلاق التى يدعو إليها ، ومما يتفق مع ذلك ما حكاه عبد الله ابن سلام عن نفسه ، قال : لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم انجفل الناس عليه ، فكنت فيمن انجفل . فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . فكان أول شىء سمعته يقول : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلُّوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام »[2] .

وهكذا . فإذا كان أقوام الأنبياء على هذا النحو من سلامة الفطرة والإقبال على الحق ، وسهولة تقبله فإنهم يسرعون إلى الإيمان ، دون حاجة إلى شىء آخر ، أما إذا لم يكونوا كذلك فإنهم يكونون بحاجة إلى إقناع من نوع آخر ، وقد يكتفى بعض هؤلاء بالبرهان العقلى الذى يدل على صدق النبى فى دعوته . ولأمثال هؤلاء جاءت الأدلة الشرعية العقلية ، تقيم الحجة ، وتدرأ الشبهة ، وتؤسس اليقين . أما إذا كانت القلوب مغلقة ، والعقول معاندة فإن أصحابها يكونون بحاجة إلى ما يقطع عليهم أسباب التردد والتهرب من الإيمان ، ويقيم عليهم الحجة البالغة التى لا يكون فى استطاعتهم ردها أو المجادلة فيها ، وهنا يأتى دور " الآية " الخارقة للعادة أو المعجزة.

---

(1) صحيح البخارى كتاب العلم ، باب القراءة والعرض على المحدث ١ / ٢٢ ، ٢٣ ورواه مسلم بنحوه ، وإن لم يذكر فيه اسم ضمام . وقد رواه بأكثر من إسناد فى كتاب الإيمان ، باب السؤال عن أركان الإسلام ١ / ١٤٣ - ١٤٥ وانظر الاعتقاد للبيهقى ٢٨ . والبداية والنهاية ٣ / ٣٥ . وقد وردت وقائع أخرى منها ما يتصل بإسلام خالد بن سعيد بن العاص ، انظر البداية والنهاية ٣ / ٣٠ - ٣٢ وعمرو بن عبسة ، انظر رياض الصالحين ، مرجع سابق ٢١١ - ٢١٤ .

(2) مسند أحمد ٤ / ٤٥١ وهو يتحدث عن رؤيته للرسول بعد هجرته إلي المدينة ، وانجفل : أى اجتمع الناس وأقبلوا عليه .

والأنبياء - إذن - يبدأون بالدعوة إلى الله تعالى ثم تكون الآيات والمعجزات خاتمة المطاف في الدلالة على صدقهم ، وتأييد الله لهم فى مواجهة المعرضين والمعاندين . ومن هنا يمكن القول بأن الآيات والمعجزات دليل صحيح ، ولكن الأدلة على صدق الأنبياء ليست محصورة فيها كما يرى أكثر المتكلمين .

النبـوة رحمـة إلهيـة :

توصف النبوة - فى القرآن الكريم - بأنها رحمة من الله لعباده . وقد ذكر القرآن ذلك على لسان عدد من الأنبياء . ومنهم نوح الذى قال لقومه : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم » (هود : ٢٨) وجاء مثل ذلك على لسان نبى الله صالح (هود : ٦٣) ثم قيل لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧)(١) .

وقد أوضح الله بعض مظاهر هذه الرحمة المودعة فى رسالته ، فيما ذكره من أوصافه التى جاءت البشرى بها في التوراة والإنجيل « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذي يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (الأعراف : ١٥٧) ومن أجل ذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول عن نفسه : " إنما أنا رحمة مهداة "(٢) .

---

(١) كما وصفت بأنها رزق حسن فى حديث الله عن رسالة نبى الله شعيب (هود : ٨٨) .

(٢) سنن الدارمى ، باب كيف كان أول شأن النبى صلى الله عليه وسلم ١ / ٩ . وقد قال عن نفسه : « ... وأنا نبى الرحمة » مسلم فى كتاب الفضائل ، باب فى أسمائه صلى الله عليه وسلم ٥ / ٢٠٢ ومسند أحمد ٤ / ١٣٨ وقال كذلك : إنى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة . صحيح مسلم ، كتاب البر ، باب النهى عن لعن الدواب وغيرها ٥ / ٤٥٧ .

أ - ولكن وصف النبوة بأنها رحمة كان موضع منازعة وإنكار ممن جحدوا النبوة ، وأنكروا ثمراتها ، وما يسوقه الله فيها من خير إلى البشرية ، التي كانت تتجدد عليها النبوات ، لتتجدد الرحمة و الهداية لها « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » (الرعد : ٧) « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (فاطر : ٢٤) « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (النحل : ٣٦) .

وتتعدد دوافع إنكار النبوة لدى المنكرين ، وقد حدثنا القرآن الكريم عن كثير منها . وكان من بينها أن هؤلاء المنكرين لم يتقبلوا أن يكون الأنبياء بشرا كسائر البشر ، يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، ويعرض لهم ما يعرض للبشر . وقد واجه الكفار - فى عصور كثيرة - أنبياءهم بذلك . ومن هؤلاء قوم نوح الذين قالوا له : « ... ما نراك إلا بشرا مثلنا ... » (هود : ٢٧) وقال بعض أقوام الأنبياء لهم « ... إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فائتونا بسلطان مبين » (إبراهيم : ١٠) وكذلك قال الله تعالى مبينا بعض أسباب الكفر بالنبوة : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » (الإسراء : ٩٤)(١) وقد رد القرآن على هؤلاء بما يوضح أن الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم ، ليكون أخبر بهم ، وأعرف بأحوالهم ، ولتقوم الحجة به عليهم ، ولو كان البشر من جنس آخر لأرسل الله إليهم رسولا من هذا الجنس « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا علهم من السماء ملكا رسولا » (الإسراء : ٩٥) أما إذا كانوا بشرا فإن من الطبيعى أن يكون الرسول المرسل إليهم بشرا ، ولا يُجْدِى أن يكون ملكا أو أن ينزل إليه ملك فيكون معه نذيرا كما تمنوا . (الفرقان : ٧) وفى هذا يقول القرآن : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » (الأنعام : ٩) .

---

(١) وانظر - كذلك - الآيات : ٩١ من سورة الأنعام ، ٢٤ من سورة المؤمنون ، ١٥٤ ، ١٨٦ من سورة الشعراء ، ٦ من سورة التغابن . إلى آيات أخرى .

وكان من الأسباب أن أقوام الأنبياء قد استكثروا عليهم منصب النبوة ومقامها الرفيع . وقد عبرت بعض الآيات القرآنية عن هذا المعنى ، ومن ذلك قول قوم موسى عنه « ... أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » (المؤمنون : ٤٧) وقول فرعون لقومه عنه : « ... يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » (الزخرف : ٥١ - ٥٣) وقول مشركى مكة عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف : ٣١) وقد رد القرآن على هؤلاء وأمثالهم بأن النبوة اصطفاء ، ورحمة إلهية ، وأن الله يختار لها من هو أهل لها ممن يقدر على حسن إبلاغها ، والقيام بمقتضياتها « أهم يقسمون رحمة ربك ... » (الزخرف : ٣٢) وقال تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (الأنعام : ١٢٤) .

ولقد يكون الكفر بالنبوة والأنبياء راجعا عند هؤلاء المستكبرين إلى الأنفة من أن يكونوا أتباعا للأنبياء ، مثلهم في ذلك مثل الضعفاء الذين سارعوا إلى الإيمان بالنبوة ، لما وجدوا فيها من العدل والإنصاف والرحمة والمساواة ، ومقاومة الظلم والبغى والأذى ، وقد قال أمثال هؤلاء لنوح عليه السلام : « ... ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نري لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » (هود : ٢٧)[١] .

وكان الاستمساك بما كان عليه الآباء ، والإصرار عليه على ما فيه من الأخطاء والأهواء من أسباب المقاومة لهدى الأنبياء . وقد قال قوم موسى له : « ... أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » (يونس : ٧٨) وقال المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم : « بل قالوا

---

(١) وانظر الآيات ٥٢ - ٥٤ من سورة الأنعام ، ٢٨ من سورة الكهف والآيات الأولى من سورة عبس وتولى ، مع مراجعة أسباب نزول هذه الآيات فى كتب التفسير وكتب أسباب النزول .

إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » (الزخرف : ٢٢) وقد بين القرآن الكريم أن هذا ليس موقف مشركى مكة وحدها ؛ بل إنه موقف عام ، التقى به الأنبياء السابقون (الزخرف : ٢٣) ثم رد الله عليهم بقوله عز وجل : « قال أوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون »

(الزخرف : ٢٤) .

ولم يقتصر هؤلاء المنكرون للنبوة على الرفض لها ، والإعراض عن أصحابها ؛ بل إنهم اتهموهم بالسحر والجنون أحيانا(١) كما وصفوهم بالضلالة والسفاهة والكذب فى أحيان أخرى(٢) ولم يكتفوا بذلك ، بل إنهم اتجهوا إلي محاولة التخلص منهم بكل سبيل ، حتى بالقتل ،وفى ذلك يقول الله تعالي لبنى إسرائيل : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (البقرة : ٨٧ وانظر الآية ٧٠ من المائدة) . وقال الله عن مشركى مكة : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكرالله والله خير الماكرين » (الأنفال : ٣٠) .

ب - ولا يتوقف الأمر فى النظر إلى النبوة عند هذا الحد ، بل إنه يصل إلى حد إنكار النبوة أصلا .

وينقسم أصحاب هذا الرأى إلى فريقين : فريق الماديين ، وفريق العقليين .

فأما الماديون الذين يفسرون الوجود تفسيرا ماديا فإنهم لا يؤمنون بالله ولا بالغيب ، ولا بالآخرة . ومن ثم فهم لا يؤمنون بالنبوة . ويتفق مع أصحاب هذا الاتجاه المادى بعض العلماء التجريبيين الذين لا يقبلون إلا ما تشهد له التجارب المحسوسة .

---

(١) انظر الآيات : ١١٠ من سورة المائدة ، ٧٦ من سورة يونس ، ٦٤ من سورة هود ، ٨ من الفرقان ، ١٣ من سورة النمل ، ٥٢ من سورة الذاريات إلى آيات أخرى .

(٢) انظر الآيات : ٦٠ ، ٦٦ من سورة الأعراف ، ٤ من سورة ص ، ٢٤ من سورة غافر إلى آيات أخرى .

وقد انتهى هؤلاء إلى إنكار الأديان كلها لأن الأديان « تقوم على الوحى ، والعلم لا يعرف إلا التجربة ، ولا قيمة فى نظره لأى فكرة ، إذا لم تكن تعبيرا مباشرا عن وقائع (= حسية مادية) أو نتيجة لاستنباط محدود ، قائم على القوانين الطبيعية لترابط الأفكار »[1] .

وقد وجدنا من العقليين والمفكرين من يتخذ هذا الموقف نفسه بدعوى أن العقل يغني عن النبوة . ومن أشهر هؤلاء - قديما - فرقة البراهمة من الهنود ، الذين قالوا : « إن الذى يأتى به الرسول لم يخلُ من أحد أمرين : إما أن يكون معقولا ، وإما ألا يكون معقولا . فإن كان معقولا فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه ... وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا ؛ إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ، ودخول فى حد البهيمية »[2] .

ولا يتأتى الجدال مع المنكرين للنبوة من الماديين إلا بعد الجدال معهم فى أصل فكرتهم التى تنكر وجود الله تعالى . وقد قامت أدلة الفطرة والتاريخ والواقع النفسى والعقل والدين على الإيمان بالله تعالى[3] فإذا تم تقرير هذا الأصل فإنه لا غرابة - بعد ذلك - فى تقرير أصل الإيمان بالنبوة .

وإذا كان الماديون لا يؤمنون إلا بما هو مادى ، فإن عليهم أن يقدموا - فى ضوء منهجهم المادى - تفسيرا لما جاء الأنبياء والرسل من حقائق وشرائع وأصول ، لم تكن معروفة في عهدهم ، ولا مألوفة عند أقوامهم ، ولم يرجعوا فيها إلى حكمة بشرية ، أو

---

(١) اميل بوترو : العلم والدين فى الفلسفة الحديثة ص ١٠٦ ، وقد أشرنا من قبل إلى أن كثيرا من أعلام الاتجاه التجريبى قد عدلوا عن هذا الموقف ، وأصبحوا يستخلصون من نتائج العلوم ما يؤيد قضايا الإيمان .

(٢) الملل والنحل للشهرستانى ٣ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ وانظر كذلك : البدء والتاريخ للمقدسى ، باريس ١٨٩٩ ، ١ / ١٠٩ ، ١١٠ وأعلام النبوة لأبى الحسن الماوردى دار الكتب العلمية ، بيروت ط٢ / ١٩٨١ ، ص ٢١ ، ٢٢ وما بعدها .

(٣) انظر ما سبق من حديث عن الإيمان بالله تعالى وتوحيده .

خبرة إنسانية . وقد أتوا فى تلك الشرائع بعلوم هى الغاية في الحكمة والصواب ، وأرشدوا الناس إلى قيم هى مثل عليا فى الخير والفضيلة والرشد ، ويتمثل ذلك - على أسمى وجه وأكمله - فى القرآن الكريم الذى نزل من الله تعالى على رجل أمى فى بيئة أمية ، وكان هو نفسه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقد تضمن القرآن من الحقائق وأصول العلوم والتشريعات وأخبار الأمم ما لم يكن لمعاصريه به عهد ولا علم . وهذا ما قاله القرآن فى مناسبات عديدة . فقال عن قصة نوح « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (هود : ٤٩) وقال عن قصة يوسف وأبيه وإخوته : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (يوسف : ١٠٢)(١) .

كما أنه تضمن من الإشارات المتعلقة بالكون والإنسان(٢) ما لم يكن معلوما في عهده ولا قبله لدى أحد من البشر مطلقا ، لا فى شبه الجزيرة العربية ولا فى خارجها . وقد ظل الناس على غير علم بها إلى وقت قريب ، وليس لذلك من تفسير صحيح إلا أن خالق هذا الوجود ، العالم بكل شىء فيه هو الذى أوحى إلى النبى بهذه الأمور التى لا يستطيع معرفتها بنفسه ؛ لتكون دليلا متجددا على صدق نبوته ، وتصديقا لقول الله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ... » (فصلت : ٥٣) .

وأما العقليون فإن القسمة العقلية التى قالوها ليست دقيقة ولا حاصرة . فالوحي لا يأتى - فقط - بما يستطيع العقل إدراكه ، بل إنه يأتى كذلك بما لا يستطيع العقل إدراكه ، وينطبق ذلك على ما يتعلق بالله تعالى وبالآخرة ، بل ينطبق ذلك على ما يتعلق ببدايات الوجود ، ونهاياته ، وبالمصائر والأقدار ، وما تصلح عليه النفوس

(١) وانظر الآيات : ٤٤ من سورة آل عمران ، ٤٤ - ٤٦ من سورة القصص .

(٢) انظر مثلا الآيات ١٢٥ من الأنعام ، ٢١ ، ٢٢ من سورة الحجر ، ٤٠ ، ٤٣ من سورة النور ، ٣٦ - ٤٠ من سورة يس ، ٦ من سورة الزمر ، ٤٧ - ٤٩ من سورة الذاريات إلى آيات كثيرة .

البشرية من الشرائع والأحكام . وقد اعترف بعض الفلاسفة بهذا . وقد قال ابن رشد : « إنه لم يقل أحد من الناس فى العلوم الإلهية قولا يعتد به ، وليس يعصم أحد من الخطأ (فيها) إلا من عصمه الله تعالى ، بأمر إلهى خارج عن طبيعة الإنسان ؛ وهم الأنبياء »(١) .

ويمكن القول - فى إيجاز شديد - إن طرق المعرفة الإنسانية تتمثل فى عدد من الطرق ، من أهمها :

١ - الحدس والإلهام الذي يقول به الصوفية وبعض الفلاسفة .

٢ - المعرفة الحسية التى ترد إلى العقل من طريق الحواس الظاهرة والباطنة ، وهى محتاجة إلي العقل الذي يحولها إلي مادة معرفية .

٣ - ثم المعرفة العقلية التأملية .

والطريقة الأولى لا تضاد النبوة ؛ بل إنها تتفق معها فى أن للمعرفة طرقا أخرى غير طريقى الحواس والتفكير العقلى . أما الطريقة الثانية والثالثة فإنهما لا تغنيان عن النبوة ، بل يظل الإنسان محتاجا دائما - مهما بلغ نصيبه من العلم أو الفكر إلي هدى النبوة ، الذى يقدم للبشرية أثرا من آثار الرحمة الإلهية التي تحقق للإنسان رشاد العقل ، واستقامة السلوك ، وطمأنينة القلب ، وسكينة اليقين ، ويكفى أن نشير - هنا - إلى ما وقر فى قلوب الصحابة من الاعتزاز بالإسلام ورسالته وما تضمنته من الحق والخير والهدى . ويتضح ذلك جليا فيما قاله جعفر بن أبى طالب فى التعريف بالإسلام وآثاره الروحية والعقائدية والأخلاقية ، وما أحدثه من نقلة كبرى فى نفوس معتنقيه ، وجاء ذلك فى حديثه أمام النجاشى « كنا قوم أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ،

---

(١) تهافت التهافت ٢ / ٥٤٧ ، وانظر المرجع نفسه ١ / ٤٠٢ وارجع إلى أقوال غيره من الفلاسفة وغيرهم حول هذه الفكرة فيما جاء تحت عنوان : الحاجة إلى العقيدة الصحيحة . وانظر كذلك رسالة التدمرية لابن تيمية طبع مصر ١١٨ ، ١١٩ .

ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، نسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف .

فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، ومن الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ... »[1] .

وهذا كله من نور النبوة ، التي تجتمع مع نور العقل ، فتكون نورا على نور . وبذلك يتميز أهل الإيمان عمن أعرضوا عن النبوة أو حرموا أنفسهم من هديها « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » ؟ (الأنعام : ١٢٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣٣٦ .

« الإيمــان بالقــدر »

هو الأصل السادس من أصول الدين ، كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام فى سؤاله للرسول صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة . والإيمان به أثر من آثار الإيمان بعلم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها ، ثم الإيمان بإرادته ومشيئته لها ، بحسب علمه الشامل المحيط ، والإيمان - كذلك - بقدرته على إيجاده وتدبيره لها ، ثم الإيمان بعدله وحكمته ، وتنزهه عن الظلم فى قضائه وقدره .

ومما يدل على ذلك من القرآن الكريم قول الله تعالى :

- « إنا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر : ٤٩) .

- « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا » الأحزاب : ٣٨) .

- « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » (الحديد : ٢٢) إلى آيات أخرى .

ويدل على ذلك من الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر »[(١)] وقال رسول الله صلى اله عليه وسلم : « كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس »[(٢)] .

وعلى ذلك قال أحد التابعين : « أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : « كل شيء بقدر »[(٣)] .

---

(١) سنن الترمذى : أبواب القدر ، باب ما جاء أن الإيمان بالقدر خيره وشره ، ٣ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كل شيء بقدر ٥ / ٥١٠ .

(٣) السابق : الموضع نفسه ، وانظر أحاديث كثيرة فى كتاب القدر لدي البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم . وانظر كتاب الشريعة للآجرى ، باب الرد علي القدرية ١٤٩ - ٢٥٠ .

وتدلنا هذه النصوص وأمثالها على أهمية هذا الأصل من أصول الدين ، ثم يدلنا على أهميته كذلك - أن له اتصالا وثيقا بالفرد والمجتمع ، وهو يمثل عقيدة ذات جوانب وقانونية وأخلاقية ونفسية ، وهى من القضايا التى تشغل الناس فى كل زمان ومكان للوصول فيها إلى رأى يطمئن إليه قلب الإنسان وعقله ، وينسجم به فكره وسلوكه . وقد أسهم فى بحثها مفكرون وفلاسفة ، وعلماء دين وأخلاق ، ورجال تصوف وقانون واجتماع ، بل إنه يمكن القول بأنه لا يكاد يخلو إنسان - مهما كان مستواه الثقافى - من انشغال بهذه القضية فى جانب من جوانبها أو جزئية من جزئياتها . وربما تجلى ذلك فى كلمة عابرة ، أو فى ترديد لمثل سائر ، أو حكمة موروثة ، تتحدث عن البخت والنصيب والمقسوم والمكتوب على الجبين . وهى تمثل - عند قائلها - موقفا محددا أو وجهة نظر ، أو رأيا أو اعتقادا يستند إليه صاحبه فيما يقع له أو منه من أقدار أو أعمال .

وقد كانت هذه المسألة من أولى المسائل التى واجهت العقل البشرى عندما بدأ التعمق فى البحث ، فقد بدأ يتساءل : هل إرادة الإنسان حرة تفعل ما تشاء وتترك ما تشاء ؟ أو أن الإنسان مجبر فيما يفعله ، وأن إرادته مرتبطة بعلل وقوى أخرى تؤثر فيها ، أو تقهرها على غير ما تريد[1] .

وكذلك كانت من أولى المسائل العقلية التى شغلت المسلمين[2] وقد حدث شيء من الاختلاف حولها بين الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد خرج عليهم الرسول وهم يتجادلون أو يتدارءون فى القدر « فغضب حتى احمر وجهه ، حتى كأنما فقىء فى وجنتيه الرمان . فقال : أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم . إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر . عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه »[3] .

(١) انظر : الأستاذ أحمد أمين ، فجر الإسلام ، النهضة المصرية ط١٢ / ١٩٧٨ ص٢٨٣ .

(٢) انظر : د/ إبراهيم مدكور ، فى الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، دار المعارف ط١ / ١٩٧٦ جـ٢ / ٩١ .

(٣) سنن الترمذى ، أبواب القدر ، باب ما جاء من التشديد فى الخوض فى القدر ٣/ ٣٠٠ وانظر سنن ابن ماجة فى المقدمة ، باب فى القدر ١ / ٣٣ .

وجاء فى رواية أخرى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع قوما « يتدارءون ، فقال : إنما هلك من كان قبلكم بهذا : ضربوا كتاب الله بعضه ببعض . وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا ، فلا تكذبوا بعضه ببعض . فما علمتم منه فقولوا . وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه »(١) .

ولعل من أسباب هذا الاختلاف بينهم ، وبين غيرهم أيضا ، أن الإيمان بالقدر متصل بأفعال العباد ، وهى أفعال تتلاقى فيها - بنسب متفاوتة ، يختلف الناس فى تقديرها ومدي تأثيرها - إرادة الإنسان وحريته بمقتضيات القدر الإلهى ، وما يرتبط به من علم سابق وإرادة شاملة ، وقدرة نافذة . ثم يلاحظ فيها - كذلك - تأثير السنن الكونية ، والقوانين الطبيعية والاجتماعية ، بمالها من تأثير غير منكور فى الإرادة الإنسانية .

ولعل من أسباب هذا الاختلاف - أيضا - أن النصوص الشرعية الواردة في هذه المسألة قد تبدو - فى أول النظر ، وفى ظاهر الأمر - على شيء من الاختلاف أو التعارض . فبعضها قد يفهم منه معنى الجبر . الذى يلغى الإرادة الإنسانية ، وذلك مثل قوله تعالى عن الكافرين : « ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم . وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » (البقرة : ٧) وقوله : « ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظا » (الأنعام : ١٠٧) وقوله : « ولو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض كلهم جميعا » (يونس : ٩٩) وقوله : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » (القصص : ٥٦) وقوله : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » (القصص : ٦٨) وقوله : « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فماله من هاد » (الزمر : ٢٣) إلي آيات كثيرة أخرى ، كما تدل على ذلك الأحاديث التى تتحدث عن أن الإنسان يكتب له حظه من

---

(١) مسند أحمد ٢/١٨٥ ، وقد كان الصحابة بعده صلى الله عليه وسلم يوصى بعضهم بعضا بذلك . انظر : إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ٢/٢٢٠ .

السعادة والشقاوة وهو فى بطن أنه ، وأن عمل الناس إنما هو فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير ، وأن الله قد كتب مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وأن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها حيث يشاء[1] وأنه ما من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار ، وأن الله قد فرغ من أمر العباد : فريق فى الجنة وفريق فى السعير[2] .

غير أن هناك نصوصا أخرى تثبت أن للإنسان إرادة واختيارا وعملا . ومن ذلك قوله تعالى :

- « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »
(الكهف : ٢٩) .

- « إنا هديناه السبيل ، إما شاكرا وإما كفورا » (الإنسان : ٣) .

- « قل أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » (يونس : ١٠٨) .

- « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » (الإسراء : ١٨ ، ١٩) .

- « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ... فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » (البقرة : ٢٣٣) .

- « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » (آل عمران : ١٥٢) .

---

(١) ارجع إلى صحيح مسلم ، كتاب القدر ٥/ ٥٠٠ - ٥١٠ .

(٢) ارجع إلى صحيح البخارى كتاب القدر ، باب حدثنا هشام ، وباب جف القلم على علم الله ٧/ ٢١٠ ، وباب وكان أمر الله قدرا مقدورا ٧/ ٢١١ ، ٢١٢ ، وانظر به ٧/ ٢١٥ ومواطن أخرى وسنن الترمذى ، أبواب القدر ٥/ ٣٠٠ - ٣٠٥ .

- « والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » (النساء : ٢٧) .

- « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » (الكهف : ٢٨) إلى آيات كثيرة أخرى .

وأدت ملاحظة جانب من هذه النصوص دون الجانب الآخر منها إلي الاحساس بصعوبة المشكلة ، وجاء التعبير عن ذلك صريحا فى أقوال بعض الذين تعرضوا لها . ومن ظهر لديهم ذلك - فى نطاق الفكر الإسلامى - الإمام أبو حنيفة الذى قال لمن أرادوا مناظرته فى القدر " أما علمتم أن الناظر فى القدر كالناظر فى شعاع الشمس ، كلما ازداد نظرا ازداد حيرة "(١) وينسب مثل هذا القول إلى جعفر الصادق (١٤٨هـ)(٢) وقد وصفها ابن رشد بأن هذه المسألة من أعوص المسائل الشرعية(٣) كما وصفها ابن تيمية بأنها مسألة مشكلة ، وأن نفوس بنى آدم لا يزال يحوك فيها من هذه المسألة أمر عظيم (٤) .

وقد بدأ الاختلاف فى فهم النصوص ، والسعى إلى استخلاص رأى يتوافق معها منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، ولم يقتصر خلافهم حولها على ما وقع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ بل إنهم اختلفوا فيها ، بعد عهده ، عندما واجهتهم بعض المواقف العملية .

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، فلقيه أهل الأجناد بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، وقد اختلف رأيهم ، هل يمضون فى

---

(١) يوسف ابن عبد البر : الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ، بيروت ، د .ت ١٦٤ .

(٢) انظر : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، إدارة الطباعة المنيرية ط٢ / ١٩٧٨ جـ٢ / ٩٧ .

(٣) مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص ٢٢٢ .

(٤) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٨٦/٧ ، ٩٧/٨ .

طريقهم إلى الشام أو يرجعون ؟ . فاستشار عمر الصحابة رضى الله عنهم ، وبدأ بالمهاجرين الأولين فاختلفوا ، فرأى بعضهم أن الناس خرجوا لأمر ، فلا يصح لهم أن يرجعوا إلا بعد إتمامه مهما كانت العواقب ، ورأى فريق آخر أنه لابد من المحافظة على المسلمين ، وحمايتهم من القدوم بهم على الخطر والتهلكة ، ووسع عمر دائرة المشورة فاستشار الأنصار ، فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم ، فاستشار مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فكانوا على رأى واحد فى عدم القدوم على مواطن الوباء . فأعلن عمر فى الناس أنه سيرجع إلى المدينة « فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان (= جسانبان) : إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقد الله ؟ »[1] .

ثم بدأ أهل المعاصى يحتجون لمعاصيهم بالقدر ، حتي يفروا بذلك من العقوبة . فقد احتج سارق على عمر بالقدر ، فقال له عمر : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره[2] وجاء فى رواية أخرى أنه أقام على السارق حد السرقة ، ثم ضربه أسواطا . فلما سئل عن ذلك قال : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله[3] .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون ٢١/٧ وصحيح مسلم ، كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها ٦٧/٥ - ٧١ وموطأ مالك طبعة الشعب ، كتاب الجامع ، باب ما جاء فى الطاعون ٥٥٧ ، ٥٥٨ وتمام الحديث أن عبد الرحمن بن عوف جاء فروى ما سمعه من قول الرسول : « إذا سمعتم به (= بالطاعون) بأرض فلا تقدموا عليه ... » فحمد اللهَ عمر ثم انصرف .

(٢) شرح الطحاوية ١٥٤ .

(٣) باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل لأحمد بن يحيى المرتضى ، تصحيح توما أرنلد ، دار صادر ، بيروت عن طبعة دائرة المعارف النظامية بالهند ١٣٢٦هـ ص٨ .

وكاد الأمر يتحول إلى اتفاق بين أهل المعاصى . فقد جاء رجل إلى ابن عمر يقول له : ظهر فى زماننا رجال يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التى حرم الله ، ثم يحتجون علينا ويقولون : كان ذلك فى علم الله . فغضب ابن عمر وقال : سبحان الله ! كان ذلك في علم الله ولم يكن علمه يحملهم على المعاصى ... (١) .

ثم ظهر من ينكرون علم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها ، وكان من مقالة هؤلاء الذين ظهروا فى أواخر عهد الصحابة أنهم يزعمون أنه لا قدر (أى لا علم) والأمر أنف . وفزع الناس من هذه المقالة ، وبحثوا عن بعض الصحابة ليسألوه عن رأيه فيها ، فالتقوا بعبد الله بن عمر ، فقال للسائل : « فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برئ منهم ، وأنهم برآء منى . والذى يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحُدٍ ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه ، حتى يؤمن بالقدر » ثم ساق الحديث المشهور الذى سأل فيه جبريل عليه السلام الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإنسان وأشراط الساعة(٢) .

ثم كثرت الآراء وتعددت ، حتى لقد بلغت الآراء فيها عند علماء الكلام وحدهم أربعة عشر رأيا(٣) وقد كان من بين الباحثين فى هذه المسألة من قال بالجبر المطلق ، حتى جعلوا الإنسان كالجماد الذى لا إرادة له ولا تدبير ولا قدرة . وكان منهم من قال بالحرية والإرادة وما يرتبط بهما من مسؤولية . وكان منهم من حاول أن يتخذ مذهبا وسطا بين الفريقين .

---

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ / ١٩٨٥ ، ٢ / ١٤٣ .

(٢) سبق تخريجه فى أول الكتاب .

(٣) انظر : إيثار الحق على الخلق لأبى عبد الله محمد بن المرتضى اليمانى - تصوير دار الكتب العلمية ، د . ت ص٣٠٨ وما بعدها وقد ذكر أن للمعتزلة من هذه الآراء ثمانية ، ولأهل السنة والأشاعرة أربعة آراء . أما الرأيان الباقيان فهما للجبرية .

وكان من أهم الأسباب التى أدت إلى هذا الاختلاف أن الناظرين فى المسألة لم ينظروا إلى النصوص الشرعية الواردة فيها نظرة كلية شاملة ، ولم يجمعوا بعضها إلى بعض ، بل لاحظوا بعضا منها وأهملوا بعضها الآخر ، وركزوا على جانب منها دون جانب ، وجعلوا ما لاحظوه منها بمثابة « المحكم » وجعلوا الآخر بمثابة " المتشابه " ولذلك جاءت نظرتهم جزئية .

وقد كان المرجوُ والأكثر توفيقا ، والأقرب إلى الحق والصواب فى المسألة أن ينظروا إليها جميعا فى ضوء المنهج النبوى الذى حدده الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وجد الصحابة يتدارءون فى القدر ، فالقرآن لم ينزل - فى هذه المسألة ولا فى غيرها - ليضرب بعضه بعضا ، ولا ليكذب بعضه بعضا ، وإنما نزل ليصدق بعضه بعضا ، ومن ثم فالمنهج الصحيح هو أن تجمع النصوص بعضها إلى بعض ، وأن يعطى كل منها حقه ، وأن يطبق عليها قواعد الاستنباط التى يتبعها العلماء فى علم أصول الفقه ، وقواعد التفسير التى يطبقها علماء التفسير ، وأن يراعى فيها أسباب النزول وسياق الآيات ، وألا تقتطع الآيات من سياقها تأييدا لفكرة سابقة أو رأى محدد سلفا ، وأن يحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، والمجمل على المبين ، وألا يسارع الناظر فى النصوص إلى الحكم بتناقضها ؛ لأن كلام الله لا يتناقض فى ذاته « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء : ٨٢) ثم لا يتناقض معه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ الذى لا ينطق عن هوى نفسه بل إنما ينطق عن أمر ربه « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » (الحاقة : ٤٤ - ٤٧) .

فإذا وجدت بعض النصوص التى قد تبدو فى ظاهرها متعارضة فإنه ينبغى اتباع طريقة الجمع أو الترجيح بينها ، على النحو الذى يوجد لدى الأصوليين . وإذا كان هذا هو المنهج الذى ينبغى اتباعه فى فروع الأحكام فإنه أولى أن يتبع فى أصول الدين والعقيدة .

وينبغي الإشارة - في إيجاز - إلى أن بعض الباحثين من المفكرين والعلماء الإسلاميين القدامى قد حاولوا هذه المحاولة ، ونهجوا هذا النهج ، ومنهم : الفقيه اللغوى الأديب أبو محمد عبد الله بن السيد البَطَلْيَوْسى الأندلسى (ت ٥٢١) .

وقد تناول مسألتنا هذه ضمن كتاب من كتبه الهامة[١] عنى فيه ببيان أسباب الخلاف الذى وقع بين المسلمين . وكان من بين هذه الأسباب ما سماه بالاختلاف العارض من جهة الإفراد والتركيب ، وأوضح ذلك بأن الحكم الشرعى قد يأتى فى آية واحدة ، وهذا لا إشكال فيه ، وقد يأتى فى آيات وأحاديث كثيرة ، فيحتاج الأمر عندئذ إلي جمع هذه الآيات والأحاديث وترتيبها والاجتهاد فى استخلاص الحكم منها ، فإذا تم الاجتهاد على هذا النحو فلا إشكال . أما إذا لوحظ جزء من النصوص دون بقيتها فإن الاختلاف سيقع لا محالة . وقد يقع التضاد فى الآراء والمقالات لهذا السبب .

ويذكر البطليوسى أنه - نتيجة لذلك - قد نجد مقالتين متضادتين لا يكون الحق فى أى منهما ، وإنما يكون في مقالة متوسطة بينهما ، ترتفع عن حد التقصير ، وتنحط عن حد الغلو .

ويضيف البطليوسى إلى ذلك قوله : إننا إذا تأمّلنا المقالات والاختلافات التي وقعت بين أهل ملتنا فسنجد أن أكثرها أو كثيرا منها ينطبق عليه ذلك[٢] . ولكى يؤكد وجهة نظره يقوم بتطبيق فكرته على مسألة القضاء والقدر[٣] .

---

(١) هو كتابه : التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين . تحقيق د/ أحمد حسن كحيل ، د / حمزة النشرتي ، دار الاعتصام ط١ / ١٩٧٨ وانظر فى الترجمة للبطليوسى : وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق د/ إحسان عباس ، دار صادر ببروت ٣/٩٦ - ٩٨ ، والبداية والنهاية ١٢/٢١٢ وشذرات الذهب ٤/٦٤ ، ٦٥ .

(٢) التنبيه ص١٠٩ وما بعدها إلى ١٢٠ .

(٣) السابق ١٣٣ - ١٤٨ وكلامه جدير بأن تفرد له دراسة خاصة ، لا يتسع لها المقام هنا .

وبناء على هذا المنهج يمكن النظر إلي هذه القضية الشائكة بغية الوصول إلي حل مناسب لها من خلال عدد من القواعد والعناصر المتكاملة ، من أهمها ما يلى :

أولا : عدم الاقتصار على بعض الصفات الإلهية دون بعض ، بل ينبغي النظر إليها في مجموعها ، دون تفريق بينها ، أو ملاحظة بعضها وإهمال بعضها الآخر .

فالله عز وجل بكل شيء عليم . وعلمه يقتضى العلم بمخلوقاته وأفعال عباده ، وهذا العلم سابق على وجود الأشياء ؛ لأن هذا هو الذى يليق بمقام الألوهية ؛ إذ ليس علم الله ناقصا كعلم المخلوقات الذين لا يعلمون الأشياء إلا عند وجودها أو بعد وجودها ، وهذا من الفروق بين الخالق والمخلوق . فالله هو الذى يخلق الأشياء ويحفظها « ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » (الملك : ١٤) وإذا لم يكن علمه سابقا فكيف يتم الخلق أو ينضبط الحفظ والتدبير.

والله عز وجل ذو مشيئة عليا وإرادة نافذة لا يكرهها شيء ، ولا يعجزها شيء « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (يسن : ٨٢) « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (الرعد : ٤١) « ذو العرش المجيد فعّال لما يريد » (البروج : ١٥ ، ١٦) « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له » (الرعد : ١٠) وهذا هو اللائق بالألوهية .

والله – سبحانه – موصوف بالقدرة العامة التامة ، الشاملة الكاملة ، وقد وصف نفسه بأنه على كل شيء قدير فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ويدل الخلق نفسه على آثار هذه القدرة وعظمتها ، ونفاذ تأثيرها ، ويظهر ذلك كله فى وجود الخلائق وتجددها وتنوعها ، والوفاء لها بحاجاتها . فالله يحيى ويميت ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وهو يعز ويذل ، ويؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، وهو ينصر الطائعين ، ويخذل الظالمين « لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير » (المائدة : ١٢) .

والعلم والإرادة والقدرة - إذن - من صفاته وأسمائه الحسنى . ولكن النظر إلى أفعال العباد من منظور هذه الصفات وحدها قد يوقع في الجبر ؛ لأنه ما دام الله عالما علما سابقا بكل شيء ، ومريدا لما يشاء ، وقادرا على كل شيء فما الذى يستطيع الإنسان أن يفعله عندئذ ؟ وقد ذكر القرآن احتجاج بعض الخلائق من المشركين والمنافقين والبخلاء عن الإنفاق ، لشركهم وتخلفهم عن الجهاد ، وبخلهم بالنفقة ، بعلم الله وقدرته ومشيئته ولكن القرآن رد عليهم ذلك(١) .

ولكن الله - عز وجل - ليس موصوفا بهذه الصفات وحدها ، وإنما هو موصوف معها بصفات أخرى ، ومنها العدل والحكمة والرحمة .

فالعدل يقتضى ألا يكلف الله الناس مالا يطيقونه ، وألا يكلف نفسا إلا وسعها ، ولذلك يرفع الشرع التكليف عن الناس إذا لم يكن عندهم الاستطاعة التي يتمكنون معها من أداء الفرائض ، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » (آل عمران : ٩٧) « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » (الأنفال : ٦٠) « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم » (التغابن : ١٦) « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (البقرة : ٢٨٦) ولذلك رفع الشرع التكليف أو الإثم عن المكره إكراها تاما يشل إرادته ويعجز قدرته ، ويحول بينه وبين المسئولية ، كما رفع ذلك عن الصبى والمجنون وأمثالهما ممن ليس فيهم آلات العلم والإرادة والقدرة ، وهذا كله من مقتضيات عدل الله تعالى ورحمته .

والحكمة - كذلك - صفة من صفات الله تعالى ، وحكمته - تعالى - مقرونة فى القرآن بالعلم والخبرة(٢) والعزة والحمد ، وهو موصوف بأنه أحكم الحاكمين وخير الحاكمين .

---

(١) انظر الآيات : ١٥٤ ، ١٥٥ من سورة آل عمران ، ثم ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة الأنعام ، ثم من سورة يس ، وسيأتى حديث عن ذلك قريبا .

(٢) انظر الايات ١٨ ، ٧٣ من سورة الأنعام ، والآية الأولى من سورة سبأ .

ومن مقتضى حكمته - مع ما تدل عليه من كمال الخلق وإحكامه وحسن تدبيره - ألا يسوى الله عز وجل بين المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، والمقبل عليه والمعرض عنه ، والقادر والعاجز ، والمستطيع وغير المستطيع . فلكل من هؤلاء جزاؤه الذى يستحقه .

- « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (ص : ٢٨) .

- « أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » (الجاثية : ٢١ ، ٢١) .

والرحمة - كذلك - من صفات الله تعالى . ولها آثارها ومقتضياتها . ومنها : إرسال الرسل ، وتواتر النعم ، وسعة الفضل الإلهى . ولذلك يتوب على التائبين ، ويغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، وهو يتودد إلى عباده ، وهو غنى عنهم ، ويتقرب إليهم وهم المحتاجون إليه ، فيعفو عن الزلات ، ويبدل السيآت للتائبين حسنات ، ومن تقرب إليه شبرا تقرب إليه ذراعا ، ومن تقرب إليه ذراعا تقرب إليه باعا ، ومن أتاه يمشى أقبل عليه ربه - تعالى - هرولة[1] .

وينبغى أن تستحضر هذه الصفات كلها فى النظر إلى المسألة ، لأن النظر إلى بعضها دون بعض قد يوقع فى الجبر ، أو يؤدى إلى إلحاق النقص بالله تعالى . والنظر بهذه الطريقة الجزئية شبيه بفعل القدرية الذين ظهروا فى أواخر عهد الصحابة . وقد انقسم هؤلاء إلى فرقتين : إحداهما تنكر علم الله تعالى ، لحساب الإرادة الإنسانية وهؤلاء هم الذين قالوا : لا قدر ، والأمر أنف ، وهم الذين رد عليهم عبد الله بن عمر،

(١) انظر نص الحديث القدسى فى صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى وحسن الظن به ٥٤١/٥ ، ٥٤٢ ، وكتاب التوبة ٥٨٧/٥ وصحيح البخارى كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه ١٧١/٨ .

وثانيتهما : تؤمن بعلم الله السابق وقدره النافذ ، ولكنهم لم يثبتوا للإنسان فعلا ولا إرادة ، ولا استطاعة لشيء . وهؤلاء هم أهل الجبر المطلق ، الذين يسوون بين الإنسان والجماد ، ومنهم الجهم بن صفوان ومن قال بمقالته[1] .

ثانيا: أشرنا - من قبل - إلى أن هناك نصوصا قد يوهم ظاهرها الجبر ، علي حين أن هناك نصوصا أخرى تثبت أن للإنسان إرادة واختيارا وعملا . وليس الحكم فى المسألة راجعا إلى النصوص الأولى وحدها ، ولا للنصوص الثانية وحدها ، وإنما الحكم فيها راجع إلي نوع **ثالث** من النصوص التي تجمع بين الجانبين ، وتوفق بين الإرادتين ، ويجتمع فيها الإيمان بكمال الله تعالى ، مع اتصاف الإنسان بما يجعله أهلا للمسئولية . ويتضمن هذا النوع الثالث نصوصا كثيرة جدا يمكن اعتبارها بمثابة " المحور " الذى ينبغي أن ينظر إلى النصوص كلها فى ضوئه ، وعلى نور منه . وهى نصوص تتيح للناظر فيها أن يصل إلى رأى وسط ، وحل عادل يطمئن إليه القلب والعقل فى القضية . ومن هذه النصوص ما يأتى :

- « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد : ١١) .
- « ويزيد الله الذين اهتدوا هدي » (مريم : ٧٦) .
- « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » (العنكبوت : ٦٩) .
- « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم » (النحل : ١٠٤) .
- « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا واتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ...» (سورة محمد : ١- ٣) .

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣ / ٤٧ ، ٤٨ وانظر فى التعريف بهم : مقالات الإسلاميين والفصل لابن حزم والملل والنحل إلخ .

- « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما نزل الله فأحبط أعمالهم » (سورة محمد : ٧ - ٩) .

- « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » (النمل : ٤) .

- « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدى القوم الفاسقين »(الصف :٥) .

والآيات فى الربط بين الإرادة الإنسانية والمشيئة الإلهية ، كثيرة جدا ، ويدلنا التأمل فيها على أن نقطة البدء فيها هي توجه الإرادة الإنسانية نحو الله تعالى أو إعراضها عن الله ، فإذا حدث هذا التوجه نحو الله وترتبت عليه آثاره العملية فإن صاحبها يكون أهلا لمعونة الله وفضله وإمداده وهدايته ، أما إذا أعرض الإنسان عن الله فإنه لا يكون من حقه أن ينتظر من هذا الفضل شيئا .

ويظهر ذلك واضحا فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى جاء فيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس فى المسجد ، والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر . فأقبل اثنان إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد ... فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها. وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهبا . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة : أما أحدهم فأوي إلى الله فآواه الله . وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه . وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه »(١) ، وقد نال كل واحد من الثلاثة من الله جزاءه المتفق مع نيته وعمله . والأمر - كما هو واضح - مزيج من فعلين وإرادتين ، وليس فعل العبد مهملا ، وليست نيته منعدمة ؛ بل هما حاضران ، ومؤثران فى الفعل نفسه ، وفي الجزاء الذى ترتب عليه .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب العلم ، باب من قعد حيث ينتهى به المجلس ... ٢٤/١ ومسند أحمد ٢١٩/٥ .

وهكذا يكون الشان في القضية عند النظر فيها ، وعلى هذا النحو من الفهم تفهم الآيات التي تجمع بين المشيئتين ، من مثل قوله تعالى : « ... فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله » (الإنسان : ٢٩ ، ٣٠) وقوله : إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، رب العالمين » (التكوير : ٢٧ - ٢٩) ويقتضى هذا أن تجمع الآيات الواردة في المسألة ، بعضها إلى بعض ، على ضوء هذه الآيات التي لا تنفرد بجانب واحد من القضية ، دون الجانب الآخر منها .

ثالثا : تؤدى القراءة المبتسرة لبعض الآيات القرآنية إلي أن يفهم منها معنى الجبر ، بدرجة أو بأخرى ، وينبغي - تجنبا للوقوع في مثل هذا الفهم - أن تقرأ الآيات في سياقها العام ، الذي يلاحظ فيه ما قبلها وما بعدها من الآيات ، ثم تقرأ مرتبطة بالآيات الواردة في معناها في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، أو في ضوء التفسير النبوى لها .

ومن الأمثلة التى يمكن تقديمها في هذا الصدد ما جاء من الآيات التى تتحدث عن الختم أو الطبع على بعض القلوب ، فلا يجد الإيمان طريقه إليها ، ومن ثم يكون العقاب المؤبد في جهنم جزاء لها . وقد يفهم من ذلك أنهم مجبرون على الكفر ، وأنهم لا حيلة لهم في الإيمان . ويقول الله في أمثال هؤلاء « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون ، لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون » (النحل : ١٠٨ ، ١٠٩) ولكن النظر في الآيات السابقة يدلنا على أن الطبع على قلوب هؤلاء كان ثمرة لأفعالهم ، وجزاء على إصرارهم علي كفرهم ، وانشراح قلوبهم بما اختاروه . وفي ذلك يقول الله تعالى في التفريق بين المؤمن الذى وقع تحت الإكراه فصدر عنه مالا يتفق مع إيمانه ، وبين الكافر الذى ارتضى الكفر واطمأن إليه « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا

على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين » (النحل : ١٠٦ ، ١٠٧)(١) .

ويقول الله فى آية أخرى : « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع اللـه على كل قلب متكبر جبـار » (غافر : ٣٥) فالجدال فى آيات الله ، دون برهان ، والتكبر على الله وعلى خلقه ، والتجبر على العباد والرضا بذلك ، وإنشراح الصدر به من أسباب هذا الطبع ، الذى يعد نتيجة طبيعية متسقة مع المقدمات التى أدت إليها .

وكذلك يقول الله تعالى عن قوم نوح : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » (هود : ٣٦) وتشعر الآية - إذا قطعت عن سياقها والظروف التى وقعت قبلها - أن هؤلاء قد حكم عليهم بالكفر ، فلا يستطيعون أن يؤمنوا . والحق أن هذا الحكم الإلهى قد صدر على هؤلاء بعد أن ظل نوح يدعوهم إلى الله تعالى زمانا طويلا ، بلغ ألف سنة إلا خمسين عاما ، وقد حاول هدايتهم إلى الله بكل سبيل ، ولجأ إلى كل وسيلة . وقد صور القرآن ذلك في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » (نوح : ٥ - ٩) لكنهم قالوا له فى إصرار وعناد : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين » (هود : ٣٢ ، ٣٣) .

---

(١) وانظر سبب نزول الآية ١٠٦ من النحل فى كتب التفسير ، وانظر كذلك أسباب النزول لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى ، ص ٢١٢ وقد اضطر عمار بن ياسر إلى أن يجارى الكافرين فيما طلبوه منه عن التلفظ ، بما لا يتفق مع إيمانه ، وقد فعل ذلك بسبب الأذى الذى ناله ، ولما علم الرسول بذلك سأله عن قلبه فقال : أجده مطمئنا بالإيمان ، فقال : إن عادوا له فعد لهم . ثم نزلت الآية .

ويتشابه مع موقف قوم نوح موقف هؤلاء الذين تحدث عنهم القرآن الكريم في قوله تعالى : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم سبيلا » (النساء : ١٣٧) فههنا إصرار على الكفر ، واستزادة منه ، وعود إليه . فإذا حجب الله تعالي مغفرته عن هؤلاء فإن ذلك يكون أمرا طبيعيا لا إجبار فيه لهم ، ولا إكراه .

* ومما يتصل بقراءة الآيات فى سياقها أن يحمل المطلق فيها على المقيد ، وأن تُسْتخلص المعانى بمقارنة مدلول الآية أو الآيات بعضها ببعض ، ومن الآيات التى يمكن أن ينطبق عليها ذلك قول الله تعالى : « يدخل من يشاء فى رحمته » (الإنسان : ٣١) وهى تشعر بأن المشيئة - فى هذا الجزء من الآية - مشيئة عامة مطلقة[١] قد يترتب عليها أن يحرم الله من رحمته من هو مستحق لها ، أو أن تنال الرحمة من ليس أهلا لها . ويمكن تصحيح هذا الفهم بما ذكره الله عن رحمته فى آيات أخرى ، فالله عز وجل يقول : « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (الأعراف : ١٥٦) ويقول الله تعالى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » (الأعراف : ٥٦) ثم يدلنا النظر في بقية الآية التي بين أيدينا على أن المراد بهؤلاء الذين يدخلهم الله فى رحمته هم المؤمنون الطائعون الصالحون ، ويتضح ذلك من الحكم الذى جعله الله للظالمين فى الآية نفسها ، فالله يقول : « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا شديدا » (الإنسان : ٣١) فالآيات الأخرى ودلالة الخطاب في هذه الآية ، والمقارنة التى ترد على الذهن عند ذكر الظالمين وجزائهم توضح أن الدخول فى نطاق الرحمة ليس مطلقا ولا عاما ، ولكنه مقيد بالمؤمنين الطائعين التائبين « كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءًا

---

(١) لله تعالى مشيئة عامة مطلقة تحدثت عنها كثير من الآيات . انظر مثلا : ٢١٢ ، ٢٤٧ من البقرة ، ٦ ، ١٣ ، ٤٠ ، ٤٧ من آل عمران ، ٦٤ من المائدة ، ١٢٨ من الأعراف ، ٢٦ ، ٣٩ من الرعد ، ٤٣ ، ٤٥ من النور ، ٦٨ من القصص ، ٥ ، ٤٨ ، ٥٤ من الروم ، ٢٧ ، ٢٩ ٤٩ ، ٥١ من الشورى ، إلى عشرات الآيات الأخرى .

بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » (الأنعام : ٥٤) .

وينطبق ذلك على مثل قوله تعالى : « ... قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب » (الرعد : ٢٧) وليس الإضلال هنا عاما ولا مطلقا ، ولكنه مقيد بما جاء عن هذا الإضلال في آيات أخرى ، فالله يحكم بضلال الظالمين « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (إبراهيم : ٢٧) والكافرين « كذلك يضل الله الكافرين » (غافر : ٧٤) ثم المسرفين والمرتابين « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » (غافر : ٣٤) والمشركين « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء : ١١٦) إلخ .

وقد بين القرآن الكريم أن الإنسان مسئول عما يقع له من هداية أو ضلال ، وأن ذلك راجع عليه ، ومردود إليه .

- « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها » (يونس : ١٠٨)[1] .

ثم تدلنا المقابلة فى الآية التي معنا على أن الإضلال هنا متجه إلى هؤلاء المستكبرين على الله تعالى ، الذين لا ينيبون إليه ، ولا يؤمنون به ولا يعبدونه . وهكذا يكون الإضلال خاصا لا عاما ، ومقيدا لا مطلقا ، وهو مرهون بأصحابه ، ومترتب على أعمالهم .

رابعا : ينبغى - كذلك - أن يكون النظر فى النصوص الشرعية مصحوبا بمعرفة أسباب نزولها أو ورودها ، لأن المعرفة بذلك تلقى ضوءاً كاشفا على الآيات ، وتوضح دلالاتها . ولذلك كانت « أوفى ما يجب الوقوف عليها ، وأولى ما تصرف العناية إليها ، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها ، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها »[2] وينطبق ذلك على أسباب ورود الحديث .

---

(١) وانظر الآيات ١٥ من الإسراء ، ٩٢ من النمل ، ٤١ من الزمر .

(٢) أسباب النزول للواحدى ص٣ .

ومما تنطبق عليه هذه القاعدة من حديث[1] الرسول صلى الله عليه وسلم قوله الذى تحدث فيه عن ابتداء خلق الإنسان عند نفخ الروح فيه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله ، وحظه من السعادة أو الشقاوة . ويقول الرسول - بعد ذلك - « فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[2] .

ويمكن أن يفهم الحديث فهما صحيحا إذا قصد به أن يمتلئ قلب المؤمن بالخشية لله ، وهيبة مقامه ، وعدم الطمأنينة إلى ما يقدمه من عمل ؛ لأن ذلك كله موقوف على توفيق الله تعالى ومعونته وفضله ؛ لأن أحدا لن يدخل الجنة بعمله[3] ولذلك كان على المؤمن أن يكون قلبه موصولا بالخشية من سوابق القدر ، وخواتيم الأعمال .

ولكن هذا الحديث يمكن أن يفهم فهما خاطئا يتجه وجهة " الجبر " .

ولكن هذا الفهم الخاطىء يمكن دفعه بأمرين :

أحدهما : يخضع للقاعدة السابقة التي تحمل العام على الخاص ، والمطلق على المقيد . ويتضح ذلك بأن هذا الحديث قد روى برواية أخرى يقول فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة - **فيما يبدو للناس** - وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار **فيما يبدو للناس** وهو من أهل الجنة »[4] .

---

(١) اكتفينا هنا بمثال من الحديث ، طلبا للإيجاز ، ولأننا أشرنا إلى سبب النزول فى إحدى الآيات ، ضمن القاعدة السابقة .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه . ٤٩٦/٥ - ٤٩٨ .

(٣) ارجع إلى صحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة ... باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ٦٨١/٥ - ٦٨٤ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه ... ٥٠٥/٥ وانظر الرواية التالية التى أوردها البخارى .

ويدل الحديث على أن العمل الظاهر للناس يختلف عما استقر في القلب ، واطمأنت إليه النفس . وسيكون الحكم - في النهاية - لما استقر في القلب ، وتكون العاقبة متفقة معه . فإذا كان قلبه منافقا فسيحكم عليه نفاقه ، وإن كان مكرها أو مضطرا أو نحو ذلك فسيحكم له إيمانه ويقينه . وهكذا يأتي التخصيص في الحديث مانعا من سوء الفهم له .

وأما الوجه الثاني في دفع سوء الفهم فإنه يتأتى عن طريق العلم بسبب ورود هذا الحديث ، وهذا ما جاء في إحدى روايات البخاري له . وقد جاء الحديث فيها عن رجل من المجاهدين في جيش المسلمين ، وقد أبلى هذا الرجل في الجهاد بلاءً حسنا ، وكان لا يترك فرصة للجهاد إلا أسرع إليها حتى قيل عنه « ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنه من أهل النار » وتعجب الناس لذلك ، فتتبعه أحدهم ليرى عاقبة أمره ، وليتحقق من صدق قول الرسول عنه . وقد أصيب الرجل وجرح جرحا شديدا لم يتمكن من احتماله ، فاستعجل الموت ، وقتل نفسه بسيفه ، فرجع الرجل الذي كان يتتبعه إلي الرسول ليخبره بخبره : « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة - فيما يبدو للناس وهو من أهل النار . وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما - يبدو للناس - وهو من أهل الجنة »(١) وهذا الحكم - إذن - حكم خاص وارد في حالة خاصة ، كما يدل علي ذلك سبب ورود الحديث ، وما جاء به من تخصيص ، أما الحكم العام فهو أن المرء يموت - غالبا - علي ما عاش عليه ، وأن الله تعالى - بكرمه - قد أجرى العادة بأن من قصد الخير وفقه الله إليه ، وأعانه عليه ، ومن نوى صالحا رزقه الله الثبات عليه « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » (العنكبوت : ٦٩) أما من قصد إلى الشر فإن من عدل الله تعالى أن يكله لنفسه ، وأن يدعه وشأنه ؛ لتجزى كل

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير ، باب لا يقول : فلان شهيد ٤/٢٢٦ .

نفس بما كسبت « ... فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون » (يونس : ١١)(١) وقد قال الله تعالى : بيانا لهذا الحكم العام : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » (سورة الليل : ٥ - ١٠) .

خامسا : يُستخلص مما سبق أن النصوص الشرعية - بنصها وصيغتها أو بالفهم الصحيح لها - لا تتجه وجهة الجبر .

ومما يؤيد ذلك ويشهد له أن هذه اللفظة لم ترد فى القرآن والسنة ، " وقد أنكر أئمة السنة كالأوزاعى والثورى وعبد الرحمن بن مهدى والإمام أحمد وغيرهم هذا اللفظ . قال الأوزاعى والزبيدى : ليس فى الكتاب والسنة لفظ جبر "(٢) .

ثم إن القول بالجبر لا يصح مع التكليف الشرعى ؛ لأن التكليف يقتضى قدرا من الإرادة كي تتم المسئولية . أما المجبر الذى لا إرادة له ولا قدرة فكيف يتم تكليفه أو محاسبته ؟ ولذلك صرح أهل السنة بأن القول بالجبر « مُنَافٍ للشرائع ودعوة الرسل ، والثواب والعقاب . فلو صح الجبر لبطلت الشرائع ، وبطل الأمر والنهى ، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب »(٣) .

والقول بالجبر يعنى تكليف الإنسان بما لا طاقة له به . وهو مناقض لقوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» (البقرة : ٢٨٦) ثم يعنى أن يثاب الإنسان على مالم يفعله ، وأن يعاقب على ما لم يفعله . وكذلك لا مجال - مع الجبر - للتفرقة بين مؤمن وكافر ، ولا طائع وعاص ، ولا محسن ومسىء ، مادام ذلك كله يحدث للمرء دون إرادة منه ، أو مقدرة عليه . ويترتب عليه

---

(١) وانظر الآية ١٨٦ من الأعراف ، ٧٥ من سورة مريم ، ٤ ، ٥ من سورة النمل ، ثم انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٧٠ .

(٢) ابن قيم الجوزية : شفاء العليل ... طبع الرياض ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) السابق : ٢٩٦ .

- كذلك - أن تنسب القبائح التى تظهر على أيدى العباد إلى الله تعالى ، والله - تعالى - منزه عن ذلك[1] ثم يلزم مع هذا كله أنه يكون للكفار والمشركين أن يحتجوا لشركهم وكفرهم بالقدر الذى يكرههم على الكفر والشرك[2] وهذا ما تأباه نصوص الشريعة التى تقيم الحجة على هؤلاء بأنه « لا إكراه فى الدين » (البقرة : ٢٥٦) وأن الله لو أراد أن يكره العباد جميعا على الإيمان لكان ذلك مقدورا له ، ولكن الله عز وجل لم يفعله ؛ لتكون له الحجة على عباده . « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » (الشعراء : ٤) ويقول : « ولو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (يونس : ٩٩) .

وفضلا عن ذلك فإن القول بالجبر يتنافى مع الواقع النفسى والشعورى لدى الإنسان ، فالإنسان يحس إحساسا واضحا بالتفرقة بين الإنسان والجماد ، ثم يشعر بالفرق بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ، ولو قيل إن الإنسان منعدم الإرادة تماما لكان أقل فى درجته من الحيوان الذى تقع منه بعض الأفعال الاختيارية ، وليس الإنسان جمادا ولا حيوانا ، ولكنه متميز عنهما بالعقل والإرادة ، التي تتفق مع موقعه فى الوجود ، ومكانته فى الكون . وربما يضعف فيه جانب الإرادة أحيانا ، نتيجة لأسباب نفسية أو اجتماعية أو مرضية ، ولكن ذلك لا يعنى أن الإنسان - بصفة عامة - مجرد عن الإرادة ، أو مجبرا إجبارا مطلقا .

والقول بالجبر يوقع الإنسان فى التناقض ؛ لأن المعتقد لذلك سيلزمه أن يثبت الجبر للآخرين أيضا « وحينئذ فيلزم ألا ينكر على من يظلمه ويشتمه ، ويأخذ ماله ويفسد ...

---

(١) انظر السابق ٢٩٧ ، وشرح الأصول الخمسة ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ومجموع فتاوي ابن تيمية ٢٦٣/٨ ، ٢٦٤ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٦٤/٨ وشرح الأصول الخمسة ٣٤/٤ ويلاحظ أن أهل السنة يتفقون مع المعتزلة فى رفض الجبر لما يترتب عليه من لوازم ونتائج سيئة ، وإن كان ذلك لا يعنى الاتفاق التامّ فى النظر للمسألة .

ويضرب عنقه ، ويهلك الحرث والنسل »[1] وهذا غير ممكن بالفطرة ؛ لأن الإنسان - في العادة - ينهض للدفاع عن نفسه وعرضه وماله ، ويتصدى لمن يريد انتقاص حقوقه أو الاعتداء عليه أو على من يلوذ به . وهذا معناه أن للآخرين إرادة ، وأنهم مسئولون عن أعمالهم ، وأنهم ليسوا مجبرين عليها ، وهذا يقتضي أن يكون له هو أيضا من الإرادة مثل مالهم ، ومن ثم فالقول بالجبر مرفوض عقلا وفطرة .

ويضاف إلى هذا كله أن القول بالجبر يؤدى إلى فساد الحياة الاجتماعية ؛ لأنه ما أسهل أن يحتج به أصحاب المعاصي والكبائر ، فالسارق والقاتل والغاصب وأمثالهم يمكن أن يحتجوا لأفعالهم بالقدر ، وقد ظهر شيء من ذلك على عهد عمر ، وعرض بعضه على عبد الله بن عمر[2] ، فوقفوا لهؤلاء وقفة حازمة ، وغلظوا عليهم العقوبة لأن القول بهذه الفكرة يؤدى إلى فساد المجتمعات الإنسانية ، التي تقوم على عدة مبادىء ، منها قاعدة المسئولية ، وهي قاعدة دينيـة شرعية « كل امرىء بما كسب رهين » (الطور : ٢١) وهي - كذلك - قاعدة قانونية ضرورية لقيام وانتظام المجتمعات الإنسانية . لأن « نظرية المسئولية هي العمود الفقري في النظام القانوني كله ، وهي ليست فكرة قانونية فحسب ، بل هي نظام اجتماعي ، يرتبط بعلوم شتى من بينها القانون ... وأساس المسئولية يرتبط ارتباطا مباشرا ولازما بمشكلة الحرية ، ودور الإرادة الإنسانية في صنع القرار الصادر عن كل فرد »[3] . والقول بالجبر يؤدى إلى الفرار من المسئولية ، كما يؤدى إلى شيوع الجرائم والفساد الاجتماعي ، بل إنه يكاد يؤدى إلى زوال مثل هذه المجتمعات التي تسود فيها هذه الفكرة ، ولذلك عنى قادة الفكر ودعاة الإصلاح بأن يُحَذِّروا منها ، وأن ينبهوا إلي مخاطرها وأضرارها ،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٦٣/٨ .

(٢) سبقت الإشارة إلى ذلك قريبا .

(٣) د/ محمد كمال إمام : المسئولية الجنائية : أساسها وتطورها - دراسة مقارنة في القانون الوضعي والشريعة الإسلامية ، دار البحوث العلمية الكويت ط١/١٩٨٣ ص١٥ ، وانظر التصدير للدكتور عوض محمد عوض ص ٧ .

وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده (١٩٠٥) « ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا خيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب .

وأجدر بهم - بعد ذلك - أن يتحولوا من عالم الوجود إلى العدم »[١] وهكذا تجتمع الدواعي كلها لتقف فى وجه الجبر ، فهى دواع نفسية واجتماعية وقانونية ، ثم هي دواع دينية لا ترتضى الجبر ولا تتقبله .

سادسا : ليس معنى ما سبق أن الإنسان ذو إرادة مطلقة غير مقيدة . فهناك شروط تحيط بوجوده ، لا مدخل له فيها ، فهو لا يختار أبويه ، ولا لحظة ميلاده ، ولا مكان ولادته ، والإنسان لا إرادة له فى تحديد نوعه ولونه ، ولا فى اختيار الأعضاء التى تعمل فى بدنه بطريقة غير إرادية ، وهو خاضع للقوانين الطبيعية التي تؤثر تأثيرا قويا في حياته . وهو لا يستطيع أن يخرق هذه القوانين ، ولا أن ينجو بنفسه من الموت ، مهما طال عمره .

ثم هو خاضع - كذلك - لشروط الحياة الاجتماعية وقوانينها ، وللظواهر الاجتماعية وتأثيرها فيه ، وفى إرادته ، بحيث يصعب أو يتعذر عليه تجاهلها ، وهو يحدد سلوكه ، أو يتخذ قراراته . ويبلغ تأثير هذه الظواهر مدى جعل بعض علماء الاجتماع يصفها بأن لها طبيعة قاهرة[٢] بل إن الحياة الاجتماعية تحتاج في قيامها إلى أن يتنازل الأفراد عن بعض حقوقهم وحريتهم من أجل إقامتها . ويمكن تلخيص الشروط التى تقتضيها هذه الحياة الاجتماعية « فى شرط واحد ، هو التنازل الكامل

---

(١) الشيخ محمد عبده : المسلمون ، طبع دار الهلال ١٩٦٣ ص١١١ .

(٢) انظر كلام اميل دور كايم عن خصائص الظاهرة الاجتماعية ، ومنها أنها قوة قاهرة آمرة فى كتابه : قواعد المنهج فى علم الاجتماع - ترجمة وتقديم د/ محمود قاسم ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٤ ص ٥٢ ، ٥٣ .

من جانب كل واحد عن حقوقه للمجموع » بحيث تخضع إرادته للتوجيه الأعلى للإرادة العامة »[1] .

ولا تنتظم المجتمعات إلا بتشريع القوانين المنظمة لحقوق الأفراد وواجباتهم ووسائل الحماية لها . وهى قوانين ضرورية ، هدفها هو الحفاظ على الحياة الاجتماعية ، ولكنها تحد - فى الوقت نفسه - من حرية الأفراد ، بصفة عامة ، ولا سيما الحريات التى تتعارض مع حريات وحقوق الآخرين ، أو التى يؤدى إطلاقها إلى الفوضى .

ثم تأتى العقائد والشرائع السائدة فى المجتمع ليكون لها - كذلك - سلطانها وتأثيرها في توجيه الإرادة الإنسانية .

ومن الغريب أن بعض القائلين بالحرية يُسَلِّمون بخضوع الإرادة الإنسانية لقوانين الطبيعة والقوانين الاجتماعية ، ولكنهم يتمردون على القيود المنظمة للإرادة والموجهة لها إذا كانت مستمدة من عقيدة دينية ، للاعتقاد بأن الوجود الإنسانى يخلق نفسه بنفسه فى الحرية (!) بل إن وجوده هو الحرية ذاتها ، وبدونها لا يكون له وجود ، بل إنه محكوم عليه بأن يكون حرا ، وبما أن الإنسان كذلك فهو صانع القيم ، وهو أساس تحديدها . وهذه الحرية الدائمة هى التى تؤسس معنى وجوده ووجود العالم . وما دام الأمر كذلك فإنه لا يخضع لأى مصدر آخر ليس نابعا من ذاته ، وهو بهذا لا يريد أن يكتفى بكونه إنسانا ، بل إنه يتطلع إلى الألوهية[2] (!!) .

وعلى الرغم من هذه الادعاءات الكبرى التى تقال فإن الإنسان لا يستطيع أن ينقض قوانين الوجود أو نواميس الطبيعة . ولذلك يقع فى هوة العجز والقلق والفشل ،

---

(١) انظر جان جاك روسو : المختار من العقد الاجتماعى ، ترجمة عبد الكريم أحمد ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ ص ٧١ ، ٧٢ وانظر مقدمته بقلم د/ حسن سعفان ص ١٥ .

(٢) انظر : ريجيس جوليفيه : المذاهب الوجودية من كيركجورد إلى جان بول سارتر ، ترجمة فؤاد كامل ، الدار المصرية للتأليف والترجمة صفحات ٥٩ - ٦١ ، ١٥٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ - ٢٥٣ ومواضع أخرى ، والفلسفة المعاصرة فى أوروبا ، بوشنسكى ، مرجع سابق ص ٢٦٥ ، ٢٦٧ - ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٩٣ .

ثم ينتهي وجوده بالموت ، وهو أبلغ دليل على أن حريته ليست مطلقة ، وهو كائن تحيط به القوانين التى تحكم وجوده من كل جانب ، وبعضها طبيعى ، وبعضها اجتماعى ، وبعضها قوانين أخلاقية يضعها لنفسه أو يضعها المجتمع ، ولا غرابة - إذن - فى أن يعترف بأن إرادته خاضعة - كذلك - لإرادة عليا ، هى الإرادة الإلهية ، وهي إرادة الله ، الذى خلق الإنسان ، وحفظه وأمده بنعمه التى لا تحصى ، ووعده بالخلود الذى لا تعده به أمثال هذه الفلسفات العدمية .

سابعا : وما دام الإنسان ليس كائنا مطلق الإرادة والحرية ، ولا كائنا مسلوب الإرادة والحرية فهو في منطقة وُسْطى بينهما ، يأخذ من كل جانب منهما بنصيب . والأمر - فى القضية إذن هو « أمر بين أمرين » كما قال بعض السابقين(1) وفى ذلك يقول جعفر الصادق عندما سئل : « هل العباد مجبرون ؟ فقال : الله أعدل من أن يجبر عبده على معصية ثم يعذبه عليها . فقال له السائل : فهل أمرهم مفوض إليهم ؟ فقال : الله أعز من أن يجوز فى ملكه مالا يريد . فقال له السائل : فكيف ذلك ، إذن ؟ قال : أمر بين الأمرين ، لا جبر ولا تفويض »(2) وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما نحو مقالة جعفر(3) .

فأما الجانب الذى من جهة الجبر فيدخل فيه التكليف والابتلاء(4) الذى يعرض للإنسان بمقتضى وجوده « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »

---

(1) ينسب هذا القول إلى الإمام على بن أبى طالب . انظر نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده ، طبعة المعرفة للطباعة ٤/١٧ .

(2) التنبيه للبطليوسى ص١٤٠ وقد نسب المحققان هذا القول إلي جعفر الطيار وهو جعفر بن أبى طالب ، وهذا بعيد جدا ، وأشارا فى الهامش إلى نسخة أخرى جاء فيها أنه جعفر الصادق ، وهذا هو الأقرب بل لعله هو الصواب .

(3) السابق ص ١٤١ .

(4) انظر معالجة موسعة للابتلاء وللتجربة الابتلائية لدى د/ فاروق دسوقى في كتابه : حرية الإنسان فى الفكر الإسلامى . دار الدعوة ١٩٨٢ ص ١٦٦ وما بعدها ، ٣٨٨ وما بعدها .

(الملك : ٢) ، « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (الكهف : ٧) وليس هذا الابتلاء مقصورا على الابتلاء بالشر ، كما قد يتبادر إلى الأذهان ، ولكنه ابتلاء عام بالخير والشر : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » (الأنبياء : ٣٥) وقد قال الله عن بنى إسرائيل : « وبلوناهم بالحسنات والسيآت لعلهم يرجعون » (الأعراف : ١٦٨) .

والمؤمن يستعين بالله تعالى كى يتحمل ما يبتلى به ، بل إنه مأمور بذلك . فإذا ابتلى بما يوافق مراده ، ويحقق رجاءه فإنه مطالب بالشكر على ذلك ، وإذا ابتلى بما يؤلمه في نفسه أو أهله أو فيما يهمه فإنه مطالب بالصبر على ذلك إن كان من الأقدار التى لا يمكن ردها كالموت ونحوه . أما إذا كان من الأقدار التى يمكن مواجهتها ومدافعتها فإنه يكون مكلفا بذلك شرعا كالمرض ونحوه فإن الله ما خلق داء إلا خلق له دواء ، ولذلك جاء الأمر بالتداوى فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم[١] وإن كان من الأقدار التى تقع على أيدى العباد فإنه مكلف بالتعامل معها بمقتضى الفطرة والعقل والدين ، فإن جاء إليه من يريد أخذ ماله أو الاعتداء عليه فإن عليه أن يقاومه ويدافعه وأن يرد الظلم عن نفسه ، « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » (الشورى : ٣٩) ومن أحسن إليه أحسن إليه بمثل إحسانه . وهكذا .

وبذلك لا يقع فى يأس ولا قلق ولا قهر ولا قنوط ، ويكون كل أمره له خيرا « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »[٢] وله مع صبره حسن المثوبة والجزاء من الله تعالى :

---

(١) انظر مثلا : صحيح البخارى ، كتاب الطب ، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ١١/٧ ، ١٢ وصحيح مسلم كتاب السلام ، باب لكل داء دواء واستحباب التداوى ٥١/٥ ، ومسند أحمد ٢٧٨/٤ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ٨٤٤/٥ .

« ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن ، حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيآته »[1] .

وأما الجانب الذى من جهة الإرادة فإنه هو الذى يدفع الإنسان إلى تحقيق وجوده ، وتكميل ذاته ، والقيام بأعباء الاستخلاف الذى خلقه الله له ، وأداء حق الأمانة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان .

وعليه بمقتضى ذلك أن يسعى ويعمل للنهوض بهذه الأمانة فى غير تهاون ولا كسل ، ودون شعور زائف بالقهر والعجز والجبر ؛ لأن ذلك كله يبدد قواه ، ويدمر ملكاته وطاقاته التى أودعها الله فيه لتحقيق رسالته فى الوجود ، وهو موصول في سعيه هذا بعون الله تعالى ، الذى يمده بفضله ، ويعينه على أمره ، ما دام محافظا على عهده مع ربه « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل اللـــه لكل شيء قـدرا » (الطلاق : ٢ ، ٣) .

ثامنا : وليس للإنسان - بمقتضى إيمانه بالقضاء والقدر - أن يتعلل لتقصيره وتواكله وكسله بعلم الله السابق فيه ؛ لأن الإنسان ليس له علم بما كتب الله له ، وليس له دراية بمشيئة الله فيه .

وقد سبق المشركون إلى الاحتجاج بهذا الأمر ، ولكن القرآن الكريم بين لهم أنهم ليس لديهم علم بمشيئة الله فيهم . وفى ذلك يقول الله تعالى : « سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا . إن تتبعون إلا الظن ، وإن

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك وجاء فى بعض رواياته حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة ٤٣٧/٥ وانظر : ٤٣٤/٥ - ٤٣٧ .

أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة » (الأنعام : ١٤٨ ، ١٤٩ ،انظر الآية ٣٥ من سورة النحل)(١) .

وقد فهم الصحابة - رضوان الله عليهم - من قديم أن علم الله السابق ليس جابرا للخلق ولا قاهرا لهم ؛ لأنه ليس لديهم به علم حتى يتعللوا به . وقد نسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : « مثل علم الله كمثل السماء التى أظلتكم ، والأرض التى أقلتكم ، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض فكذلك من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب فكذلك لا يحملكم علم الله عليها »(٢) وكذلك قال ابن عمر ، عندما علم باحتجاج أهل الكبائر لذنوبهم بالعلم الإلهى « سبحان الله ! قد كان ذلك في علمه أنهم يفعلونها ، فلم يحملهم علم الله على فعلها »(٣) .

ومما يؤكد أنه لا يصح التعلل بالعلم السابق للوقوع فى الشرك والمعاصى أن هؤلاء العصاة والمشركين يستشعرون فى قرارة أنفسهم أن هذا الادعاء منهم لا حقيقة له فى واقع الأمر ، ولكنهم يتظاهرن به ويعلنونه ؛ فرارا من المسئولية وتهربا من العذاب ، أما التحليل الدقيق لأفعالهم فإنه يظهر أنهم يقبلون على هذه الأفعال وهم راضون بها ، مطمئنون إليها ؛ لأنها توافق هوى فى نفوسهم ، أو لأنها تحقق منفعة عاجلة لهم . وإذا جاء إليهم من ينهاهم عنها أو من يحاول أن يحول بينهم وبينها فإنهم يقاومونه ويتصدون له. وهذا دليل على أنهم يفعلونها بإراداتهم واختيارهم ، وأنه لا دخل للعلم الإلهى السابق فى إجبارهم عليها كما يدعون . وهذا كما يقول الطبرى (٣١١) يصحح

---

(١) وانظر كذلك الآية ٢٠ من سورة الزخرف .

(٢) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، للقاضى عبد الجبار بن أحمد تحقيق الأستاذ فؤاد سيد ، طبع تونس والجزائر ط٢/١٩٨٦ ص١٤٥ .

(٣) السابق : الموضع نفسه . ويمكن اعتبار هذين القولين وما يشبههما أصلا لما ظهر عند المتكلمين - من بعد - من أن العلم صفة انكشاف . ومن ثم فليس جابرا لأحد على فعل ما لا يريد .

« أن علم الله النافذ فى خلقه بما هم عاملون ، وكتابه الذى قبل خلقه إياهم ، بأعمالهم - لم يضطر أحدا منهم إلى عمله ذلك ؛ لأن المضطر إلى الشيء لا شك أنه مكره عليه ، لا محب له ، بل هو له كاره ، ومنه هارب . والكافر يقاتل - دون كفره - أهل الإيمان . والفاسق يناصب - دون فسقه - الأبرار ؛ محاماة عن كفره الذي اختاره على الإيمان ، وإيثارا من هذا لفسقه على الطاعة . وكذلك المؤمن ، يبذل مهجته دون إيمانه ، ويؤثر العناء والنصب دون ملاذه وشهواته ... وأنى يكون مضطرا إلي ما يعمله من كانت هذه صفاته ؟ »(١) .

ومما يدل على تناقض هؤلاء الأدعياء وإيثارهم لأهوائهم التى اختاروها بإرادتهم ، ثم أرداوا التخلص من آثارها بدعوى الجبر أن هؤلاء يعلمون ما أخبرهم به الأنبياء والرسل من إن الله تعالي قد حرم الكفر والشرك والمعاصى ، ونهى عنها ، وحذر بالعقوبة والعذاب الشديد لمن يفعلها ، ثم لم يخبرهم بما كتبه عليهم فى قدره منها ، فهم يعلمون أمره وحكمه وشرعه ، ويجهلون علمه السابق وقدره ، فتركوا ما يعلمون من الأمر والحكم والشرع ، وتمسكوا بما يجهلون من العلم السابق والقدر ، وهذا من التلاعب والمكر ، والمخالفة لأمر الله تعالى وإرادته ، وهو ما يجب الحذر منه لعدم غنائه وقلة جدواه . وليكن الاشتغال بما هو معلوم ، والانصراف عن التشاغل أو الاحتجاج بما هو غير معلوم(٢) .

تاسعا : ويبقى أن نشير - فى النهاية - إلى أن الإيمان بالقدر فرع الإيمان بالله تعالي وأسمائه وصفاته . وقد قال ابن عباس فى هذا المعنى « القدر : نظام التوحيد . فمن وحد الله تعالى وكذب بالقدر كان تكذيبه نقضا للتوحيد ، ومن وحد الله وآمن بالقدر كانت العروة الوثقى »(٣) .

---

(١) آراء الطبرى الكلامية ، للباحث طه محمد نجا رمضان ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ٢٠٠٠ ص٢٦٤ .
(٢) انظر : نهاية الأقدام للشهرستانى ٢٥٩ .
(٣) الشريعة للآجرى ص ٢١٥ .

بيد أن هذا الإيمان بالقدر يتطلب البعد عن الجدال والمنازعة والاسترسال فيه مع الآراء المتعارضة ، والمذاهب المتناقضة ، التى أخذ كل منها بطرف من النصوص دون بعض . ومن شأن الجدال فى هذه المسألة وفي غيرها أن ينتزع السكينة والطمأنينة من القلب ، وأن يوقع الإنسان فى الحيرة والتردد ، والتذبذب بين الآراء ولعل هذا هو السر فى نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن التنازع فى القدر ، وفيما جاء عنه من قوله : « إذا ذكر القدر فأمسكوا »(١) ولم يكن الرسول يحب لهم أن يشغلوا أنفسهم بالجدال الذي لا طائل من ورائه ، فضلا عما يؤدى إليه من تمزيق وحدتهم ، وتفريق جماعتهم . ولذلك كان ينصحهم - إذا سألوه عن القدر - بأن يصرفوا جهودهم إلي العمل ، وقد جاء فى الحديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالسا ، وفي يده عود ينكت به . فرفع رأسه فقال : ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار . قالوا : يا رسول الله ، فلم نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له . ثم قرأ : فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »(٢) (الليل : ٥ - ١٠) .

فالانصراف إلى العمل والاجتهاد فيه يمثل اتجاها عمليا واقعيا لحل المشكلة ؛ لأن العمل - فى ذاته - دليل صادق على تحقق الإرادة الإنسانية . والعامل يرى نفسه تحقق وجودها تحقيقا واضحا يدل على نية وإرادة وقدرة ونصيب ملموس من الحرية .

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية وقال : غريب من حديث الأعمش ، تفرد به مسفر ٤/١٠٨ وقال عنه السيوطى رواه الطبرانى وغيره عن ابن مسعود ، ورواه غيره عن ثوبان وعمر . وعلّم عليه بالحسن . انظر الجامع الصغير ١/٢٦ وقال ابن حجر : أخرجه الطبراني بإسناد حسن ، فتح البارى ١١/٤٨٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمى في بطن أمه ٥/٥٠٣ ، ٥٠٤ وانظر ٥/٥٠١ - ٥٠٤ .

ثم كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينصح بعدم التوقف عن العمل إذا ابتلى الإنسان بما يكرهه أو يسوؤه ؛ لأن التوقف يفتح عليه بابا من الندم العجز الذى لا يفيد ، والقنوط الذى لا ينبغى أن يكون من خصال المؤمن ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ... احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز . وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن " لو " تفتح عمل الشيطان »[1] .

ومثل هذا المنشغل بالعمل لن يتوقف ليتساءل عن حريته وإرادته ، وهل هو مختار أو مجبر ؛ لأن مسلكه العملى يقدم له الجواب عن هذه التساؤلات ، وسينجو بمسلكه هذا من الموقف « السكونى العاجز » الذى يتصف به من يقفون عند حدود النظر والجدل ، ومناقشة الآراء وتفنيدها ، دون الوصول إلى رأى حاسم فى المسألة .

....

ولعل ما قدمناه من قواعد وأصول يلقى ضوءًا كاشفا على هذه القضية الشائكة التى شغلت البشرية منذ بداية الوجود. وبها يكتمل الحديث عن الأصول الستة للإيمان .

....

والحمد لله رب العالمين ، الذى بنعمته تتم الصالحات .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب الإيمان بالقدر والإذعان له ٥ / ٥٢٠ ، ٥٢١ .

الفهرس

رقم الإيداع

٢٠٠٠ / ١٧١٣٠

الترقيم الدولى

977 - 222 - 217 - 5

دار الهانى للطباعة

٤٤٤٢٠٥٥

